مدخل

أقنعة المعلم العاشر

لويس عوض

بين الديموقراطية والماركسية

عبدالرحمن أبوعوف



المجلس الأعلى للثقافة

مدخل
أقنعة المعلم العاشر

لويس عوض
بين الديمقراطية والماركسية

عبد الرحمن أبوعوف



٢٠٠١



مدخل

لبعد محورى من المشروع الثقافى

١ - لماذا هذه المحاولة النقدية الإجرائية للاقتراب وإلقاء الضوء ومناقشة وتحليل جوانب من المشروع الثقافى للمعلم العاشر لويس عوض بعد رحيله الفاجع من إحدى عشر سنة (رحل فى سبتمبر ١٩٩٠) ؟

والسؤال الأهم محاولة المناقشة فى سياق التحول إلى التعددية الحزبية واحترام الرأى والرأى الآخر والاتجاه لتأكيد القانون والديمقراطية.

٢ - لماذا طالبت بل ركزت جزءاً كبيراً من جهدى ووقتى فى ملاحقة الصحافة القومية والمعارضة لرفع الحصار والتعتيم عن المشروع الثقافى للويس عوض ورد الاعتبار لهذا المثقف المصرى العربى النبيل والذى يجمعه وزميله محمد مندور ليس التلمذة للعميد والمعلم طه حسين فقط بل يقدمان لدارس الثقافة والنقد والسياسة أبرز وأصدق وأرقى نماذج نقاد ومثقفى جيل الأربعينيات جيل الانتفاضات الطلابية والعمالية وصعودها فى سنة ١٩٤٦ .

- الجيل النبيل والمأساوى فى نفس الوقت والذى عاش الغليان والقلق السياسى والثقافى قبل انهيار النظام الملكى وحكم تحالف القصر والاحتلال وكبار الملاك .. والذى تهرأ لعوامل عديدة أبرزها خلل بنية النظام السياسى المصرى الملكى الليبرالى التابع القائم على دستور عام ١٩٢٣، ودور الاحتلال الإنجليزى وكبار الملاك .

- إن كلا من محمد مندور ولويس عوض - بعد عودتهما من البعثة الدراسية الأول من باريس والثانى من لندن / كامبردج قد شارك وانغمس واقترب من القوى السياسية الشابة والمتمردة على إفلاس الليبرالية المصرية التابعة

للنمط الأوربى الإنجليزى والفرنسى بالذات. مندور انتمى ليسار الوفد (الطليعة الوفدية) أما لويس عوض فقد اقترب من التنظيمات الماركسية غير أنه لم ينتظم في أي منها لعوامل معقدة فكريا وسياسياً وهى التى كانت تتميز بالانقسام وأصابع اليهود المتمصرين وأبناء الذوات ... وبقراءة شهادات الماركسيين وبالاقتراب منهم وبتجربتى السريعة والعاجلة عندما انتميت فى أعوام ٥٦ ،٥٨ خلال صعود المشروع الناصرى للنهضة وقبل أن ألتقى بلويس عوض وأصبح بعد خلافات فكرية وسياسية ونقدية من أقرب أصدقائه وتلاميذه إلى قلبه وعقله ... قبل كل ذلك وبقدر ما أتيح لى مبكراً من قراءة كتبه الأولى فى مكتبة شقيقى الكبير د. عبد الملك أبو عوف مؤسس جامعة المنيا وأول مصرى يرأس جامعة صنعاء وعالم كمياء وصيدلة مرموق ومثقف موسوعى ، وهو من رموز جيل الأربعينيات ، انتمى مبكراً لمصر الفتاة وكان صديقاً لأحمد حسين حتى رحيله وعبر سريعا خلال زملائه فى الصيدلة والطب وأبرزهم: عبد المعبود الجبيلى والخفيف وعصام جلال وآخرين بجامعة الأبحاث الماركسية غير أنه انتمى للحزب الوطنى الجديد بزعامة فتحى رضوان قبل الثورة ، كذلك تعرف بالقاضى (أحمد فؤاد) الماركسى والذى ظل حتى رحيله العضو المنتدب لبنك مصر ودوره معروف فى علاقته بخالد محى الدين اليسارى البارز وعضو مجلس قيادة الثورة. كل هؤلاء عرفتهم شخصياً وأنا في صباى في الابتدائية والثانوية .. ولكن هذا ليس موضوعنا وليس هذا مجال كتابة التكوين السياسى لى والمبكر عبر أخى الكبير، المهم قرأت فى مكتبة د. عبد الملك أعداد من مجلة الكاتب المصرى برئاسة طه حسين فالتهمت وتعمقت وشدتنى وأرشدتنى مقالات لويس عوض عن الأدب الإنجليزى بل كانت بدايات دليلى للتعمق فيما بعد فى الأدب الإنجليزى فى كل عصوره وشعرت بالفارق الكبير بينه فى الأستاذية ودقة وفنية الأسلوب والمنطق العقلانى التقدمى الإنسانى الموسوعى وبين ما كتبه كل من العقاد وسلامة موسى عن الأدب الإنجليزى من قشور وملخصات لا تغنى ولا تفيد فى تعميق مسألة جدلية الإبداع الأدبى مع العصر وحضارته وسياقه السياسى والاقتصادى والاجتماعى .

– وإذا كان فضل د. عبد الملك رمز جيل ١٩٤٦ أنه قد عرفنى مبكراً على لويس عوض فيأتى الفضل الثانى من شقيقى الأوسط جراح الأسنان والمفكر والفنان د. إبراهيم أبو عوف الذى انتمى لليسار مع زميله ميشيل كامل فى سنوات حسم الصراع بين اتجاهين فى مجلس قيادة الثورة أعوام ٥٣ ، ١٩٥٤ ، اتجاه يقوده بميكيافلية وثورية

لها طموح وطنى وانتماء للفقراء ضد باشوات الإقطاع الذين تسللو لكل الأحزاب بما فيها الوفد وهو اتجاه عبد الناصر مع معظم أعضاء قيادة الثورة الرافضين لكل الاتجاهات السياسية قبل الثورة وبالذات الليبرالية الوطنية والماركسية وفيما بعد بعض قادة الإخوان المسلمين وبين قلة من الضباط الديمقراطيين واليساريين وممثلهم فى مجلس الثورة كل من يوسف صديق وخالد محيى ... وقد وعيت مبكراً سياسيا ثم أتيح لى قراءة كل ما كتب عن أزمة الديمقراطية الشهيرة في مارس ١٩٥٤ وهى التى تعتبر مفترق الطرق فى ظاهره ثورة يوليو ١٩٥٢ التى قامت أولا كانقلاب عسكرى ضد الفساد والخيانة للملك والأسلحة الفاسدة للجيش فى حرب فلسطين ١٩٤٨ ثم تحولت من شعار الحركة المباركة والنظام والعمل والاتحاد والوعد بالحكم ثلاث سنوات لتطوير الدولة من الفساد والإقطاع وخيانة السياسيين المحترفين ... ولأن ضباط ٢٣ يوليو ٥٢ لم يكونوا ضباطًا انقلابيين فقط بل كانوا شبابًا متحمسًا وطنيًا على صلة بالغليان السياسى فى الشارع المصرى خاصة فى الفترة القلقة المضطربة من ٤٦ حتى ١٩٥٢ كانوا يمثلون اتجاهات مصر الفتاه والإخوان المسلمين وقلة من اليسار وقلة من المستقلين الوطنيين دون برنامج اجتماعى محدد .

- هذه السنة مارس ١٩٥٤ مفترق طريق ثورة يوليو ١٩٥٢ أتيح لى وحتي الآن مقابلة وحوار وجمع شهادات أطراف من رموزها السياسيين والمؤرخين والكتاب والنقاد والمفكرين من تيارات متعددة .

- وخرجت بيقين نمى فى تكوينى السياسى والثقافى ومرورا بتجربة التصدى لرصيد صعود ظاهره كتابات جيل الستينيات فى القصة القصيرة فى سياق صعود الناصرية كحكم قومى وتحرر وعدالة اجتماعية ثم الهزيمة فى ٦٧ وتكشف مآسى حكم أجهزة المخابرات وفساد المشير عامر وشمس بدران في قيادة الجيش والثوب الفضفاض للحزب الواحد الذى ضيع مجد عبد الناصر وضيعنا معه فى الاتحاد فى ١٩٦٧ هو قيام نظام سياسى منذ ١٩٥٤ وطنى طموح ينتمى للفقراء ويقوم بتجربة لتحديث مصر ثقافيًا وعلميًا وصناعيًا .. ويطمح أن تلعب مصر دورها التاريخى فى قلب أمتها العربية ودورها الحضارى المحورى فى منطقة الشرق الأوسط، بوصاية بانوبا كرتيه .

– كل هذا المجد قائم علي نظام شمولي وليس له قاعدة ديمقراطية تسمح بحق الاختلاف والرأى والرأى الآخر واحترام القانون – والمعارضة .

– لقد أجل عبد الناصر مبدأ بناء الديمقراطية ووضعه فى نهاية برنامجه بعد أن انتصر في ١٩٥٤ على خصومه ، واعتقد وبعد بدايات السادات فى ١٥ مايو ١٩٧١ وما أعقبها من فك الاتحاد الاشتراكى إلى مناحى يمين ويسار ووسط ثم السماح بعودة التعددية الحزبية وتأسيسه للحزب الوطنى الديمقراطى .. أعتقد ورغم أهمية هذا القرار في مسار ثورة يوليو ١٩٥٢ السياسى إلا أن السادات ولعديد من الأسباب بتكوينه السياسى وتغيرات العالم وتكتيكاته ضد المعارضة اليسارية والناصرية التى أقولها صراحة رغم اعتبار أجهزة أمن السادات عام ١٩٧٥ لى أنى أنتمى لصفوفها وقامت باعتقالى فى يناير ١٩٧٥ بقضية ملفقة . أقول وبعد تجربة سنين تصل أكثر من ثلاثين عامًا كناقد وكاتب له موقف مع التقدم والثورة على كل ما يقف ضد طموح أحلام الإنسان المصرى البسيط، أن كلا من السادات والمعارضة نفسها بصفوفها اليسارية والناصرية زاعقة الصوت ارتكبا فى تكتيكاتهما السياسية مقولات وسلوكيات بعيدة عن صراعات القوى العالمية وظروف المنطقة العربية وأنظمتها الملكية والقبلية والجمهورية الشمولية كذلك أوضاع مصر الاقتصادية وصراعاتها التاريخية مع المشروع الإسرائيلى الصهيونى ... والأخطر ترصد الولايات المتحدة الأمريكية وبعد أن قاتل الجيش المصرى ببطولة فى معركة العبور المجيد فى ٦ أكتوبر ٧٣ ودخل سيناء .

– ترصدها لعدم تكرار هذا الهجوم المفاجئ الذى هدد أمن ومخطط إسرائيل وحليفتها الولايات المتحدة الأمريكية التى قررت ألا تضمن تفوقها العسكرى الثارى على الأمة العربية بل تخطط لهيمنتها الاقتصادية مستغلة – للأسف – تخلف أداء النظم العربية مع المتغيرات فى الثورة التكنولوجية وعلوم الاتصال وثورات ما بعد الثورة الصناعية.

– من أخطاء السادات التكتيكية ضد المعارضة اليسارية والناصرية بعد أن نجح وساعدته هشاشة وأكذوبة أجهزة النظام الناصرى الأمنية والحزبية التى مارست قهر القوى السياسية التى ظلت خارج سياق الحزب الأوحد الفضفاض الذى سيطر عليه اليمين المعادى للجوانب الاشتراكية الفوقية الناصرية .. وأكبر دليل أن أجهزة صلاح نصر وسامى شرف كانت تركز على أمن النظام الناصرى الشمولى فى الداخل بدلاً من التركيز على العدو الرئيسى وهو إسرائيل وارتكبت تجاوزات قمعية ضد المثقفين

أدركها – للأسف – عبد الناصر بعد هزيمة ١٩٦٧ .. كان تكتيك السادات رداً انفعاليا وخطيئة تاريخية في نفس الوقت أنه بدلاً من علاج شمولية عبد الناصر بانفتاح ديمقراطى ... أخرج من السجون الجماعات الإسلامية المتطرفة التى شكلت الجيل التالى لجماعة الإخوان المسلمين التى قمعها بدموية عبد الناصر خاصة بعد إعدام رموزها وأبرزهم سيد قطب والذى خرجت من عباءته وكتابه [معالم على الطريق] كل جماعات الإرهاب والتطرف أخرجها ليستخدمها ضد معارضيه من اليساريين والناصريين ... ومن حقى كناقد وكاتب عايش على الأقل فى مستوى الحقل الثقافى والإعلامى الصحفى بالذات عايش ومارس الكتابة في أبرز منابر الجرائد والمجلات منذ ١٩٦٨ التى كان يرأسها رموز من اليساريين والناصريين أن أتساءل هل غاب عن إدراكهم السياسى أن السادات عين نائبا باختيار عبد الناصر؟ وكان هذا طبيعيًا فى انفراد عبد الناصر بالقيادة السياسية بعد أن اختلف مع كل أعضاء مجلس قيادة الثورة ومعروف أن الوحيد منهم والذى وثق عبد الناصر في ولائه له وهو عبد الحكيم عامر منذ ترقيته فى مارس ١٩٥٤ قائدا ووزيرا للدفاع ، هل غاب عن إدراكهم السياسى أن عبد الحكيم عامر حول ثقة عبد الناصر له بتأمين المؤسسة العسكرية من أى انقلاب ضده استغل هذه الثقة ورضى بدور الرجل الثانى لأن عبد الحكيم عامر ورغم شجاعته فى حرب فلسطين ودوره في الثورة كان رجلا يحب الحياة الدنيوية وشيخ عرب . باختصار هيمن عبد الحكيم عامر على الجيش وتدريجياً فقد عبد الناصر وقبل هزيمة ٦٧ أى سلطات على الجيش كقائد أعلى ... والكل يعرف ذلك ... وعندما فُرض على عبد الناصر أن يرد الاعتبار للمؤسسة العسكرية التى جنى على وطنيتها ودورها فى تأمين حدود مصر ضد العدو الإسرائيلى كان يجب أن يتخلص من عبد الحكيم عامر وحاشيته التى أساءت لتراث المؤسسة العسكرية الوطنية والمنحازة للشعب منذ أن وضع تراثها وتقاليدها أحمد عرابى.

وكان التخلص من عبد الحكيم عامر عملية تراجيدية ولا أجد أبلغ من تحليل لويس عوض لما سبق أن قلته عن دور عبد الحكيم في ضرب مشروع النهضة والتحرر والقومية لعبد الناصر من كلماته التالية فى كتابه الهام والصادق والموضوعى والذى ارتفع عن كل ما عاناه من عبد الناصر من طرد من الجامعة فى ١٩٥٤ واعتقال مع الماركسيين في مارس ١٩٥٩ وتعذيبه ، ورغم خلافه الفلسفى مع جانب من النظرية الماركسية ، ورغم رفض نظام الحكم الشيوعى الإستالينى ، فلويس عوض ديمقراطى

راديكالى ثورى ... أو بمعنى أدق اشتراكى ديمقراطي يرفض تقديس البلورتاريا ، قال [هناك قضية الوجود المصرى خارج مصر والتى مارسها عبد الناصر بشكل المغامرة غير المحسوبة] أبدأ القول بأن أقول [هنا] يخاطب مفكر الناصرية (هيكل) إنك إذا أردت أن تجرب تجربة محمد علي فلابد أن يكون لديك إبراهيم باشا والكولنيل سيف (سليمان باشا الفرنساوى) أما أن تجرب تجربة محمد على ومعك الصاغ - عبد الحكيم عامر - الذى كان كلما خسر حربا انتقل إلى رتبة أعلى، فهذا أقصر طريق إلى الكوارث القومية ، وفي حكم هيكل أيضا أن عبد الجكيم توقف عسكريا عند رتبة الصاغ ولكن هيكل يقولها دون انزعاج ولا يطرح على نفسه السؤال المنطقى وكيف ائتمنه عبد الناصر على قيادة الجيوش وهو لا يستطيع أن يقود إلا كتيبة؟

وبعد أن خسر عبد الحكيم عامر معركة الوحدة مع سوريا كان ينبغى على عبد الناصر أن يقيله ويحرره من رتبته العسكرية لا حرصًا على الوحدة، ولكن حرصاً على هيبة مصر التى أضاعها بغفلته، وبعد أن خسر عبد الحكيم عامر حرب اليمن كان ينبغى أن يفعل فيه عبد الناصر أشياء كثيرة ، ولكنه لم يفعل شيئا من هذه الأشياء حتى خسر عبد الحكيم عامر حرب ١٩٦٧، عندئذ فقط تحرك عبد الناصر وطلب إليه أن يستقيل (بدلا من أن يحيله إلى المحاكمة العسكرية) لأن مسئولية الهزيمة اقتربت من عبد الناصر شخصيًا، وكان لابد من تقديم قربان للشعب الغاضب ، وقد كان عبد الحكيم عامر رجلاً شجاعًا على المستوى الشخصى، ورفض الاستقالة وأصر على أن يجر معه عبد الناصر إلى الهاوية: إن كانت هناك مسئولية فكلانا مسئول، وكلانا ينبغى أن ينصرف ، هذا كان منطقه ولكن ٩ ، ١٠ يونيو حسمت ما بينه وبين عبد الناصر كما حسمت ما بين معاوية وعلى مصاحف أبى موسى الأشعرى] .

- ولا ينكر مكابر خاصة وصاحب هذا القلم انتمى لليسار أن القوى الماركسية ناضلت قبل الثورة نضالاً وطنيًا واجتماعيًا وثقافيًا بشكل مكون من الحركة الوطنية الديمقراطية رغم كل أخطاء قيادتها البرجوازية المثقفة ثقافة النخب الفرنسية والإنجليزية ، ورغم دور اليهود المتخضرين ورغم عدم فهم طبيعة ومكونات الشخصية المصرية وخصوصية مصطلحات فى الاقتصاد وعلوم الاجتماع نقلوها بغباء وباستلاب وتبعية للماركسية اللينينية والاستالينية كمفهوم الإقطاع والبروليتاريا والبرجوازية .. إلخ إلخ دون تأصيل هذه المفاهيم فى نوعية التركيب الطبقى وتاريخه فى مصر الحديثة منذ محمد على وحتى الملك فاروق، ولذلك أخفقوا فى توجيه خطاب للشعب الغفير .

– ولا ينكر مكابر ومنهم صاحب هذا القلم الذى عاين معاناتهم وما تعرضوا له من تشريد وتعذيب واعتقال وسجن وقمع فى صدامهم مع أجهزة أمن ومخابرات عبد الناصر حتى التقى الاثنان على الجوانب والمكتسبات الوطنية والتحررية والاشتراكية الفوقية والانحياز للفقراء والتى لاينكرها مكابر على زعامة عبد الناصر الوطنية وعدائه للرجعية العربية والولايات المتحدة الأمريكية والاستعمار العالمى وإسرائيل .

– ولا ينكر مكابر أن الناصريين وخاصة جيلنا جيل الستينيات يزين لما أحدثه عبد الناصر من تكملة مشروع طه حسين لمجانية التعليم فى ثانوى فجعله فى الجامعة واتسع فى إنشاء الجامعات والمصانع والسد العالى وتحضير وتأميم الاقتصاد لم يكن هناك بطالة ومستوى المعيشة فى أحسن أحواله والأهم الحلم القومى والتحررى ودور مصر الريادى فى قلب أمتنا العربية.

– كانت كريزما عبد الناصر لها سطوة وأصبح أسطورة لكن وفي قناعاتى السياسية والتى أدركتها مبكراً عندما درست التكوين الطبقى والتعديلات التى أحدثتها الإجراءات الاقتصادية الناصرية فى الريف والمدينة والتي شكلت الأساس البيولوجى بجانب عوامل سياسية وجمالية وحساسية في الكتابة عندما كنت أول ناقد أدبى يسجل ويرصد ظاهرة صعود كتابات جيل الستينيات فى القصة القصيرة[1]. والبعد السياسى المبكر الذى أدركته وهى صعود المشروع الناصرى القومي للنهضة وتعاونه مع رموز من اليسار الماركسى فى الصحافة وتكوين التنظيم الطليعى من خليط من رجال النظام ورموز من اليسار وأسلوب وعمله السرى القريب من الأجهزة... لقد لاحظت وأنا أعايش وأقرأ وأتابع ثم أكتب أن جيل كتاب الستينيات كطليعة مثقفة مبدعة لجيلهم من المثقفين فى السنوات الأخيرة قبل النكسة أننا كمثقفون ومبدعون كنا مرصودين من أجهزة عبد الناصر الحذرة رغم مشاركتنا فى النشر فى مجلات وجرائد قومية يتولاها رموز من اليسار وعناصر واسعة الأفق من ممثلى عبد الناصر فى الصحافة ووزارة الثقافة والسبب فى اعتقادى أننا كنا خارج سياق الاحتواء المتبادل بين نظام عبد الناصر وعناصر ورموز يسارية من الحرس القديم.

---

١ – أنظر كتابنا التأسيسى العصرى البحث عن طريق جديد للقصة القصيرة المصرية ، طبعتى ١٩٧١ دار الكاتب العربى – هيئة قصور الثقافة ١٩٩٦

- وعندما حدثت هزيمة ٦٧ وانكسر الحلم القومي أدركت أنا أن عبد الناصر كان يفكر لنا ويشرع لنا وينتصر لنا وما هو ينهزم لنا .. فأين كانت إرادة الشعب إذاً ؟

- ولذلك وبتجربة محاربة وكتابة ومعايشة في صفوف مثقفي اليسار الماركسي والناصري أعتقد أن السادات وما قيل عنه أحدث ردة على عبد الناصر يحتاج لتحليل دقيق فبرغم صحة المقولة إلا أن السادات واليمين خارج أيضا من عباءة الناصرية الفضفاضة.

- ولنستمع لاجتهاد لويس عوض هنا في كتابه [أقنعة الناصرية السبع] يقول : لويس عوض [ولأن عبد الناصر لم يصف أعداء ثورته في الداخل وثبوا عليه حين وثب عليه الاستعمار من الخارج فأجهزوا عليه وعلى نظامه في ١٩٦٧، وهو لم يصف أعداء ثورته في الداخل لأنه لم يكن يعرف من هم على وجه التحديد بسبب فقره النظري وبسبب احتقاره أو خوفه من أصحاب النظريات وإسرافه في الاعتماد على الفطانة والإلهام، فقد كان عنده منهما شيء كثير، ولكن الكثير نفسه غير كاف في أهم المواقف. كان يحسب أن أعداء ثورته هم الباشوات والبكوات وحدهم ولأنه ابن شرعي لطبقته المتوسطة الصغيرة ظن أن مشكلات مصر تحل بتحويل كل المصريين إلى طبقة متوسطة صغيرة، ابن شرعي لطبقته المتوسطة الصغيرة ، فهو لم يتشكك قط في قداسة الملكية الفردية ، ثم ارتكب الإثم الكبير بأن جعل الدولة تناقش الأفراد في الملكية بعد أن اكتشف أنه بغير التنمية الضخمة لن يوزع إلا فقرا، لم يدرك صغير منتفع من نظامه عدو له بالإمكان لأنه يضع سقفا لأحلامه في التملك ولأحلامه في الإنفاق ولأنه ابن شرعي لطبقته المتوسطة الصغيرة أدرك بغريزته ، وربما بتوجيه من العارفين بأنه إذا لم يصدر ثورته إلى الخارج، فيضطر أن يعمقها في مصر يوما بعد يوم، وينحرف من يسار إلى يسار أكثر، حتى يلتقي بجسم الإنسانية الأكبر ، جسمها الحقيقي، بملايين المعدمين الكادحين، وحين رفضت سوريا قبول صادراته الفكرية الاجتماعية عمق ثورته في مصر «بالميثاق»، ولكنه لم يرسخها، بل عاد إلى التصدير حتى يتجنب مزيدا من التعميق . لقد كانت (القومية العربية) ثم (الاشتراكية العربية) مهربه الموضوعي من مواجهة الفلاحين الحفاة قوام الريف المصري والعمال الكادحين قوام المدنية المصرية ، وملايين الفقراء الضائعين الذين لا ينتمون إلى ريف أو مدينة تماما كما يهرب المعلم المصري من مواجهة تعليم أبناء الفلاحين والعمال لأنه لا يجزي كما يجزي تعليم أبناء البرجوازية الكويتية أو السعودية أو الليبية أو الجزائرية) إلخ .

وتقديمى تفسير لويس مجرد إضاءة لتجنب شعارات ذاعقة فى مناقشة أصول ما تعرضت له الثورة الناصرية أعنى مرحلة قيادة وزعامة عبد الناصر من تناقضات فى بنيتها الداخلية أبرزها الشمولية. والتناقض بين ما أحدثه من تحول لتوسيع قضاء الطبقة المتوسطة الصغيرة التى انتفت من نظامه وفى نفس دفعها لعداواته لأنه وضع سقفًا لأحلامها فى التملك والاتفاق – وفى نفس الوقت جعل الدولة تنافس الأفراد فى الملكية.

– ولهذا أمكن ضرب ثورته من الداخل البرجوازية تقول فيه أهذا كان ابناً عاقاً من أبناء طبقتنا والبروليتاريا تقول فيه: هذا ليس ابنًا من أبنائنا ولكنه كان يحسن الحديث إلى الفقراء .

– ونكتفى بهذا التمهيد المختصر من مراحل تحولات ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فى مرحلتى عبد الناصر والسادات ، وفهمنا الرئيسى هو انعكاس هذا التحول السياسى كمرحلة من تطور الحركة الوطنية الديمقراطية فى حلقاتها ثورة عرابى ١٨٨١، وثورة ١٩١٩ بقيادة سعد زغلول واكتمالها فى الثورة الناصرية التى حققت لحد ما طموحات الاستقلال الوطنى والاقتصادى .. انعكاس كل هذا السياق المعقد صعودا ونكوصًا على تشكل ثقافتنا الوطنية الديمقراطية ببعدها الراديكالى أو التقدمى ... وفى اعتقادى أن لويس عوض كمثقف وناقد ومعلم ، ومشروعه الثقافى بكل جوانبه فى النقد الأدبى ونقد الثقافة وتاريخ الفكر المصرى الحديث، ومفهومه المستنير العقلانى للثورة الفرنسية وعصر التنوير والحضارات الإنسانية وتمجيد الحرية والمساواة وكل أسس المجتمع المدنى وأبرزها الديمقراطية وحق الاختلاف وحرية التعبير واقترابه من الماركسية نظرياً .... وخلافه مع عوامل عديدة تتعلق بالنشأة لنشاطها كقوى وطنية فى الأربعينيات تمردت مع غيرها من القوى على إفلاس الليبرالية الوفدية المصرية بعد معاهدة ١٩٣٦ مثل مصر الفتاة أو الاشتراكية الوطنية (الفاشية) أحمد حسين، والأصولية الإسلامية الإخوان المسلمين ، والطليعة الوفدية والحزب الوطنى الجديد بزعامة فتحى رضوان .

لويس عوض الذى قدم لنا نفسه ببلاغة وصدق فى مقدمة (العنقاء) روايته الوحيدة ... الإشكالية رؤية ودلالة وتعقد فى السرد الروائى وتقنيات ناقد ومبدع وشاعر ومثقف عضوى يقول [كل من عاصرنى صديقًا أو زميلاً أو طالبا فى تلك الفترة البعيدة من حياتى بين ١٩٤٠ عام عودتى من كامبردج و١٩٤٧ عام صدور ديوانى (بلوتولاند) وكتابة رواية (العنقاء أو تاريخ حسن مفتاح) كان يعرف أنى لم أكن مجرد (مدرس)

جامعي بالمعنى المألوف وإنما (معلمًا) من ذلك الطراز الذى لا يوجد عادة فى عصور الانتقال حيث تسقط الحواجز بين المعرفة والحياة.. وكانت تلهبنى (شهوة لإصلاح العالم) إذا جاز لى أن أستعير لغة شيلى فى التعبير عن حالة هو فى عصر الثورة الفرنسية وكنت دائم التفكير فى عوامل التآكل التى استشرت فى المجتمع المصرى لا اقصد التآكل الخلقى وإنما أقصد التآكل الاجتماعى الذى تجلى فى تصدع الفلسفة الديمقراطية الليبرالية التى تبلورت في دستور ١٩٢٣).

- وفى يقينى النقدى والثقافى والسياسى كناقد لجيل الستينيات ومن واقع دراستى لكلية مشروعه الثقافى والذى يشكل أكثر من خمسين كتابا أنه ظل ومنذ ١٩٤٧ وحتى رحيله فى عام ١٩٩٠ ظل لويس عوض معلما وأسقط كمثقف وطنى ديمقراطى تقدمى فى نضاله النقدى والثقافى الحواجز بين المعرفة والحياة) بمعنى أدق التحم بشجاعة وصدق فى إبداعه النقدى والثقافى لفترات التحول التى اجتازتها الحركة الوطنية الديمقراطية ودفع الثمن الذى يتحمله الناقد - الموقف .... دفعه فى سنوات التحول بين ١٩٤٦، ١٩٥٢ عندما تدخل العسكريون لتحقيق الثورة الوطنية وطموحاتها فى الاستقلال السياسى والاقتصادي ذلك أن تحالف القوى الوطنية المتمردة على أزمة الليبرالية الوفدية بعد معاهدة ١٩٣٦ والتى كانت اللجنة الوطنية للطلبة والعمال صيغتها الثورية بتوجه اجتماعى وتضم الطليعة الوفدية والماركسيين والمستقلين والتى قادت انتفاضات الطلبة والعمال ضد معاهدة صدقى - بيفين عام ٤٦ هذه القيادة برموزها الوطنية الديمقراطية والتقدمية ضربها إسماعيل صدقى ممثل الرأسمالية المصرفية أوعى شرائح الرأسمالية المصرية التابعة لإنجلترا وفرنسا وخليط من الرأسماليات الأوربية وكان يشملها عنصر يهودى .

- وكان لويس عوض ضمن كشوف الاعتقالات وسجل فى دفاتر الأمن فى النظام الملكى أنه شيوعى غير أنه كان خارج مصر فلم يعتقل .

- وظلت فترة التحول بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بين قوى متصارعة في قيادة الثورة على أسلوب الحكم الجديد هل يحكم قادة الثورة العسكرية أم يعودوا لثكناتهم ويتركوا الحكم للمدنيين والديمقراطيين وكان موقف لويس عوض من قيام الثورة وهو فى الخارج استجابة مشوبة بالتوجس الشديد ولقد شرحنا ذلك فى فصول كتابنا .

وحضر لويس عوض فى أغسطس عام ١٩٥٣ وبعد دراسة على الطبيعة لمدة شهرين انتهى حيث بدأ مؤيدا فى تحفظ وتوجيس ، واكتشف على الفور حالة البلبلة العقائدية التى كانت تتسم بها الثورة نفسها (كانت أحيانا تتكلم لغة أميرابو ودانتون وكانت أحيانا تتكلم لغة هتلر وجيلز لا تعرف أهى بنت مصطفى كامل ومحمد فريد أم بنت رفاعة الطهطاوى ولطفى السيد وسبحان جامع النقيضين، باختصار كنت تسمع منها كل الأصوات إلا صوت سعد زغلول ومصطفى النحاس) .

– ورغم ذلك وقد فصلنا ذلك فى كتابنا قبل أن يتعاون مع البكباشى أنور السادات رئيس أول جرنال للثورة جريدة الجمهورية حيث أسس أخطر ملاحق الأدب والثقافة وجعل شعاره (الأدب فى سبيل الحياة، وقد فجر هذا الملحق بإشرافه عليه معركة (الأدب للأدب) بقيادة طه حسين والعقاد (والأدب للحياة) بقيادة محمود العالم، وعبد العظيم أنيس.

– وعندما حدثت المواجهة للاختيار بين الحكم الشمولى أو الحكم الديمقراطى فى أزمة مارس ١٩٥٤ كان لويس عوض مع ثورة مارس ١٩٥٤ (بقلبه) وبعقله مع ثوار يوليو ١٩٥٢[1] (كان كل وجدانى يهتف (الديمقراطية أبدا) ومع ذلك كنت أرى بانزعاج حقيقى تحرك طوابير الرجعية المصرية لتلتف حول قانون الإصلاح الزراعى ولتخرج بمصر فى الأحلاف العسكرية مع الغرب مندسة وسط هذه الثورة الشعبية العظيمة المطالبة بالدستور والحريات والحكم النيابى، أو باختصار الديمقراطية، وكنت لا أرى الحل فى استمرار الحكم العسكرى ولكن فى عودة الجيش إلى ثكناته وتحول القادة العسكريين إلى زعماء شعبيين أى يستمدون تفويضهم من الشعب لا من الجيش، وربما كانت أفكارى يومئذ وهمًا فى وهم – ولكن هكذا كنت أفكر).

– ونسجل موقف يستحق الدراسة عن عقلية السادات فى المناورة حيث طلب من لويس عوض فى أتون أزمة مارس ٥٤ أن يكف عن كتابة المقالات الأدبية ويكتب فى السياسة ، فالوطن في خطر وبالذات فى أزمة الديمقراطية ١٩٥٤ وحاول أن يعتذر لويس عوض بلباقة أنه يعرف شيئا عن (الفكر السياسى) ولكن لا أحب أن أقحم نفسى فى السياسة العملية.. قال: السادات : أنا لا أوافقك ففى الأوقات العصيبة يجب على كل صاحب رأى أن يتقدم برأيه، وكان واضحًا أنه مصر على مطلبه وإن لم يكن

١ – اعتمدنا على كتاب هام لم يطبع مرة أخرى وهو لمصر والحرية – مقالات – سياسية صدر ١٩٧٧.

واضحًا ماذا كان ينتظر منى أن أقول؟! قلت : فى هذه الحالة لى مطلب واحد قال ماذا؟ قلت : ألا تزال كلمة واحدة مما أكتب لا بيد الرقيب ولا بيد غيره .. وقال السادات بالفصحى (لك علىَّ هذا ، وقد بر بوعده).

– وقد كتب لويس أربع مقالات بعنوان (دستور الشعب) وعبر فيها عن وجهة نظره قدر المستطاع رغم أنه حسب قوله كان فى عرين الأسد (جريدة الجمهورية) جريدة الثورة وعبد الناصر بالذات وقد دعى فيها إلى عودة الجيش إلى ثكناته، ونشرت هذه المقالات ما عدا الرابعة (التى طالب فيها قادة الثورة أن يخلعوا الكاكى وينزلوا إلى الشارع لا بوصفهم قادة عسكريين ولكن بوصفهم زعماء شعبيين قائلا أنهم على خطأ فى تخوفهم من الديمقراطية؛ فطالما أنهم لا يثقون فى الشعب فالشعب لا يثق فيهم) ولعلها ظهرت فى الطبعة الأولى ثم رفعت من الطبعات التالية: لا أدرى .

وأنا أسجل هنا بتركيز دالٍ موقف لويس عوض من مفترق طرق ثورة يوليو ١٩٥٢ فى أزمة مارس ١٩٥٤ لكى ندلل ونؤكد أننا على حق وقناعة سياسية الآن وفى ظروف تحولنا فى مصر وخلال آلامه وتناقضات مخاض معقد يتولى قيادته بحكمة المؤسسة العسكرية التى قامت رموزها فى ١٩٥٢ بالثورة والذى اختاره السادات ، وأولا وأخراً هو رمز جيل أكتوبر جيل العبور وقائد الطيران الذى اختاره عبد الناصر عندما أنهى حياته المجيدة بالنضال والصراع والمعارك والأخطاء ، أنهى حياته السياسية وهو يعيد تنظيم الجيش المصرى ويطهر المؤسسة العسكرية الوطنية والمنتمية للشعب منذ أحمد عرابى البروفة الثورية الأولى من أجل الاستقلال والدستور وكرامة المصرى ضد كل صنوف الدخلاء وشرازم الجنسيات الأجنبية التى تحكمت في مصر وشعبها وفلاحيها وعمالها، ومثقفيها عبد الناصر الذى حقق وانتصر لعرابى اختار حسنى مبارك لتنظيم سلاح الطيران بعد النكسة أو الهزيمة ، والسادات أعطاه ثقة قيادة سلاح الطيران وكان حسنى مبارك صاحب الضربة الأولى التى هزت وأذهلت جيوش إسرائيل وغطرستها ومهد بذلك للعبور المجيد واسترداد سيناء بعد حرب ٦ أكتوبر ١٩٧٣ .. وفى يقينى أن المشروع الإسرائيلى الصهيونى لن ينس ذلك .

وفى اعتقادى أن الرئيس حسنى مبارك ورث ترك مثقلة سياسيًا واقتصاديًا والأخطر من كل ذلك مرحلة خطيرة من تصاعد تاريخ صراع المشروع الصهيونى الإسرائيلى للقضاء على جسد الشعب الفلسطينى الشهيد وما يحدث الآن من فاشية عنصرية وإرهاب دولة ضدهم في غيبوبة القوى العالمية وفى المقدمة الموقف المتواطئ من الولايات المتحدة الأمريكية .

وفى يقينى ككاتب مصرى درس واستوعب تاريخ وحضارة وثقافة مصر .. أن صعود المشروع الصهيونى الآن لا يستهدف فلسطين فقط بل الأبعد لكل ذى بصيرة محاولة تهميش دور مصر المحورى والحضارى والتاريخى فى قلب أمتها العربية وفلسطين فى المقدمة كذلك تهميشها فى منطقة الشرق الأوسط .

غير ما يهمنا من جانب من التركة السياسية فى داخل مصر والتى ورثها الرئيس حسنى مبارك هو توليه الرئاسة عقب حادث المنصة الدامى واغتيال صاحب قرار حرب أكتوبر السادات بيد التطرف الديني .

وفى نفس وقت الأزمة التى أنهى بها السادات عهده والذى بدأ بإعلانه سيادة القانون وضرب مراكز القوى وإنشاء التعددية الحزبية وإلغاء الرقابة على الصحف، انتهى عهده بأكبر حركة اعتقالات شملت كل رموز المعارضة بل شخصيات عامة لها استقلاليتها فى سبتمبر ١٩٨١ .

فكان أول قرار اتخذه مبارك وله دلالة سياسية مهمة فى تحول نظام الحكم الشمولى هو (الإفراج عن المعتقلين واستقبالهم في قصر الرئاسة).

وككاتب وناقد انتميت للمعارضة حزب التجمع فى بداياته ثم ما أسرع ما تكررت أزمة الكاتب مع توازنات المعارضة وبرامجها والتى قولها عن خبرة أنها أحزاب جرائد .. وعلاقاتها هشة بالشارع السياسى والناس .

أياً كان الأمر يجب أن يعترف الكاتب وصاحب هذا القلم أن ثمة تحولات بدأت بطيئة ولكنها تتسع لتتيح حرية التعبير وحق الاختلاف واستقلالية الرأى ، عن نفسى مارستها في الصحافة القومية ، وفيما صدر لى من كتب نقدية لا تقف عند النقد التطبيقى للأدب وفنونه بل نقد لقضايا الثقافة المصرية الوطنية فى سياق تحولات ثورة يوليو ٥٢ فى عهود صعودها وأزماتها فى مرحلتى عبد الناصر والسادات.. واستكمال بناء الديمقراطية وسيادة القانون فى عهد مبارك .

باختصار لأن موضوعنا هو تقديم مدخل أولى لمناقشة جوانب من مشروع لويس عوض الثقافى .

أعترف أن المرحلة السياسية الآن وجانبها الفكرى والثقافى تسمح بما حققه مبارك من اعتراف بحق المعارضة التعددية الحزبية واحترام الرأى والرأى الآخر وسيادة القانون ، كذلك ما شهدته اللوحة العالمية فى السنوات العشرين الأخيرة

من إفلاس التطبيق الاستالينى للماركسية فى الاتحاد السوفيتى والكتلة الشرقية بمعنى ذى دلالة على مستوى النظم السياسية العالمية فى أوروبا بل فى آسيا وأفريقيا ... وهو البحث الدائم عن نظم تحترم حرية وكرامة الإنسان والذات الإنسانية في التعبير والعقيدة والانتماء السياسى ، باختصار سقوط كل النظم الشمولية شيوعية أو فاشية وحكم الفرد كاريزما الزعيم الذى لا يخطئ .

إن الثورات العلمية فى مجالات العلوم الوضعية وبالذات علوم الكيمياء والطبيعة والذرة والإلكترونات والفضاء والاصالات أحدثت فى الإنسانيات وأبرزها علوم الاجتماع والاقتصاد والسياسة تغيرات تتعلق بإعادة طرح إشكالية ظلت البشرية تعاني منها منذ ارسطو فى كتابة (السياسة) حتى السنوات العشر الأخيرة وهي كيفية حل المعادلة الصعبة فى نظام سياسى واقتصادى يحقق حرية الفرد واستقلالتيه وكرامته فى إختيار السلطة التى تكفل له الضرورات المادية للمعيشة ، بل فى الوقت نفسه أكثر مراحل الحرية وانطلاق ملكاته الخلاقة والسيطرة على قوانين الضرورة الإنسانية وهذا صعب بعد سيطرته على قوانين الضرورة الطبيعية .

لقد وصلت البشرية بكل تاريخها البعيد وحضارتها منذ تحولات عصور الصيد وحتى أوائل الألفية الثالثة ، وبكل حضارتها أن الإشكالية التى طرحها بمنطق مثالى أفلاطون فى (الجمهورية) وبمنطق صورى أكثر عقلانية أرسطو فى كتابه (السياسة) عن التوفق أو اتساق وتوزان تحقيق الحرية الفردية بكل أبعادها السياسية والاقتصادية والأخلاقية والثقافية، الحرية أقصى مراحل الفرح والإبداع والكرامة الإنسانية وبين إشباع الحاجات المادية وحق العمل والتعليم والعلاج والمسكن .. إلخ .

قبل انهيار التطبيق الاستالينى للماركسية فى الاتحاد السوفيتى ظهرت رواية فى بداية نقد خروشوف لستالين عنوانها ذو دلالة (ليس بالخير وحده) ومعنى هذا ببساطة هو أهمية قضية الحرية.

أما الجبهة الرأسمالية العالمية بتحولاتها إلى شركات عابرة للقارات. ويغييرها أساليب الإمبريالية القديمة لاستغلال شعوب العالم الثالث ، فإن الرأسمالية استفادت من جوانب إيجابية فى الاشتراكية كالتخطيط والتحكم فى سعر البنوك والائتمان وآليات حديثة جددت من عمرها ، لاسيما أنها استفادت واستوعبت في عمليات الإنتاج وعلاقات الإنتاج من ثمار الثورة التكنولوجية وعلوم الاتصال والفضاء والكومبيوتر وغيرت كل آلياتها التقليدية فى القرن السابع عشر وحتى القرن العشرين .

ومن درس الشق الثانى من النظرية الماركسية أقصد المادية الحديثة أو بمعنى علمى الديالكتيك يجد أن هذا القانون العلمى والجانب من الماركسية يستوعب كل الاكتشافات العلمية فى كل عصر والتى تسيطر على قوانين الضرورة الطبيعية والوضعية ... وقد قدم نموذج علمى فلسفى لهذا الاستيعاب زميل كارل ماركس (إنجلز) فى أهم كتبه (جدلية الطبيعة) .

معنى هذا أن اللوحة العالمية تشهد مخاض معقد بعد انتهاء القطبية الثنائية بين الاشتراكية والرأسمالية بعد تفكك الاتحاد السوفيتى وفشل النمط الشمولى الاستالينى ... وبدأت تظهر تنظيرات واجتهادات لطريق ثالث لا نستطيع أن نخوض فيها لكى نضع تفسيراً ونقدم للقارئ الشباب بالذات (بعد نظر وعمق بصيرة لويس عوض فى الجانب السياسى والاقتصادى والاجتماعى بجانب محاولة تاريخ الفكر المصرى الحديث من أواخر القرن الثامن عشر وأبرزها غزو الحملة الفرنسية بقيادة نابليون واحتلال مصر واليقظة والاندهاش من مثقفيها ومعظمهم ، بل غالبيتهم علماء فى الأزهر يعيشون فى سياق سياسى وثقافى متخلف لأواخر عصور المنظومة العثمانية والملوكية التى أعادت الشعب المصرى مؤسس الحضارات ومستوعب ومتمثل لما غزاه وفرض وجوده من حضارات عديدة أعادت مصر إلى مناخ وظلام العصور الوسطى ... وقد يحتمل مفهوم ورؤية لويس عوض لتأثير الحملة الفرنسية حضارياً وعلمياً وثقافياً على العقل والوجدان المصرى بالتعرف على تقدم وحداثه وعلمية الآخر والحضارة الأوروبية والأبنية - الفرنسية بالذات والتى أهدت البشرية أول وأكمل ثورة للطبقة المتوسطة (البرجوازية) ورفعت شعارات حقوق الإنسان فى الحرية والمساواة والإخاء ... إلخ كل قيم المجتمع المدنى قد يحتمل الحوار الراقى وقد تناقش أراء لويس عوض فى البعد العلمانى والتأثر بالحضارة الأوروبية ... تناقش بموضوعية وعلى هدى أدلة وبحوث ووثائق لكشف عن بدايات أخرى سبقت الحملة الفرنسية تعرفت فيها مصر على الآخر الأوروبى المتقدم علمياً وثقافياً وسياسياً ..

أما أن تثرى الأقلام وترتفع الأصوات بنبرة زاعقة تتهمه بالتخريب والاستلاب والتبعية الذهنية وكونه مبشراً وعميلاً الكنيسة فهذا منطق غوغائى يؤكد أن فرق الرجعية المصرية التى ما أن ترى تياراً ثقافياً تحررياً يوشك أن يشق لنفسه مجرى عميقاً فى حياتنا الثقافية حتى تتجمع وتطلق التهم جزافاً، وكأنها فرق (الكوكلوليس كلان) ذوى الزعابيط البيضاء، لتشتت شمل المتحررين ولو أصابت فى مقتل .

كان هذا قول (لويس عوض) أعمق ما كتبه تلميذ عن أستاذه ، أقصد العميد طه حسين وهو يعلق على حلقة من حلقات سيرة طه حسين (المطارد العظيم) فى أواخر الأربعينيات الذى كنا نسمع يومئذ أن السنهورى باشا يتعقبه بضراوة ضارية ليؤذيه فى كل مايملك الإنسان .

ثم يكمل لويس عوض بمرارة عباراته الحزينة المنطوية على ما سبب له طوال حياته الثقافية والنقدية والعلمية والتعليمية هذه الفرق المعادية للعقل النقدى والمنهج العلمى واستيعاب حضارة العصر وما أحدثته من تقدم وثورات فى مجالات متعددة .

يقول لويس عوض (الحق أن خبرتى بحياتنا الثقافية وتكرر هذه الظاهرة فيها كلما جاش فيها تيار التحديد تجعلنى لا أستبعد هذا الافتراض الأخير ، وبعد فلا تنسوا أن تلك كانت فترة (سافونا دولا) لحسن عثمان و(بروميثيوس ذوى الغل المهمل) لأندريه جيد و(المعذبون فى الأرض) لطه حسين.

لقد حاولنا فى فصول الكتاب الذى أعتبره مدخلاً مختصراً فى قراءة بعض أبعاد المشروع الثقافى للويس عوض فى بعده السياسى والثقافى والمعبر عن أزمة الشمولية أن ترد الاعتبار لمثقف مصرى عضوى ، وناقد للأدب والثقافة ومؤرخ ومبدع التحمت كل إنجازاته النقدية والإبداعية بتحولات الثورة الوطنية الديمقراطية ببعدها التقدمى وقد ولد هذا المشروع الثقافى فى فترة قمة صعود الغليان السياسى في الأربعينيات واقترب لويس عوض عقب وصوله إلى القاهرة عائداً من بعثته العلمية فى كامبريدج، من حلقات وتنظمات وصالونات المثقفين الماركسيين التى تكونت فى مد النضال الوطنى الديمقراطى ضد القصر والاحتلال الإنجليزى والإقطاع تجاوزت بفلسفتها السياسية والاجتماعية ... أحزاب الليبرالية المصرية التابعة والمهادنة بعد عقد معاهدة ١٩٣٦ وتجميد النضال الوطنى وسرعان ما رفض نهجها الانقسامى وأصابع تمويل اليهود المتمصريين وأبرزهم الإخوة كوريل ، وتعالى وعزله النخب الثقافية وأبناء الذوات عن جماهير الفلاحين والعمال ... غير أنه شاعر وناقد ومعلم يعانى من شهوة إصلاح العالم ... ولا يقبل أنه يمارس دوره كأستاذ فى الجامعة منعزل ، بل ظل على علاقته بالصراع الوطنى الديمقراطى كناقد له موقف مع التقدم والثورة، ومن هنا أهمية الدرس الذى تتعلمه منه والذى فى اعتقادى تعلمه هو من أستاذه العميد طه حسين .. وإذا كان طه حسين قد أسس فى قسم اللغة العربية بكلية آداب القاهرة تقاليد التفكير العقلانى والشك فى المسلمات المورثة وقراءة النص الأدبى فى السياق السياسى والاجتماعى

وكان كتابية البارزين عن (أبى العلاء المعرى) و(الشعر الجاهلى) ... علامات أساسية فى مناهج علمية دراسة الأدب العربى وتأثير البيئة ... إلا أن طه حسين وفى الثلاثينيات وعندما انضم لكتاب جرائد ومجلات الوفد ، وهجر حزب الأحرار الدستوريين تجاوز مرحلة (الثائر فى الفكر) و(العاقل فى السياسة) ولقد كانت (الحرية) دائمًا عند طه حسين فى العشرينيات جوهراً فرداً، ولكنها كانت حرية العقل ، المثقف لا حرية المجتمع بأشمل معانيه .

وعندما انتقل طه حسين لصفوف (الوفد) انتقل من الديمقراطية إلى الأرسطاطالسية المقيدة بألف قيد من أحكام العقل وضوابط الحكمة وسيادة القانون إلى ديمقراطية الشعب .

وفى وزارة الوفد التى حكمت فى ٤ فبراير ١٩٤٢ عينه وزير المعارف المستتير أحمد نجيب الهلالى باشا مستشاراً فنياً للوزارة وخلال عامين كانا من أخطر الأعوام فى تاريخ التعليم فى مصر ، فقد استحدث أخطر ثورة عرفتها مصر فى فلسفة التعليم العالى وفجر أكبر لغم نسف به رجعية التعليم ، التى فشل ودعا لها إسماعيل القبانى .

أيا كان الأمر فطه حسين .. تمكن ورغم أزمة الديمقراطية الليبرالية قبل سنتين من انهيار النظام الملكى أن يتجاوز مشروعه الثقافى جدران الجامعة أو قراءة كتبه ، بل وصل به إلى جماهير الفقراء والمهمشيين فى كل أنحاء مصر وهو شعار (العلم كالماء والهواء) عندما أصبح وزيراً للمعارف فى حكومة الوفد الأخيرة والنحاس باشا والتى أنهت دورها الوطنى بإلغاء معاهد ١٩٣٦ ووضع القوى الوطنية بكل اتجاهاتها أمام مسئوليتها التاريخية وانطلقت المقاومة الشعبية فى منطقة قنال السويس ومرت فترة سياسية قلقة من تخبط النظام الملكى بعد مؤامرة حريق القاهرة فى يناير ١٩٥٢ وإقالة حكومة النحاس .. إلى أن تدخل العسكريون فى فجر ٢٣ يوليو ١٩٥٢ لتحقيق طموحات جيل ١٩٤٦ الوطنية والاجتماعية والاقتصادية غير أنها فى تحقيق هذه الأهداف ، قبل أن يستقر توجهاتها فى أسلوب الحكم الشمولى الفوقى والمعتمد على حزب واحد ... هيئة التحرير ، الاتحاد القومى ، الاتحاد الاشتراكى ... قبل أن ينتصر عبد الناصر ومعظم أعضاء قيادة الثورة وضباط الصف الثانى من الأحرار على مجموعة الديمقراطيين الضعفاء بقيادة خالد محى الدين هى أزمة الديمقراطية ١٩٥٤ قبل هذا التاريخ من مفترق طرق ثورة يوليو اصطدمت الثورة بالقوى السياسية الأساسية ، بدأت بأكبر حزب ليبرالى شعبى وهو الوفد وزعيمه النحاس، ثم ضربت الماركسيين بعد تذبذب مواقفهم من التأييد للهجوم المتشنج .

ورغم تعاون لويس عوض مع جريدة الثورة (الجمهورية) كما قلنا ، ولأن لويس عوض ومنذ أن حضر عام ١٩٤٠ من لندن فقد أتيح له التأثر ودراسة الماركسية وكراهية الشمولية الفاشية والنازية ، كذلك رفض لويس عوض الليبرالية الكلاسيكية وبحث عن صيغة جديدة هدفها الجمع بين إيجابيات تحقيق مطالب الإنسان المادية والروحية وتمجيد الحرية . فأستقر على مسمى هو الاشتراكية الديمقراطية.

ولقد ظل لويس عوض ومنذ ١٩٤٦ حيث سجل اسمه فى كشوف المعتقلين أيام صدقي بدفع ثمن اعتقاده السياسى هذا رغم أن النظام الملكى ونظام ثورة ١٩٥٢ اعتبره شيوعياً .

فقد فصل مع ٥٢ أستاذا من الجامعة فى أزمة مارس ١٩٥٤ ، واعتقل مع الشيوعيين عام ١٩٥٩ ، طردته لجنة النظام في الاتحاد الاشتراكى فى ١٩٧٢ بقرار من السادات ونقل مع اليساريين والناصريين إلى الاستعلامات.

وفى منتصف الثمانينيات قدم استقالته من الأهرام احتجاجًا على منع نشر فصول كتابه عن الأفغانى الغامض بسبب تقرير كتب ضد معتقداته أو التفتيش فى رأسه والتى رأى صاحب التقرير أنها ضد الثقافة الإسلامية والعربية .. نفس الترديد الغوغائى الذى قامت محاكم التفتيش السلفية والمعادية لحرية البحث والتقصى وعدم تقديس السلف ، عندما اجتهد لويس عوض وقدم دراسة نقدية مقارنة عن (رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى) ونشرت فصولها فى الأهرام عام (١٩٦٤).

وسيجد القارئ في فصول الكتاب تفصيلات لما تعرض له فكر ودراسات واجتهادات لويس عوض من قمع سلفي غوغائي ولاعقلاني وليس معنى ذلك أن لويس عوض لم يخطئ أو لم يتخذ موقفاً فيه تجني على الثقافة العربية والإسلامية لتناوله لها من منظور خضوعه وتبعيته لحد قليل بحضارة أوروبا والآخر الغربي وشغفه المبرر كطالب من الشرق الذي عانى فترة طويلة من التخلف والارتداد عن الاستنارة وتحكيم العقل خاصة في فترة المنظومة المملوكية والعثمانية، إن هذا الطالب الذي سافر إلى إنجلترا في مرحلة بداية أزمات الليبرالية المصرية والديمقراطية المصرية على النمط الأوروبي بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ وتجميد النضال الوطني مما أتاح لتسلط القصر الملكي وفساده أيام فاروق وتسلل الإقطاع والبروجوازية لحزب الجماهير العريضة - حزب الوفد - باختصار كان التخلف والتآكل ينخر في مصر الملكية وكانت الحرب العالمية في ذروة ختامها بين قوى المحور الفاشي النازي وأوروبا والديمقراطية على الخط الكلاسيكي في حين بدأ يبرز الاتحاد السوفيتي ككتلة اشتراكية والولايات المتحدة كقوى رأسمالية وليدة وجديدة تتربص بالإمبراطوريات القديمة البريطانية والفرنسية وتعمل لوراثتها .

ومن هنا يمكن الاقتراب من التكوين الفكري ، والسياسي للويس عوض - أوضح أنه استوعب ودرس جيداً وربما أكثر من أقطابها اتيح لي مقابلتهم والتحاور معهم سواء أثناء انتمائي لليسار الماركسي أو فيما بعد عندما تواجدت ولمدة ٣٥ عاماً في قلب الحركة الثقافية والصحفية وتعاملت مع رموز منهم في الإعلام .

وقد تأكدت من الاستيعاب العلمي الجاد والواسع الأفق عندما أتيحت لي سنوات طويلة من الصحبة والتلمذة والصداقة فقد كان لايبدي رأياً في أيٍ من مشاكل الفلسفة والأدب والحضارة والاقتصاد والسياسة واللغة إلا على أساس واسع من المعرفة وكانت الماركسية بكل محاولات تطبيقها خاصة السياسي والاقتصادي وتحولات نظمها منذ عام ١٩١٧ مجال اهتمامه غير أنه يحمل كم من الخلافات معها فلسفياً وسياسياً وخاصة نظامها الشمولي القائم على حكم حزب البروليتاريا - وقد وضح ذلك في الطبعة الأولى من روايته الوحيدة المثيرة (العنقاء) وذلك في المقدمة الضافية التي تقربنا من علاقة لويس عوض بنشاط عديد من الجماعات الماركسية في فترة الأربعينيات ويمكن لنا أن نقترب من فكر وموقف لويس عوض بقراءة جزء صغير من مقدمة رواية - (العنقاء) يقول (وكتب أنا في الوقت نفسه أربي تلاميذي في الجامعة على

(الهيومانيزم) أو المذهب الإنسانى لا على أساس فردية الرينيانس أو طوبية - توماس مور ، ولكن على أساس اشتراكية القرن العشرين ، كنت ألهب فيهم الظمأ إلى المعرفة وألهم فيهم حب الحرية ، ولاسيما حرية الفكر ، وأحطم أمامهم المقدسات المزيفة القائمة على الغيبيات أو وليدة الخوف أو التقليد ، وكنت أفجر فيهم ملكه الابتكار).

وهنا بدأت أزمة لويس عوض مع الماركسية ، فقد لاحظ بعد عامين أو ثلاثة أن تلامذته ما أن يتحرك فيهم الشوق إلى المعرفة الحرة حتى يستدرجوا إلى النوادى الثقافية المنتشرة فى القاهرة والتى كانت واجهات وأقنعة للتنظيمات الماركسية.

وقد اكتشف لويس عوض هذا مصادفة (ووقعت فى حيرة كبرى ماذا أفعل إذن فأنا أعد أبنائى طعامًا سائغًا لهذه الغيلان الجائعة، لتزدردهم لتغلق عقولهم من جديد قبل أن يكتمل تكوينهم بتعاليم قطعية جديدة قد تكون خيراً من تعاليمهم القطعية البالية، ولكنها تباعد بالحلول الجاهزة مابين الإنسان وإنسانيته.

وهذا هو المحور الرئيسى فى فكر لويس عوض والذى دارت حوله معظم دراساته فى النظم والمذاهب .. وربما هو سبب تعرض لويس لحملة أشد شراسة من حملة اليمين السلفى والغيبى التى ثارت ضده عندما درس رسالة الغفران بمنهج الأدب المقارن .

فى حين من يتأمل ماحدث في أواخر القرن العشرين من تحقق نبوءة لويس عوض من سقوط وأزمات النظم الشمولية الماركسية والفاشية وصعود البحث عن نظام يقدس إنسانية الإنسان وهذا هو السعى الدائم في محاولة اكتشاف طريق ثالث مابين الاشتراكية والديمقراطية .. ولكن قبل أن تسترسل .

نعود لبلورة موقف لويس عوض من الماركسية والديمقراطية البرجوازية.

لعلنا نجد بعض الإجابة فى مقدمة كتابه (دراسات فى النظم والمذاهب) الصادر عام ١٩٦٢ عن إحدى دور النشر (أحب أن أتوقف عند ملاحظة تتعلق بالتساؤل عن مغزى إهداء لويس هذا الكتاب إلى الدكتور عبد القادر حاتم لاهتمامه العظيم بالمذاهب والنظم) واعتقد أن الإجابة تستحق تأملاً أوسع وأعمق ندعها لمجال آخر فقط نتوقف عند بعض النقاط خرج لويس عوض من المعتقل حوالى يوليو ١٩٦٠ بعد اعتقاله مع الشيوعيين فى ٢٨ مارس ١٩٥٩ فى عهد عبد الناصر) والمعروف أن لويس عوض كان على علاقة قوية بوزير الثقافة (ثروت عكاشة) الذى كان أقرب فى أدائه السياسى

كوزير للثقافة إلى اليسار وأعرف أنه كان يحترم لويس عوض كما جاء فى مذكراته ، وقد عينه كوزير للثقافة عام ١٩٥٨ مديراً عاماً للثقافة أمضى منها لويس ٤ أشهر ثم اعتقل كما قلنا وفى رأى لويس عوض وقد أعلنه فى مقالات ومنها مقالة صودرت ونشرها فى كتاب (ثقافتنا فى مفترق الطرق) يعترض على ضم الثقافة للإعلام وضمنياً يعترض على سياسات عبد القادر حاتم التى تميل للدعاية التى تشبه دعاية جوبلز وزير أعلام هتلر وتفضل ثقافة الكم على ثقافة الكيف ، بل إن لويس قال أكثر من مرة فى حواراتى معه أن عبد الناصر كان يعطى السلطة لليمين وفتات الثقافة والإعلام لليسار ويأتى بثروت عكاشة ليقيم صروح الثقافة والفنون بمساعدة اليساريين ثم يأتى بعبد القادر حاتم ليهدم مابناه ثروت عكاشة بمساعدة الكتبة وأنصاف الموهوبين ورجال الدعاية وهكذا دواليك ... ولهذا أستغرب أنا موقف لويس عوض هذا ، وأتساءل هل خرج لويس عوض من المعتقل بعد أن عذب وأهين .. وقد حكى لى بعض زملاء المعتقل من الشيوعيين .. كيف كانوا يقومون بتكسير الأحجار بدلاً من هذا الشيخ المهيب أشرف وأعمق نقاد الثقافة فى مصر والعالم العربى كان لويس عوض كما قلنا ومازلنا نثير ونناقش هذه الإشكالية ، كان لويس عوض منغمساً فى تجمعات الماركسيين .. وقام بإبداع نقد تشكيلى عن بعض رموزهم فى التصوير إنجى أفلاطون، وجاذبية سرى وأسماحليم .

كان ومنذ الأربعينيات قريباً منهم محترماً منهم معظمهم تلاميذه وأكبر دليل قد لايعرفه القارئ أنى كنت ملازماً له فى سنواته الأخيرة وأصبحت العلاقة تتجاوز الأستاذ والتلميذ إلى الأبوة أو الأخ الكبير .. كان وهو يبنى بيته الريفى الأخير فى دهشور كان يأخذنى معه بعد أن نلتقى فى الأهرام وقبل أن نتناول الغداء ونذهب إلى الأوبرا .. حيث كان يتولى تعليمى تذوق فنون الباليه .. نفس الدور الذى لعبه أعوام ٤٦، ٤٧ فى آداب القاهرة عندما ألف جماعة الجرامون التى علمت رموز الفكر والثقافة فى الأربعينيات تذوق الموسيقى الكلاسيك ، كان لويس عوض يشترى ويتعاقد على أعمال السباكة المواسير وكل التجهيزات مع زميل ماركسى قديم هو (فوزى جرجس) وأتذكر أن قرأت له كتاباً من أجزاء عن تاريخ مصر الحديث .

ولذلك ظلت الدولة الملكية والجمهورية تعتبر لويس عوض شيوعياً.

وبصعوبة أجبر قلمى على التوقف عن الاستطراد حول لويس عوض أستاذاً وصديقاً ومؤثراً فى تكوينى السياسى والثقافى ، أجبره لكى ألخص بإجمال هدف

هذا الكتاب النقدى الإجرائى [أقول إجرائى لأنى حاولت أن القى ضوءًا من منظور قد يبدو سياسياً للوهلة الأولى ولكنه فى بعده ودلالته الجديرة بالمناقشة هو محاولة للدفاع عن الثقافة الوطنية الديمقراطية بتوجيه تنويرى وتقدمى ليبرالى متحرر من جمود النظريات الشمولية أيًا كانت اشتراكية تقوم على حزب أوحد أو فاشية تمجد وهم الكل فى واحد .. بل ادعو وسأظل إلي التعددية وحق الاختلاف وهذا درس لويس عوض وفى اعتقادى وبعد تجربة سياسية وثقافية و ٤٠ عامًا من الكتابة وممارسة النقد الأدبى .. لم تستقر فى منبر واحد. إلا شهور أجد أن أقرب نماذج ورموز الثقافية الوطنية الديمقراطية التقدمية المتحررة لإحياء وتجديد ذكراه ومناقشة مشروعه الثقافى كتراث يخاطب الحاضر ويساعد على فهم المستقبل هو المعلم العاشر لويس عوض وليس معنى ذلك أن كل آراء وتوجهات لويس عوض السياسية والثقافية والأدبية أو النقدية كاملة الكمال كله وليس فيها ما يقتضى المناقضة والمساءلة والاختلاف فصاحب هذا القلم كثيراً ما أختلف معه .

وبالكتاب مقالة من ثلاث مقالات تسجل هذا الاختلاف نشرت بمجلة الآداب ١٩٦٧ وضاعت مقالتين نشرت إحداهما بروز اليوسف حوالى عام ١٩٧١ فبعد دراسة واستيعاب لمشروع لويس عوض قبل أن أصاحبه وبعد رصدى لمواقفه السياسية والثقافية منذ أن التقيت به فى أعوام ٧٣ ، ٧٤ وما شهدته من تحولات سياسية في الداخل والخارج بعد تولى السادات الحكم ، بعد كل ذلك وبعد أن أجريت حواراً طويلاً معه فى سجله الطليعى .

أعتقد وفى مناخ حرية الرأى وتأكيد التعددية الحزبية وحرية الصحافة وإعطاء كل الاتجاهات السياسية الشرعية ، والفكرية حرية التعبير والعمل وحق الاختلاف والمشاركة المسئولة فى مناقشة مشاكل وقضايا المخاض السياسى والثقافى والاقتصادى والذى تشهده بلادنا منذ تولى الرئيس حسنى مبارك أكبر رموز جيل أكتوبر وصاحب ضربة الطيران التى مهدت للعبور المجيد فى ٦ أكتوبر ١٩٧٣ مخاض التحول من الشمولية للتعددية .

والأهم فى ظروف تعرض الثقافة الوطنية الديمقراطية المستنيرة وخصوصيتنا الحضارية لصعود وغطرسة المشروع الإسرائيلى الصهيونى وميوعة موقف الولايات المتحدة الأمريكية ضد تصفية جسد وحقوق الشعب الفلسطينى ، غير أن من يملك البصيرة السياسية ، واستوعب تاريخ نشأة إسرائيل منذ ١٩٤٨ وحروبها التى خاضتها مصر فى عهد عبد الناصر والسادات تعبيراً تاريخيًا عن دورها فى قلب

أمتها العربية وممارسة دورها الحضارى والتاريخى فى منطقة الشرق بجانب ما أحدثته الثورة التكنولوجية وعلوم الاتصال والمعلومات والأنترنت والكومبيوتر .. كل هذه الثورات العلمية طرحت قضية العولة وتحطم الزمان والمكان ومايهمنا هنا فى سياق دفاعنا عن هويتنا وخصوصيتنا الثقافية والحضارية هو أن نعيش هذه الثورة ونتلائم مع العولة بشرط أن نحذر هيمنة النموذج الأمريكى واختراقه لاقتصادنا وثقافتنا .

وفى اعتقادى أننا لن نتمكن من ذلك إلا إذا أسسنا كل أسس المجتمع المدنى واحترام القانون والمجتمع المفتوح القائم على الاعتراف بالرأى والرأى الآخر ، وحرية ومجد الإنسان فى العقيدة والدفاع عن حقوقه الشرعية واختيار ممثليه .

من أجل كل ذلك كان جانب كبير من تراث لويس عوض كمثقف عضوى وناقد ومؤرخ وفنان ارتبط بتحولات الحركة الوطنية منذ غليان الأربعينيات والمساهمة مع أجيال اليسار والطليعة الوفدية فى المطالبة بالتغيير وتجاوز أزمة الليبرالية والديمقراطية وإفلاسها لتحكم القصر والاحتلال الإنجليزى فقد استجاب لويس عوض لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ التى نفذها العسكريون وقادها عبد الناصر وأحدث تحولات جذرية فى المجتمع المصرى والعربى غير أنه وكما سنجد فى جانب من مشروع لويس عوض الثقافى أقام تجربته على كاريزما الزعيم الأوحد والحزب الواحد ..... وكان على أبرز رموز مثقفى جيل الأربعينيات أن يعانى من كل ذلك ورغم ذلك وهو محور كتابنا نجد أن لويس عوض تجاوز الطرد من الجامعة فى ١٩٥٤ والاعتقال فى ١٩٥٩

وكتب عن عبد الناصر وثيقة نقد ودفاع شريف قائم على التحليل السياسى والاقتصادى والثقافى يحتاج منا لإعادة مناقشته الآن .

يقول لويس عوض فى كتابه (أقنعة الناصرية السبعة) الصادر عام ١٩٨٧ يرد فيها على بعض الأقلام التى انهالت على عهد عبد الناصر بالتجريح والتجنى وبعض الذين يأكلون على كل الموائد .... لذلك يخلو نقدهم من الشرف الوطنى .

هى نظرة متسرعة لأنها لا ترى من عهد عبد الناصر إلا فترة الجزر ، أما فترة المد فيها نطرحها من الحساب ، وإذا كان خطأ أو وهماً أن يتصور معاصر نابليون – والقياس مع الفارق – أن الثورة الفرنسية قد انتهت واقتلعت جذورها؛ لأن نابليون هزم فى ووترلو عام ١٨١٤ ؛ فخطأ أو وهم أن يتصور معاصر لعبد الناصر أن الثورة المصرية فى عام ١٩٥٢ قد اندثرت بذورها بهزيمة عبد الناصر فى ١٩٦٧ إنها راقدة تحت التربة المصرية والعربية وحين يأتى الأوان سوف تخضر براعمها من كل ما هو

إيجابى فيها ، وكل ما نرجوه ألا تتجدد سلبياتها كذلك ، لقد بذر عبد الناصر بذور القلق فى نفوس عبيد الأرض وجسد أحلامهم فى أن يتخلصوا من أصفاد نخاسيهم فى الداخل والخارج ، ولكنه لم يعرف كيف يرسم لهم طريق الخلاص من هذه الأصفاد ، أو لعله كبلهم بأصفاد من فولاز ليحررهم من قيود الخيال ، لقد ترك لنا القيد والقلق فى آن واحد ، فالقيد من سلبياته والقلق من إيجابياته .

وبعد ذلك يخاطب لويس عوض – السادات فى بداية عهدة بعد رحيل عبد الناصر .

وأنا شخصيًا لا أعتقد أن الإجابة على نظرية حرب الطبقات تكون بإلغاء الطبقات أو بإدماج الطبقات ، والسلام الاجتماعى يمكن تحقيقه بالصراع السلمى بين الطبقات عن طريق التنظيمات السياسية المتعددة المعترفة بحق غيرها فى الحياة وفى التعبير الحر عن نفسه وعن غاياته الخاضعة لسلطان القانون ، الحرية المنظمة بالقانون هذا هو الطريق ، طريق الديمقراطية ، وهو كغيره طريق محفوف بالأشواك وهو طريق أطول من سواه ، ولكنه رغم ذلك آمن عن غيره ، وحيث حرية الصراع يكمن خطر الفوضى وعلاج ذلك يكون بالتعليم ، ثم بالتعليم ، ثم بالتعليم ، وحيث الرأى للأغلبية يكمن خطر (١٥ مايو) بأمانة وشجاعة فعلى هذه المواجهة تتوقف أسس العقد الاجتماعى الذى بموجبه يحكم الرئيس السادات ومدرسته شعب مصر ، ويحدد وضع مصر وشعبها بين دول العالم وشعوبه ، فإذا ظن البعض أن من الممكن ومن الجائز أن يلبسوا عباءة الناصرية ثم يبشروا ويفعلوا عكس ما كان عبد الناصر يبشر به ويفعله ، ففى رأيى أنهم سيكتشفون بعد قليل أن هذا الطريق لم يؤد بهم إلى شىء كثير .

وفى رأيى المتواضع أن الثورة الناصرية بإيجابياتها وسلبياتها أدت ما عليها فى ظروفها التاريخية حيث عالم القطبية الثنائية وتجربة الحزب الواحد الشمولى وهذا لا يصلح لعصرنا وظروف مصر والمنطقة العربية والشرق الأوسط حيث تصعد الديمقراطية الجديدة والطريق الذى يجمع بين تحقيق حرية الإنسان الروحية وضرورات الحياة المادية .

وفى رأيى المتواضع أن مصر اليوم ومنذ ١٥ مايو ١٩٧١ بحاجة إلى عقد اجتماعى جديد) .

هذا هو السؤال المشكلة الذى طرحه مثقف عضوى دفع ثمن معتقداته فى حب وطنه واجتهد كما اجتهد أستاذه طه حسين الذى خدم الثقافة المصرية بمشروعه الثقافى فى أزمة الليبرالية، أما تلميذه لويس عوض فلم يستكمل مشروعه الثقافى؛ لأنه

طرحه ودافع من أجله وهوجم من أجله من اليسار الاستاليني ومن اليمين السلفي ....
لأنه طرحه في أزمة الشمولية الناصرية والساداتية .

غير أننا وفي عصر مبارك حيث بدأ منذ تولى الحكم يحقق الهدف الأخير من برنامج ثورة يوليو ٥٢ الذي أعلنه عبد الناصر بعد استقرار السلطة في يده وعبد الحكيم عامر وصلاح نصر في أزمة مارس ١٩٥٤

. هذا الهدف الأخير وهو الديمقراطية وحرية التعبير وحق الاختلاف يدفعنا لتجديد ذكرى لويس عوض وطرح مشروعه الثقافي .

لقد دافع لويس عوض عن نفسه أما التهم الظالمة التي وجهت إليه عندما كتب عن أبي العلاء المعري ، وعن ابن خلدون ، والأفغاني وعندما صودر كتابه المهم (مقدمة في فقه اللغة العربية) ... كل ذلك احتمله وقد عشت معه معاناته الفكرية غير أن أكبر إساءة إليه أن يتهم أنه معاد للجماعة التي ينتمي إليها .

كان لويس مصرياً وثقافته عربية وحداثية وعلمية ومستنيرة وعقلانية ، واستوعب قيم مجتمعه الإيجابية وتمرد على المألوف والنقل والاتباع ، واستوعب قيم مجتمعه الإسلامية فكيف يتهم أنه من دعاة التخريب ، وأنه شعوبي وصليبي .

كان في أيامه الأخيرة وقبل أن يرقد على سرير المرض التقى به أسبوعياً بالأهرام أحياناً مع غالي شكري وأحياناً بمفردي ... فيعرض على رسائل سباب ضده إنه مبشر، وعدو الإسلام ... وذات مرة أخذها وعرضها في ألم على توفيق الحكيم .

لذلك عكف وهو يقترب من السبعين ليكتب أقرب السير والاعتراف للأدب العالمي وتأتي سيرة بعد (الأيام) لأستاذه طه حسين ، لنسمع مرارة الاعتراف لهذا الناقد والمؤرخ والراهب والفنان بعد أن جرحته المعارك والجهل .

والافتراء السلفي الغبي عدو التقدم والتجديد .

يقول لويس عوض في مقدمة (أوراق العمر) كتبت بين (١٩٨٣ - ١٩٨٦) ولدى الكثير من حواراته معي وأخذ رأي في بعض المواقف الحرجة أتركها لمجال آخر ، ولكني لا أستطيع أن أنسى أن لويس عوض كان يشكو لي من قلة النوم وسرعة ضربات القلب ، ولا يجد دواء معيناً ينظم ضربات القلب وكنت وقتها أعمل محاسباً في المؤسسة العامة للأدوية فخاطبت المسئولين في مؤسسة القطاع العام العظام ، وكانوا تلامذة لشقيقي الكبير عالم الصيدلة د. عبد الملك أبو عوف ، فاستوردوا على الفور كميات من هذا الدواء للويس عوض .

يقول لويس عوض بحزن وأسى : لانحتاج لتفسير .

كانت العادة فى تلك الأيام البعيدة أن يولد الإنسان وأن يدفن فى بلدة أهله مهما بعد أو طال اغتراب الوالدين ، وهى عادة لا تزال تحافظ عليها بعض الأسر المصرية المتمسكة بأصولها الريفية ، وكلها أيضًا عادات فى طريقها إلى الزوال بسبب كثرة الهجرة وتعقد الحياة المدنية ، فحين مرضت أمى مرض الموت فى ١٩٥٦ ، نقلها أبى من المنيا إلى شارونة (مركز مغاغة ، محافظة المنيا) لتموت بين أهلها بعد أسبوع ولتدفن فى مسقط رأسها وحين مات أبى فى المنيا فى ٧ يناير ١٩٦٢ نقلناه إلى شارونة ليدفن إلى جوار أمى .

وقد ظللت على اعتقادى أن مرقدى المختار سوف يكون فى مصر حتى عشت عشر سنوات تحت حكم السادات فلم أعد أعبأ أين يكون مرقدى ، وكنت أعتقد طوال حياتى أن روحى لن تهدأ إلا إذا دفن جسدى فى تراب مصر حتى تولى السادات الحكم فطهرنى من هذه الأساطير المصرية .

لن يفهم هذا إلا رجل يحس فى أعماقه أن لحمه من تراب مصر معجونًا بماء النيل وعظامه من أحجار المقطم الجيرية أو من أسوان ، ولست أشك فى أن عبد الناصر فعل ببعض المصريين ما فعله السادات بى وبغيرى ، ربما كان فى هذا الكلام نوع من المبالغة البلاغية .

وأنا أعرف بدراستى وصحبتى لأستاذى لويس عوض دفء وصدق هذه الكلمات ... (عن انتماء لويس عوض انتماء إلى تراب مصر ونيلها وصخورها وأساطيرها القديمة والحديثة ، انتماء لا يعرف خرافة التفرقة بين مسلميها وقبطها) .

ولقد أفردنا فصلاً من كتابنا يرد ويضحض افتراء وأكاذيب من حاولوا اتهام لويس عوض بالتعصب والتعالى على الثقافة العربية والإسلامية واعتمدنا على فصل من كتابه قبل الأخير (دراسات فى الحضارة) صدر عام ١٩٨٩ يجادل فيه د. محمد إسماعيل على – أستاذ القانون الدولى بجامعة الأزهر فى الأهرام بتاريخ شهر أبريل ١٩٧٨ حول إشكاليات القومية العربية (والتكوين الأنثروبولوجى الجنسى) للمصريين .

يقول لويس عوض بحسم علمى وبانتماء مصرى شريف وصادق : إلى أين أقباط مصر لا ينطبق عليهم أى ركن من أركان تعريف الأقليات الذى نصت عليه لجنة حقوق الإنسان ؟

أولاً : لأن الأقباط ليسوا جماعة لها أصل عرقي ثابت يختلف بصفة واضحة ولا بصفة غامضة عن بقية الشعب المصرى الذى نعيش فيه ، فمعروف أن المصريين مسلموهم كأقباطهم تنحدر أعراقهم الأساسية عن قدماء المصريين ، فإذا كانت فى هؤلاء أو أولئك دماء وافدة فقد ذابت فى البحر المصرى الكبير .

ومن خرافاتنا المتوارثة أننا نتحدث عن (عنصرى) الأمة المصرية ، فالأمة المصرية ليس فيها إلا عنصر واحد يتخلى في الأغلبية الساحقة من أبنائها أيًا كان دينها ، وإنما خرافة العنصرين نزلت إلينا من زعم الأقباط أنهم وحدهم من سلالة قدماء المصريين وأنهم أصحاب مصر الأصليين ، ومن زعم المسلمين أنهم من سلالة العرب الشريفة ، فى حين أن الأنثروبولوجيا الجنسية لا تميز بين هؤلاء وأولئك لافى مقاييس الجماجم والأنوف ، والعظام ولا فى نسبة تجلط الدم ولافى خواص الشعر ... إلخ بينما هى تميز فى كل هذه الخصائص السلالية بين المصريين عامة وبين جيرانهم من شعوب غربى آسيا فى الشام والعراق والجزيرة العربية) .

ولم يقرأ السلفيون وجماعات التطرف وأعداء الفكر العقلانى تاريخ مصر المدنية الحضارى المتميز بتراكم عصورها الفرعونية والقبطية والإسلامية كما لم يقرءوا (أولاد حارتنا) لنجيب محفوظ قبل أن يقرروا ذبحه .

فقد أساءوا لهذا المعلم والناقد والمؤرخ بعد أن أنفق عمره يقرأ ويساهم فى تطور فكرنا النقدى والثقافى بآيات الإبداع والفكر والعقلانية والاستنارة فعندما ردت إليه وزارة الثقافة ووزيرها المستنير فاروق حسنى ورشحته أكاديمية الفنون ومنحه المجلس الأعلى للثقافة جائزة الدولة التقديرية عن جدارة يستحقها من سنين .

وفوجئنا وفوجىء لويس عوض على طعنه أعتقد أنها كانت أكبر وآخر إساءة وظلم للويس عوض قضى عليه وعشت معه لحظاتها المثقلة بالألم وإحساس المفكر والمثقف بنكران الجميل والجحود ومواجهة السؤال الفاشل هل كل ما كتبه طوال خمسين عاماً من فكر وإبداع وتاريخ ونقد ... إلخ كان عبثًا وقبض ريح وحصاد هشيم .

نعم لقد تجرأ أحد أفراد الجماعات الأصولية وقدم دعوة فى مجلس الدولة تستنكر وتطعن فى جدارة لويس عوض باستحقاق الجائزة التقديرية فى الآداب لأنه عدو صليبى للثقافة العربية والإسلامية .

ورغم أنى قمت بالرد على صاحب الدعوة فى روز اليوسف بعد تركى لها سنوات منذ أيام كان رئيسها عبد الرحمن الشرقاوى إلا أنى لاحظت وبعض أصدقائه المقربين أنه بدأ يصمت معظم الوقت ويغيب عنا وعرفت أنه دعى لندوة بالجامعة .. فكان يتكلم بصعوبة ثم فجأة صمت وغاب ...

وكان من أقرب أصدقائه وتلامذته الأوفياء المستشار السياسى للسيد رئيس الجمهورية د. أسامة الباز .. تعودت أن ألقاه فى مكتبه بالأهرام قبل أن ننصرف معًا كعادتنا .

وبدأ د. أسامة الباز يقلق على صحة لويس عوض وعرفت بعدها أنه أخذه لإجراء تحليلات وتتابعت الأيام الكئيبة وعرفت أنه أصيب بالسرطان فى صدره نفس المأساة التى عشتها مع شقيقى الكبير د. عبد الملك أبو عوف رمز ٤٦ والذى من أفضاله أن قرأت فى مكتبته فى صباى الكاتب المصرى وتعرفت على لويس عوض .

وأخيرًا فإن أكبر دليل على صدق وشجاعة لويس عوض ووحدة قضيته فى مشروعه الثقافى الملتحم بطموحات الشعب المصرى فى الحرية والعدل وحق الاختلاف إن أول كتبه كان دفاعًا مجيدًا عن الشاعر الرومانسى الثورى شلى الذى غنى للثورة الفرنسية أعذب الأناشيد (بروميثيوس طليقًا) عام ١٩٤٦ أما كتابه الأخير فقد كان تحليلاً وتأريخًا مستنيرًا لأحداث الثورة الفرنسية ودلالتها السياسية والاجتماعية والفكرية فى تمجيد حق الإنسان فى الحرية والإخاء والمساواة واحترام القانون ، ولقد كتب لويس عوض الفصول الأخيرة للكتاب من جانتون وروبسبير وهو فى اللحظات الأخيرة حيث أدى المرض الخبيث لاهتزاز قلمه وقد كانت كلماته الأخيرة دفاعًا نبيلاً ومجيدًا عن ضرورة سيادة القانون ، ودعوة رجل يحتضر الأحياء من بعده إلى الاعتصام به .

المعادى - أغسطس ٢٠٠١

الفصل الأول

لويس عوض بين الحضور والغياب

لا أجد وصفًا صادقًا أصف به لويس عوض الذى تمر على رحيله أربع سنوات إلا وصفه لنفسه فى كتابه (يوميات طالب بعثة) يقول المعلم العاشر لويس عوض : « لو كنت كتبت للعبيد إنجيلاً حروفه من نار ، لو كنت بيرون كنت سلبت سيف العدل والجهاد ولا أغمده قبلما أرى بعينى عملاق الظلم مضرجًا على سهول بريتوريا ، لو كنت شيلى كنت غنيت مع الصبح ، وملأت الآفاق بأناشيد الخلاص ، لكن أنا ضعيف ، روحى مكسورة وريشتى هزيلة ودمى مهدور فى خدمة الأحرار » .

ولقد توحد فكر وإبداع لويس عوض النقدى مع نضال شعبه المصرى وكان أكمل وأشرف تعبير عن التزام المثقف المصرى الوطنى الديمقراطى الثورى بمسار الحركة الوطنية منذ صعودها فى الأربعينيات وحتى السبعينيات وما شهدت من تراجعات عن طموحات الثورة الوطنية .

وثمة اتساق ووحدة فى أول كتبه (بروميثيوس طليقًا) حيث غنّى للثورة والحرية مع شاعر الثورة شيلى وحتى كتابه الأخير الذى كتب فصوله الأخيرة على سرير الموت (الثورة الفرنسية) فلويس عوض بين كلٍّ من هذين الكتابين هو الشاعر والناقد والمؤرخ الذى يقدس العقل والحرية والعدل والديمقراطية ومجد الإنسان وعن طريقه مجد الله . . وقد صارع الفكر السلفى اللاعقلانى وحراس التقليد والاتباع . . ودفع من حريته فى سبيل هذه المثل وتعرض لعديد من المحن ، الطرد من الجامعة والاضطهاد والاعتقال وظل طوال عمره الفكرى مستهدفًا من خفافيش الظلام والجهل . . ولم يكن أبدًا من كتاب المؤسسة الرسمية .

ومنذ أواخر الأربعينيات ، ولويس عوض يقدم لثقافتنا الكثير ، عاش حياة خصبة نحياها نحن ، من جديد ، حين نقرأه ، قدم لنا في مستهلها مقدمات كتب (هوراس وفن الشعر) (برومثيوس طليقًا) (في الأدب الإنجليزي) حددت وأصّلت بدايات طرق نقدية لا زالت الأجيال التالية تعمل على استكمالها وتطويرها ، وكانت هذه البدايات - في زمنها - أقرب مفاهيم الأدب والنقد للنظرية العلمية ، حول مسألة صعبة هي معنى الواقعية لا كتيار مدرسي كالرومانسية والكلاسيكية ، بل كتفسير يعتمد أحكام القيمة والجمال لحركة الصراع الاجتماعي في مصر الأربعينيات .

ورغم إيغال مفاهيم لويس عوض في المنهج التاريخي والاجتماعي لفهم الظاهرة الأدبية إلا أنه مهّد الأرض للأجيال التي جاءت بعده وعانت عملية الصراع الوطني والاجتماعي قبل وبعد ١٩٥٢ ، واستطاعت أن تضيف أبعادا جديدة لمعنى (الواقعية) لا كمفهوم جامد ، وكليشيه ثابت ، بل كمفهوم رحب ، غني بتحويلات الواقع ، وإدراك جدل الذات الخالقة مع نوعين من الإمكانيات على مستوى الضرورة الطبيعية والاجتماعية لمشكلة الحرية .

١ - عن منهج لويس عوض النقدي وسماته وتحولاته :

يكتب لويس عوض في مقدمة (بروميثيوس طليقًا) : (لا سبيل إلى فهم المدارس المختلفة في الفكر والفن إلا إذا درسنا الحالة الاقتصادية في المجتمع الذي أنجب هذه المدارس ، ولا سبيل إلى فهم المدرسة الرومانسية التي انتمى إليها (شيلي) على وجه التخصيص إلا إذا درسنا حالة إنجلترا في عصر الانقلاب الصناعي ويقول أيضا : قال « مستر و . ج ، فيشر أستاذ الاقتصاد بلندن :

(لم يكن محض مصادفة أن الانقلاب الصناعي ظهر مع ظهور الانقلاب في التصور الأدبي ومع حدوث انتقال من الأدب الكلاسيكي إلى الأدب الرومانسي ، والقصة والأدب الرومانسي عامة هما في جوهرهما نوعان من أنواع الفن البرجوازي . .) .

هذا هو الوضع العلمي لقول الناقد الكبير (لسلي ستيفن) في وصف الأدب الإنجليزي في عصر الثورة الفرنسية (إن طابع الأدب المعاصر قد تشكل في مجموعه تبعا للحالة الاجتماعية في الطبقة التي كتبت ذلك الأدب وكتب ذلك الأدب لها) .

وبشمولية يتتبع لويس عوض مراحل الثورة والتطور البرجوازي وانعكاساته على الأدب ويقدم أوسع دراسة تاريخية واجتماعية للرومانسية غير أننا وكما سنلاحظ في

عودته إلي هذا الموضوع بتوسع أكبر فى كتابه (فى الأدب الإنجليزى) الحديث – أن لويس عوض قد غالى فى التفسير الميكانيكى والالتزام بمبادئ المادية التاريخية فى فهم المذهب الأدبى والبنية الأدبية ، وأهمل الجانب الجدلى وأوقعه هذا في تفسير آلى أغفل فيه خصوصية لغة الأدب وذاتية المبدع ، وأن لويس عوض أغفل المادية الجدلية التي تأخذ فى الاعتبار علاقات التأثير والتأثر بين البناء التحتى للمجتمع وأسسه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والبناء القومى ، ومنه النشاط الإبداعى الذى يشتمل بجانب انعكاسه للزمن الحاضر على بقايا صور الماضى ومعتقداته وتراثه الأسطورى .

ولذلك نلاحظ أن لويس عوض توقف عند النقاد والكتاب الانجليز الاجتماعيين مثل شو ، وويلز ، وكل الكتاب الذين لا يمكن أن تطلق عليهم بمقياس مصطلح الواقعية الأدبى ، الصلاحية الفكرية والرؤية الجمالية لهذا المذهب فكثير من أفكارهم يشوبها التصوف والحدث رغم أرضيتها الاجتماعية فى حين أغفل أعمال (بيلنسكى) و (تشيرنفسكى) و (بليخانوف) والحق أن كل الملاحظات الأساسية النقدية التى وضعها لويس عوض لمعنى الأدب المسئول أو المرتبط بلغته كانت تنقل بلا تقصى المنهج التاريخى والاجتماعى لفهم الظاهرة الأدبية ، إلا أن الذيول النفسية والتلخيصات الميكانيكية لفهم الظاهرة الجمالية أبعدته فى دراساته الأولى عن إصابة الهدف النقدى ، ولعل هذا القصور ظل يصاحب مفاهيمنا الواقعية حتي الآن ، ولقد أثبت مذهب الذاتية الاقتصادية أنه مميت بشكل مزدوج فى الحقل الأدبى والفنى ، فلقد حدد تصوير الواقع تصويرا طبيعيا فجا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أدخل بديلاً زائفاً فى شكل الرومانسية الثورية وعالم الأدب عالم محدد ، ومثل هذا المنظور المتناقض المتنافر لا يفيده .

وعندما نعود لكتاب لويس عوض (الاشتراكية والأدب) نجد أرضية هذا المنهج النقدى فى موقفه من وظيفة الأدب وعلاقاته بالحياة ، فهو يقول بحسم : « وقد كنت دائما أفضل فلسفة الأدب للحياة على فلسفة الأدب للمجتمع ، لا لأنى أستهين بالمجتمع أو ألتمس التعمية فى شيء مجرد هو الحياة ولكن لأن الحياة شيء أعم من المجتمع وشامل له ، فالحياة لا تشمل المجتمع والفرد جميعاً ، وليس من الخير أن نطرح الفرد من حسابنا فى أى فلسفة اجتماعية نقيمها بالفكر أو بالفعل ، وإنما الخير كل الخير أن نعترف بالفكر ونضعه فى مكانه الصحيح الطبيعى من إطار المجتمع العظيم ، بحيث لا يخرج الفرد بفرديته خروج الجزء من الكل ويشط عن مجاله الشرعى فيخرب المجتمع ، ثم يحدد مفهومه بوضوح أكثر قائلا :

« بهذا تكون دعوة الأدب للحياة دعوة قومية ودعوة انسانية معا ، لأنها تجعل من الأدب وظيفة للحياة القومية ووظيفة للحياة الإنسانية وبهذا تكون دعوة الأدب للحياة دعوة مادية ودعوة روحية معا ، لأنها تجعل من الأدب وظيفة للحياة المادية ووظيفة للحياة الروحية ، وبهذا تكون دعوة الأدب للحياة دعوة اجتماعية ودعوة فردية معا ، لأنها تجعل من الأدب وظيفة من وظائف المجتمع كما تجعل منه وظيفة من وظائف الفرد » .

وهذا الموقف يؤكد قوله فى حوار أجريناه معه حول موضوعات (المنهج النقدى ، الأدب المصرى ، والأجيال الجديدة) نشر فى مجلة الطليعة عدد مايو ١٩٧٤ أجاب لويس عوض : « أعتقد أن الروح والمادة وجهان لنفس الشىء وأن الزمان والمكان وجهان فى حد ذاتها مجازفة كبرى ، وأنا شخصيا وصلت إليها عن طريق التفلسف المبنى على الاستقراء المادي ، ولكن - للأسف - غير قادر عليها كلحظة وجد صوفية ، فأكتفى بأن أعيش فيها بالخيال ، والخيال وحده لا يكفى ، وغير كاف ، لأنها فى الواقع تجربة لها نوعية صوفية مدمرة ، أن توجد فى لحظة التقاء الزمان والمكان والأبد والأزل والفعل والسكون ، هذه أزمة روحية لا يحسد عليها إلا الصوفيين وللأسف - أيضا - أن أكثر الصوفيين يحدد إمكاناتهم الصوفية بانتمائهم إلى معتقدات مسبقة أو خرافات مسبقة يقينية » .

فالمنهج التاريخى إذن عند لويس عوض فى دراساته الأولى هو التقاء عبقرية المكان وعبقرية الزمان ، وعبقرية الحدث أو الأحداث فى العمل الفنى وليس مجرد الصفة الإقليمية البحتة .

ولكننا نظلم لويس عوض كناقد إذا توقفنا عند بداياته المنهجية التاريخية والاجتماعية ، فهو من المؤمنين بوحدة الثقافة الإنسانية رغم اهتمامه بدراسة آثار البيئة المحلية والتاريخ القومى فى تكوين الأدب والفن ومن هنا نجد عنده نزوعا دائما إلى النظرة المقارنة ، نجد ذلك فى دراساته الجامعية مثل رسالته عن لغة الشعر فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى وهى بالإنجليزية ، ومثل دراسته عن أسطورة بروميثيوس فى الأدب الإنجليزى والفرنسى وهى أيضا بالإنجليزية ، كذلك فى كتابه (أسطورة أوريست والملاحم العربية) كذلك دراسته عن ابن خلدون والمعرى . ودراسته فى تاريخ الفكر المصرى الحديث ومحاولة تأصيله فى لقاء الثقافتين العربية والأوروبية .

تلك هى فى اعتقادى أبرز سمات المنهج النقدى عند لويس عوض وهى ثمرة رؤية فلسفية شرحها لى فى حواره معى فى مجلة الطليعة قائلا : « أنا أعتقد أن الإنسان مزود بأدوات يعرف بها الحقيقة والواقع . . هى الحواس والمنطق الذى هو أرقى صورة لسمو العقل ولكنى أعتقد فى نفس الوقت أن طريق المنطق والعقل طريق تحلبلى إلى الحقيقة ، وبالتالى فهو لا غناء عنه في معرفة الحقيقة الجزئية ، أما الحقيقة الكلية ، فالعقل والمنطق كذلك لا يقف مشلولا أمامها ولا سبيل للانسان إلى معرفتها إلا بملكة أخرى تمكنه من التركيب بدلا من التحليل ، أي ملاحظة وجوه الشبه بدلاً من ملاحظة وجوه الاختلاف ، وباختصار تمكنه من رؤية الوحدة بين الأشياء بدلاً من الفرقة وهذه الملكة هى ملكة الخيال ، فأنت عندما تقول « حبيبتى نجمة مضيئة » أو حين يقول صلاح عبد الصبور « وجه حبيبتى خيمة من نور » أو عندما يقول – « ينشد الإنشاد عيناك حمامتان » ، فالواقع أن الشاعر في جميع هذه الأحوال يرى عن طريق التركيب ما بين كائنات الوجود من وحدة وهذا هو الشعور والفن ، فهناك فى الحياة أشياء لا تستطيع أن تثبتها بالمنطق ، فأنت لا تستطيع أن تثبت أن الطبيعة خيرة بالفطرة ، أو أنها شريرة بالفطرة ، أو تثبت بالمنطق أن ألوان الشفق جميلة فأنت إذا بحاجة إلى حاسة أخرى تدرك بها وحدة الأشياء فى الكون ، وهذه الملكة هى ملكة الخيال الذى يُمَكِّن الإنسان من أن يرى الوحدة بين ألوان الشفق والطيف وبين الهارمونى فى الموسيقى وبين العمل الجميل ، أو فعل الخير وكلها تبعث الطمانينة والفرح فى نفس الإنسان .

ولذلك تجد أنى أعتقد أن للأسطورة والرمز وظيفة لا تقل أهمية عن وظيفة الفلسفة والتاريخ والعلم ، بل أكاد أقول : إن أهم ما فى الحياة من كليات مثل علاقة الإنسان بالكون أو مبدأ الإيمان على إطلاقه دون دخول فى تفاصيل هو الإحساس بالانتماء إلى الكون الأكبر وأن الإنسان ليس لقيطًا فى هذا الوجود وهو مصدر الحاسة الدينية عند الإنسان .

كل هذه الأشياء لا يمكن إثباتها بالمنطق ، وقد جرب (كانت) من قبل هذه التجربة فوجد أن حتى وجود الله – نفسه – لا يمكن إثباته أو نفيه بمجرد استخدام المنطق والعقل ، ويقول لويس عوض – أيضا – : إنى أعتقد أن أصحاب النظم الفلسفية الشامخة المثالية من أفلاطون وحتى هيجل فى طموحهم لاستحضار فكرة كونية قائمة

على الوحدة الخصبة في الوجود تقوم على أنهم في الأصل شعراء وليسوا فلاسفة وهذا يدلك على أن الشعر والفن وكما ذكر أرسطو أقرب إلي الحقيقة من التاريخ والفلسفة وإنما الخطأ يأتي عند عامة الناس من محاولة تطبيق الخيال على الجزئية التي تقع تحت دائرة العقل وحده أو العلم والمنطق ، ومن الخطأ أن يستخدم الإنسان أداة الخيال فيما يخضع لأداة العقل لأن ذلك قد يسلمنا إلي الخرافة ، فالخرافة أصلا أسطورة منسوخة حول رمز نبيل عظيم لأنه يعالج كليات المعاني وكليات الأشياء والأحداث ، وفي عصور الانحطاط تتحول هذه الأسطورة الخصبة إلي تاريخ وإلى واقع وقعت بالفعل فينسى الناس معناها الرمزي العظيم ويحولونها إلى حدوتة مبتذلة بل حدوته قد تعوق الإنسان في سيره إلى التقدم .

وتلك في اعتقادي رؤية تكشف عن الجانب الهام من مكونات وشخصية لويس عوض كناقد مبدع فهو قد عاني ويلات وتعقدات عملية الإبداع ، فهناك جانب آخر للويس عوض هو جانب الفنان الخالق التجريبي الرائد كما في الشعر في (بلوتلاند) والرواية (العنقاء) والمسرح (الراهب) و (محاكمة إيزيس) بل لقد بدأ لويس عوض حياته المبكرة شاعرا قبل أن يعتمق ويتبحر في النقد الأدبي ، فهو يقول في حواره معي بالطليعة : (لقد بدأت شاعراً أو قصَّاصاً ، كنت صبيًّا في الرابعة عشرة أعيش في صعيد المنيا . . غير أني كنت يقظاً أتنسم مع جيلي أصداء البعث القومي لثورة ١٩١٩ – ولأن والدي كان وفديًّا ، فقد كانت مأساة كئيبة لحظة أن مات سعد زغلول ، أحسسنا يومها أن شيئاً كبيراً قد سقط ، لحظتها وبرغم أني لم أر جنازته فقد عبرت عن إحساساتي بقصيدة رثاء من بحر الرمل ، ولازلت حتى هذه اللحظة أعيش في جوها ، إنها البداية والتعرف على السر والرعشة التي انتابتني وأنا أكتبها ، أسلمتني وحتى الآن لجوهر التكوين المصري في التاريخ والحاضر والمستقبل ، كذلك أذكر أني كتبت عدداً من القصص) .

فعندما نبحث عن سمات منهج لويس عوض النقدي يجب أن نشير لمحاولاته الإبداعية وأبرزها (ديوان بلوتولاند) الذي كان أول ديوان يحطم عمود الشعر التقليدي ويدعو لشعر التفعيلة ، واستخدام الأساطير والتجزئ واللاشخصية والطفرات والميلودي . . و (رواية العنقاء) التي جمعت بين كل فنون وأساليب الرواية الحديثة ، ومسرحية الراهب ، ومحاكمة إيزيس ، ويوميات طالب بعثة التي صاغها بالعامية ،

وانعكاس كل ذلك على رؤيته النقدية وهو فى هذه الأعمال يقوم بعملية تجريب ومغامرة تعادل عناصر رؤيته ومكوناته النقدية التي أشرنا إليها سابقا وهذا موضوع يستحق المناقشة والدراسة المستقلة ، وخاصة الثورة فى العروض واستخدام الديالوج فى القصيد وتحطيم القافية والتجزئ والتنغيم واستخدام العامية . . إلخ .

ولنقرأ ما كتبه فى نهاية مقدمته لديوان (بلوتلاند) لنؤكد هذه الخصوصية التي تميز لويس عوض الفنان والناقد . . من أجل هؤلاء (يقصد المتمردين على القصيدة الكلاسيكية) قال لويس عوض الشعر وهو ليس شاعر ، وهو يعد بألا يكرر هذه الغلطة ولو نفى في بلاد الخيال ولو أنه أراد أن يقرض الشعر لما استطاع ، فقد انقطع عنه الوحى منذ أن عاد إلى مصر فى الخامسة والعشرين ، ولو أنه أراد الآن أن يقرض الشعر لما استطاع ، فقد أجهز عليه ماركس ، ولم يرد من ألوان الحياة الكثيرة ومن ألوان الموت الكثيرة إلا لونًا واحداً ، وغدت أمامه الحشائش حمراء والسماوات حمراء والرمال والمياه وأجساد النساء وأحاديث الرجال ، والفكر المجرد كلها غدت أمامه حمراء بلون الدماء حتى الأصوات والروائح والطعوم غدت أمامه وحوله حمراء كأنما شب فى الكون حريق هائل ، وهو راض بأن يعيش فى هذا الحريق ، فمن رأى السلاسل تمزق أجساد العبيد لم يفكر إلا فى الحرية الحمراء .

وسوف يظل جهد لويس عوض النقدى ودراساته النقدية والفكرية والسياسية مطروحة عبر نضالنا الوطنى والاجتماعى والحضارى ، فالأسئلة التي ظل يطرحها طوال نصف قرن على العقل المصرى والعربي مازالت تبحث عن إجابة وصيغة تتخطى التناقض والازدواجية التى نعيشها بين فكر أسطورى وشوق للعقل والإدراك العلمى ، بين رواسب قيم وعادات قرون وسطى وحلم عاجز بأن تلحق عصر الذرة والتكنولوجيا والفضاء .

لقد التحم فكر وإبداع وموقف لويس عوض بنضال وتحولات الحركة الوطنية الديمقراطية منذ الأربعينيات ، وحتى رحيله فى التسعينيات وكان التعبير الأكمل الناضج لشرف وطموحات شعبه وقد تحمل فى صلابة من أجل موقفه ، الاضطهاد ، والقمع والطرد من الجامعة والمنع من الكتابة والاعتقال والتعذيب . . ومصادرة كتبه ومقالاته .

وبرغم هذه الحياة القلقة والمضطربة وفقدان الطمأنينة والاستقرار فقد أنجز لويس عوض وعلى مدى خمسين عاما عدة مشروعات نقدية وفكرية تشكل إحدى

الحلقات المضيئة فى ثقافتنا المعاصرة ، تشمل النقد الأدبى وتاريخ الفكر ، والدراسات المقارنة ، وفن المسرح ، والترجمة وقضايا التعليم . . بجانب المغامرة الإبداعية والتجريبية فى الشعر والرواية والمسرح وأدب السيرة ، ولقد أحدثت هذه الإنجازات الجسورة ، صدى ومناقشات ومعارك . . أغنت وأخصبت حياتنا الفكرية والأدبية ، وكان لويس عوض فى صخب هذه المعارك يقف كأبطال المآسى الإغريقية ينازل خصوم الفكر والعقل وعبدة السلف والمقلدين وأهل الاتباع ، ويرفع فى كبرياء وشموخ أعلام العقلانية والعلم والفكر النسبى والتجريب والتقدم والحرية ومجد الإنسان ،

لقد كان لويس عوض ديمقراطيًا ثوريًا راديكاليًا ذا نزعة اشتراكية تتفق وتخلتف عن الماركسية . غير أنه مفكر موسوعى إنسانى استوعب وتأثر بعصر النهضة والفكر التنويرى فى القرن الثامن عشر وقدس مبادئ الهيومانية .

كان لويس عوض يعتقد أن للأسطورة والرمز وظيفة لا تقل أهمية عن وظيفة الفلسفة والتاريخ والعلم ، بل أكاد أقول : إنه كان يرى أن أهم ما فى الحياة من كليات مثل علاقة الإنسان بالكون أو مبدأ الايمان على إطلاقه دون دخول فى تفاصيل هو الإحساس بالانتماء إلى الكون الأكبر وأن الإنسان ليس لقيطًا فى هذا الوجود وهو مصدر الحاسة الدينية عند الإنسان .

وقد اعترف لى لويس عوض فى حواره معى بمجلة الطليعة ١٩٧٤ عن جوهر موقفه الفكرى بين المثالية والمادية (أعتقد أن الروح والمادة وجهان لنفس الشىء ، وأن الزمان والمكان وجهان لنفس الشىء فالحقيقة أن الحياة فى تجربة وحدة الوجود هى فى ذاتها مجازفة كبرى ، وأنا شخصيًا وصلت إليها عن طريق التفلسف المبنى على الاستقراء المادى ، ولكن - للأسف - غير قادر عليها كلحظة وجد وصوفية فأكتفى بأن أعيش فيها بالخيال ، والخيال وحده غير كاف ، لأنها فى الواقع تجربة لها نوعية صوفية مدمرة ، أن توجد فى لحظة التقاء الزمان والمكان والأبد والأزل والفعل والسكون .

هذه أزمة روحية لا يحسد عليها إلا الصوفيين وللأسف أيضا أن أكثر الصوفيين يجدد أماناتهم الصوفية ، بانتمائهم إلى معتقدات مسبقة أو خرافات ميتة (يقينية) هذه اللحظة النادرة فادحة الثمن وأنا أخاف منها لقد عشتها بكل ويلاتها وعذوبتها فى منحنيات حادة من حياتى ولم أتخلص من سطوتها وكثافة مشاعرها ودوامة توتراتها

إلا بممارسة عملية الخلق لأصل لنوع من التعادل مع الحياة ، فأنا لم أكتب بلوتلاند ، والعنقاء ، والراهب ، ومحاكمة إيزيس وغيرها من أعمال لم تنشر عن أزمات المراحل السياسية والاجتماعية ، والصدمات التى جذبتنى إليها واقعنا قبل وبعد ١٩٥٢ فأنت تستطيع أن تعود لكثير مما كتبته من مقدمات لهذه الأعمال ، أيضا كتبته عن محمد مندور والعقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم ، فقد حاولت على قدر الإمكان أن أضئ خلفيات الأجواء الفكرية والسياسية التى كانت هذه الأعمال الفنية القليلة التى كتبتها استجابة لها ، وترجمة لفترات خصبة وصعبة وموجبة من حياتى ، غير أنى أحتفظ حتى الآن بالكثير مما لم أقله ولم أكتبه) .

ولقد كان موقف ثورة ١٩٥٢ من لويس عوض موقفًا تتداخل فيه اعتبارات عديدة من التعاون والأبعاد . . غير أنه فى المحصلة الأخيرة كان موقفًا مجحفًا ظالما . فقد عانى القمع والاضطهاد والتشريد فى كل من عهد عبد الناصر والسادات وترك كل ذلك جروحا ظلت تسبب له آلامًا عديدة وتجعله حذرًا متوجسًا دائمًا طوال حياته وعندما قامت الثورة ١٩٥٢ كان لويس عوض بالولايات المتحدة الأمريكية يتمتع بزمالة فى جامعة برنستون من مؤسسة روكفلر لمدة سنتين يقضيهما فى البحث العلمى ، (وهذا يثير الريبة فى ابتعاد لويس عوض ، وإلى أمريكا بالذات فى هذه السنوات القلقة التى سبقت الثورة) أيا كان الأمر فهو يعترف أنه عندما سمع أنباء الانقلاب العسكرى فى ٢٣ يوليو ٥٢ لم يعرف هل يفرح أو يحزن ولقد كانت استجابته مشوبة بتوجس شديد لاسيما أن تجربة الانقلابات العسكرية فى الدول اللاتينية ومن أسبانيا فرانكو إلى جمهوريات أمريكا اللاتينية ، وعلى مرمى حجر من القاهرة . . أقصد فى سوريا انقلاب حسنى الزعيم ، كان لا تبشر بخير .

ولقد تابع أخبار الانقلاب أو الحركة المباركة كما كانت تسمى فى البداية وتوجس من تعاون الثورة مع رجال الحزب الوطنى المعادين للوفد وبعد دراسة على الطبيعة وتقصى لهوية الانقلاب يقول لويس عوض فى كتابه (لمصر والحرية) : « أما أنا فبعد دراسة شهرين على الطبيعة ، أغسطس وسبتمبر ١٩٥٣ فقد انتهيت حيث بدأت مؤيدا فى تحفظ وتوجس ولكن الجديد الذى اكتشفته بنفسى هو حالة البلبلة العقائدية التى كانت تتسم بها الثورة نفسها . . كانت أحيانا تتكلم لغة جون فوكس كرمويل ، كانت أحيانا تتكلم لغة ميرابو ودانتون وكانت أحيانا تتكلم لغة هتلر وجيبلز ، وكانت أحيانا

تتكلم لغة جون فوكس كرمويل ، وكانت أحيانا تتكلم لغة بسمارك الوحدوية وكانت أحيانا تتكلم لغة أتاتورك الانطوائية ، لا تعرف أهى بنت مصطفى كامل ومحمد فريد أم بنت رفاعة الطهطاوى ولطفى السيد ، وسبحان جامع النقيضين ، باختصار كنت تسمع منها كل الأصوات إلا صوت سعد زغلول ومصطفى النحاس ولا تعرف ماذا تريد أكثر من إلغاء الملكية والإصلاح الزراعى وطبعا إخراج الانجليز ككل المصريين ، كان لها تريكولورز ، الأسود والأبيض والأحمر ، وهى ألوان النازى اختيرت بسذاجة ، ومع ذلك فقد كانت من بعض الوجوه أقرب إلي الأزرق والأبيض والأحمر أو كنت أرجو لها أن تكون كذلك ما دامت ثورة بورجوازية وليست ثورة بروليتارية » .

وبعد أن أقنعه الصحفى حسين فهمى بالإشراف على القسم الأدبى لجريدة الجمهورية التى أسستها الثورة وبإشراف من أنور السادات . . رغم تخوفه من صدام الثورة مع اليسار . . وبالفعل شهد ملحق الجمهورية نوعا راقيًا تقدميًا من الملاحق الأدبية وكان شعاره الأدب فى سبيل الحياة ولكن ما أسرع ما تكهرب الجو وبدأت نذر أزمة الديمقراطية الشهرية فى أحداث مارس ١٩٥٤ بين الديمقراطية والشمولية . . ورغم أن لويس عوض كان موزعًا بين التعاطف مع الديمقراطية وفى نفس الوقت الترحيب بالثورة إلا أنه اختار الديقمراطية وكتب فى هذه الفترة قصيدتين رمزيتين تعبران عن عواطفه ومواقفه فى خضم هذا الصراع الذى حسم وحدد مستقبل الثورة ونظام عبد الناصر ، وقدم لويس عوض استقالته من الجمهورية مبررا لها برغبته فى التفرغ لأستاذية ورئاسة قسم الأدب الإنجليزى فى جامعة القاهرة وفوجئ فى ١٩ سبتمبر ١٩٥٤ بفصله ضمن خمسين أستاذًا ومدرسًا من الجامعة والأسباب عديدة منها : موقفه فى أزمة مارس ومنها : أنه مسجل فى سجلات الأمن منذ ١٩٤٠ عقب عودته من البعثة إنه شيوعى ومنها ما قيل عن تقرير مباحثى كتبه د ، رشاد رشدى ليتخلص من رئاسته لقسم الأدب الإنجليزى . المهم أن لويس عوض عانى التشرد والمطاردة وعدم الاستقرار ورفضت إدارة المطبوعات منحه ترخيص إصدار مجلة أدبية ، وحلا لمشكلته المالية التحق بوظيفة صغيرة فى المقر العام للأمم المتحدة بنيويورك ، ثم استقال بعد العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ وبنصيحة حسين فهمى وخالد محيى الدين عاد إلى مصر يحمل العلم حيث استقر فى جريدة الشعب متفرغا للكتابة الأدبية والثقافية ولم يكتب كلمة فى السياسة ورغم ذلك اعتقل مع الشيوعيين فى أزمة عام ١٩٥٩ وعذب وأهين . . ورغم قربى من لويس عوض فلم يكن يحكى عن هذه الفترة

الكئيبة الدامية من حياته . . ولقد حكى لى كثير من زملائه فى المعتقل كيف كان يتلذذ حراس السجن وكلاب الصيد بتعذيب وإهانة هذا الأستاذ والناقد العظيم ، كان يستفزهم معرفة أنه من كبار المثقفين . . ولا نذكر أن لويس عوض قد فاخر بهذه الآلام ولم ينضم لموكب المفاخرين بآلامهم عندما أطلت الثورة المضادة بوجهها الكئيب فى عهد السادات فى السبعينيات وبدأت الحملة على عبد الناصر ونظامه . . . بل على العكس كتب كتابه الذى يسجل فيه شهادته عن مرحلة عبد الناصر يرد فيه على كتاب عودة الوعي لتوفيق الحكيم وعلى محمد حسنين هيكل وهو كتاب (أقنعة الناصرية السبع) درس فيه التجربة الناصرية بموضوعية وعلمية وأنصف عبد الناصر ومشروعه الوطنى للتحرر والوحدة والعدالة وكشف عن جذور أزمته . وفي حواراتى معه كنت ألاحظ حبه وتقديره لعبد الناصر كزعيم وطنى ومتعاطف مع الفقراء . .

أما فى عهد السادات ، عهد التراجع والانقلاب على المشروع الناصرى ودولة العلم والإيمان وإطلاق قوى الظلام والإسلام السياسى ضد الناصريين والماركسيين فكان من المنطقى أن يكون لويس عوض على رأس قائمة المضطهدين . . وبلغت الذروة بطرده مع مجموعة الصحفيين اليساريين والناصريين بقرار لجنة النظام الشهيرة بالاتحاد الاشتراكى عام ١٩٧٢ ، ولقد تخلص لويس عوض من هذه المحنة بالاستغراق فى إنجاز مشروعه الكبير (تاريخ الفكر المصرى الحديث منذ الحملة الفرنسية) حتى أنه توقف عند المجلد الخامس عصر إسماعيل حتى ثورة ١٩١٩ وهو مشروع ضخم يرصد فيه تحولات الفكر المصرى الحديث وتاريخه منذ أول احتكاك حضارى بين مصر وأوروبا وعصر محمد على وإنشاء الدولة الحديثة ثم عصر إسماعيل وازدهار مفهوم تحديث الدولة وفتح قناة السويس والثورة العرابية . . . والاحتلال الانجليزى ، ولقد استخدم المنهج العلمى وكان قريبا من المادية التاريخية فى رصد تاريخ المجتمع المصرى بمؤسساته الاجتماعية والثقافية . . . وهو رد علمى على تاريخ عبد الرحمن الرافعى الذى أرخ للحركة الوطنية المصرية من وجهة الحزب الوطنى فجاء تاريخه متحيزا . . غير موضوعى .

ولقد كنت قريباً وصديقاً للويس عوض أتمتع بثقته وثقافته ولدى الكثير مما أقوله عن صفاته الشخصية وخصوصياته وسلوكياته ورؤيته للآخرين وانطباعاته عن الأحداث العامة وهذا سيكون مجاله كتاب كامل أعده عن هذا الناقد المعلم الفنان . .

وأشهد أنه كان مصريًا حتى النخاع وصعيديًا فيه شموخ وكبرياء أبناء الصعيد . وكان ذوقه رفيعًا ، علمني كيف أتذوق فنون الموسيقى والرسم والباليه وصحبته إلى الأوبرا حيث كان يشرح لي أسرارها . . وبعكس ما يشيع عنه الجهلة والأدعياء فهو كان إنسانى النزعة بعيداً عن التعصب يحتكم إلى العقل وتشهد على ذلك السيرة الأدبية العظيمة والعميقة التى أنجز منها الجزء الأول أوراق العمر - سنوات التكوين ولم يتمها حيث كان ينوى كتابتها فى ثلاثة أجزاء . فخسرنا خسارة فادحة عن تجربة هذا العقل المنظم والمثقف الموسوعى فى رصد الحياة المصرية بشمولية سياسيًا واجتماعيًا وثقافيًا . ولقربى منه لاحظت مدى المرارة والحزن واليأس الذى كان يعانيه في سنواته الأخيرة . . وكنت أصحبه فى عملية بناء مسكنه الريفى فى « دهشور » حيث كان ينوى أن يعتزل فيه ليستكمل مشروعاته الفكرية والنقدية الطموحة . . وللأسف فبعد أن استكمل البناء وأسسه حدثت عملية سطو على أجهزة الاستماع الموسيقى الحديثة التى كان يملكها وعلى جهاز تليفزيون عالمى . . . كانت جيهان السادات قد أهدته له تقديراً لتأثرها به فى رسالتها عن شيلى . . . بعد أن رفض إهداءه سيارة وهذه نقطة غامضة فى حياة لويس عوض تتعارض مع موقف السادات منه وموقفه من السادات ويجب أن أقول هنا أن لويس عوض كان من الكتاب الذين لم تثق الثورة فيهم طوال عهودها الثلاثة . كان خارج المؤسسة ، غير أنه كان يتمتع بصداقة وحماية بعض المستنيرين فى النظام ولعل أبرزهم ثروت عكاشة ، ومحمد حسنين هيكل فى عهد عبد الناصر وأسامه الباز فى عهد مبارك .

ولكن السنوات الأخيرة للويس عوض شهدت نوعًا من خيبة الأمل فى كثير مما ناضل من أجله من فكر عقلانى وتنويرى فقد تدنى المجتمع وانهار وتفكك المجتمع المصرى سياسيًا واقتصاديًا وثقافيًا ولوثت أمراض التبعية للغرب والهزيمة الأحلام الكبيرة وصعود مد الحركات الأصولية الاسلامية وأدران الفتنة الطائفية - كل هذا جعل لويس عوض متشائما ولم يلمح الأمل فى طليعة الحركة الأدبية التى يقودها الشباب وأبرزهم جيل السينيات والسبعينيات . فقد تعالى لويس عوض عن إبداعهم وأعلن أكثر من مرة أنه مشغول بقضايا أكثر أهمية من متابعة أعمالهم ، وأنه جراح كبير لا يقوم بالعمليات الصغيرة مما أدى لاستياء الجيل الأدبى الجديد منه . . وأنا شخصيًا قد بدأت علاقتى بلويس عوض تهتز بعد خلاف كبير . . عندما قال عام ٦٩ فى حديث مشهور مع أحمد حجازى فى روز اليوسف أن حركة الأدباء الجديدة زوبعة

فى فنجان فرددت عليه رداً قاسياً وعلمياً كان كما سماه بعد ذلك منافستو حركة الستينيات وهذا موضوع يحتاج لشرح وتفصيل سأورده فى كتابى عنه .

أيا كان الأمر فقد منعت مقالاته عن الأفغانى في الأهرام مما أدى به إلى الاستقاله ، كذلك صادر الأزهر كتابه الضخم العام (مقدمة فى فقه اللغة) الذى أنفق فيه عشر سنوات من البحث والتعب فى أصول وفقه اللغة العربية وأنزلها من قدسيتها وتصدى للكهنوت السلفى الأشعرى فى فهمها وقدم رؤية علمية مقارنة لفقهها وهذا صدمه صدمة كبيرة ، ومازال مصادرا وعندما عاد إلى الأهرام وكنت ألتقى به صباح كل خميس لنقضى اليوم معا كان يعرض على خطابات تهديد وسباب مبتذلة له . . . تقول : ياعميل الأنبا شنودة ، يامبشر ، ياعدو الإسلام . . إلخ .

غير أن ذروة صدماته وأكثرها تأثيرا فيه كانت القضية التى فيها أحد المغمورين المتعصبين ضده فى مجلس الدولة لحجب الجائزة التقديرية عنه لمعاداته للإسلام وهى الجائزة التي نالها قبل رحيله بشهور بعد أن منحت لمن أقل قيمة وتأثيرا منه . . . بعدها انطوى لويس عوض على أحزانه وهاجمه السرطان القاتل حتى قضى عليه وهو يكتب الفصول الأخيرة من كتابه عن الثورة الفرنسية وقد ظهر فى هذه المقالات الأخيرة اختلال عقل هذا المبدع ،العظيم الذى بدأ السرطان القاتل يزحف على عقله . . لقد سقط البطل واقفا وفي يده القلم ولعل أبرز دليل على هذه المرارة التي عاشها لويس عوض فى سنواته الأخيرة تلك الكلمات الحزينة الجليلة التى بدأ بها سيرته الفذة (أوراق العمر) .

يقول لويس عوض بأسى شفاف صادق ولوعة مرة : (كانت العادة في تلك الأيام البعيدة أن يولد الإنسان وأن يدفن فى بلدة أهله مهما بعد أو طال اغتراب الوالدين وهى عادة لا تزال تحافظ عليها بعض الأسر المصرية المتمسكة بأصولها الريفية ، ولكنها – أيضا – عادة فى طريقها إلى الزوال بسبب كثرة الهجرة وتعقد الحياة المدنية ، فحين مرضت أمى مرض الموت فى ١٩٥٦ نقلها أبي من المنيا إلى شارونه (مركز مغاغة محافظة المنيا) لتموت بين أهلها بعد أسبوع ولتدفن فى مسقط رأسها ، وحين مات أبى فى المنيا عام ١٩٦٢ نقلناه إلى شارونه ليدفن إلى جوار أمى .

وقد ظللت على اعتقادى أن مرقدى المختار سوف يكون فى مصر حتى عشت سنوات تحت حكم السادات ، فلم أعد أعبأ أين يكون مرقدى وكنت أعتقد طول حياتى

أن روحى لن تهدأ إلا إذا أدفن جسدى فى تراب مصر حتى تولى السادات الحكم فطهرنى من هذه الأساطير المصرية .

لن يفهم هذا إلا رجل يحس في أعماقه أن لحمه من تراب مصر معجون بماء النيل ، وعظامه من أحجار المقطم الجيرية أو من صوان أسوان ولست أشك في أن عبد الناصر فعل ببعض المصريين ما فعله السادات بى وبغيرى ، ربما كان فى هذا الكلام نوع من المبالغة البلاغية .

الفصل الثانى

لويس عوض بين .. الديمقراطية والماركسية

تمهيد :

قبل أن نحاول استكشاف وبلورة مدى المكونات وعناصر الفكر الليبرالى والديمقراطى الثورى للناقد والمؤرخ د . لويس عوض ، كذلك التوقف بالتحليل عند المواقف والسلوكيات الحاسمة الشجاعة والمستنيرة التى صاغت وشكلت حياته الفكرية والسياسية فى سياق تحولات وتطورات الحركة الوطنية الديمقراطية المصرية منذ أواخر الأربعينيات وأواسط الخمسينيات وحتى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ فى صعودها وانكسارها فى مرحلتى كل من عبد الناصر والسادات .

قبل كل هذه التحديدات لا أجد مدخلاً يمهد لنا هذا البعد الفكرى السياسى للويس عوض من وصفه الدال لنفسه فى كتابه (يوميات طالب بعثة) .

يقول المعلم العاشر – لويس عوض (لو كنت سلّيت سيف العدل والجهاد ولا أغمده قبل ما أرى بعينى عملاق الظلم مضرجًا على سهول بريتوريا ، لو كنت شيلى ، كنت غنيت مع الصبح ، وملأت الآفاق بأناشيد الخلاص ، لكن أنا ضعيف روحى مكسورة وريشتى هزيلة ودمى مهدور فى خدمة الأحرار) .

ولقد توحد فكر وإبداع (لويس عوض) النقدى والسياسى مع نضال شعبه المصرى وكان أكمل وأشرف تعبير عن التزام المثقف المصرى الوطنى الديمقراطى الثورى بمبادىء الحركة الوطنية منذ صعودها فى الأربعينيات وحتى السبعينيات وما شهدته من تراجعات عن طموحات الثورة الوطنية .

وثمة اتساق ووحدة بين أول كتبه فى الأربعينيات (برومثيوس طليقا) حيث غنى للثورة والحرية مع شاعر الثورة (شيلى) وحتى كتابه الأخير فى التسعينيات والذى كتب فصوله الأخيرة على سرير الموت كتاب (الثورة الفرنسية) . فلويس عوض بين كل من هذين الكتابين هو الشاعر والناقد والمؤرخ الذى يقدس العقل والحرية والعدل والديمقراطية ومجد الإنسان وعن طريقه مجد الله .. وقد صارع ونازل الفكر السلفى الجاهلى واللاعقلانى وحراس التقليد والاتباع ودفع من حريته فى سبيل هذه القيم والمبادئ والمثل وتعرض لعديد من المحن ، الطرد من الجامعة والاضطهاد والاعتقال والتعذيب وظل طوال عمره الفكرى والسياسى مستهدفاً من خفافيش الظلام والجهل وأعداء العقل ولم يكن أبداً من كتاب المؤسسة الرسمية .

لقد كان - لويس عوض - ديمقراطيًا ثوريًا راديكاليًا ذا نزعة اشتراكية تتفق وتختلف عن الماركسية وتصل لأقصى مداها فى الاشتراكية الديمقراطية .. غير أن لويس عوض ناقد ومفكر موسوعى إنسانى استوعب وتأثر بعصر النهضة والفكر التنويرى فى القرن الثامن عشر وقدس مبادئ الهيومانتية (الإنسانية) .

وبرغم اضطراب وعدم استقرار حياة لويس عوض وصدامه مع السلطة الملكية وسلطة ثورة ١٩٥٢ فى صعودها وانكسارها فى عهدى عبد الناصر والسادات فقد أنجز على مدى خمسين عاماً عدة مشروعات نقدية وفكرية وسياسية تشكل إحدى الحلقات المضيئة فى ثقافتنا المعاصرة ، تشمل النقد الأدبى حيث وضع الأساس للتفسير المادى للأدب والنقد وتاريخ الفكر المصرى الحديث والدراسات المقارنة وفقه اللغة وفن المسرح ... والترجمة وقضايا التعليم .. بجانب المغامرة الإبداعية والتجريبية فى الشعر - ديوان بلوتلاند ، والرواية - العنقاء - والمسرح - الراهب ومحاكمة إيزيس وأدب السيرة - وأوراق العمر - ويوميات طالب بعثة ، وقد أحدثت هذه الإنجازات الجسورة صدى ومناقشات ومعارك .. أغنت وأخصبت حياتنا الفكرية والأدبية وكان لويس عوض فى أتون وصخب وطحن هذه المعارك يقف كأبطال المآسى الإغريقية ينازل خصوم الفكر والعقل وعبدة السلف والمقلدين وأهل الاتباع والنقل ليرفع فى كبرياء وشموخ أعلام العقلانية والنقد والتفكير العلمى والتجريب والتقدم والحرية ومجد حرية الإنسان وتمكينه من السيطرة على قوانين الضرورة الطبيعية والاجتماعية .

١ – الفكر السياسى عند لويس عوض :

لم يكن لويس عوض مجرد ناقد أدبى تشغله قضايا وإشكاليات جماليات وتقنيات النص الأدبى والبناء الأسلوبى .. إلخ ، ولم يكن مؤرخاً للفكر المصرى الحديث فى عزلة عن سياق التطور السياسى والاقتصادى والاجتماعى لمصر فى الفترة منذ الحملة الفرنسية فى نهاية القرن الثامن عشر وظهور محمد على وتأسيس مصرالحديثة حتى ثورة ١٩١٩ بقيادة سعد زغلول ولم يكن مجرد أستاذ جامعى معزول عن هموم وقضايا شعبه ، ولم يكن لويس عوض هذا كله بل كان من سلالة النقاد والعظام الذين تجاوزوا نقد النص إلى نقد المجتمع مثل طه حسين والعقاد ومحمد مندور ، كان ناقدا يملك رؤية فلسفية وسياسية تحدد موقفه السياسى من الصراع الاجتماعى فى وطنه ومن قضايا الحرية والاستقلال والتقدم والديمقراطية والاشتراكية .

يقول لويس عوض فى مقدمته الوثائقية للرواية (العنقاء) (كل من عاصرنى صديقاً أو زميلاً أو طالباً فى تلك الفترة البعيدة من حياتى بين ١٩٤٠ عام عودتى من كامبريدج و١٩٤٧ عام صدور ديوانى (بلوتولاند) وكتابة رواية العنقاء) أو تاريخ حسن مفتاح كان يعرف أنى لم أكن مجرد «مدرس» جامعى بالمعنى المألوف ، وإنما «معلما» من ذلك الطراز الذى لايوجد عادة إلا فى عصور الانتقال حيث تسقط الحواجز بين المعرفة والحياة ، وكانت تلهبنى «شهوة لإصلاح العالم إذا جاز لى أن استعير لغة شيلى فى التعبير عن حاله هو فى عصر الثورة الفرنسية ، وكنت دائم التفكير فى عوامل التآكل التى استشرت فى المجتمع المصرى ، لا أقصد التآكل الخلقى وإنما أقصد التآكل الاجتماعى الذى تجلى فى تصدع الفلسفة الديمقراطية الليبرالية التى تبلورت فى دستور ١٩٢٣ ، كان واضحاً عند الكثيرين أن تطور مصر السياسى والاقتصادى والاجتماعى والثقافى خلال العشرين عاما الفاصلة بين الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية قد جعل من نظام الحكم المتمثل (نظرياً) فى دستور ١٩٢٣ هيكلا باليا ينبغى تجديده أو ترميمه على أقل تقدير ، ومنهم من ذهب إلى أن الدستور ثوب فضفاض (الدستوريون والسعديون) ومنهم من ذهب إلى أن الدستور ثوب ضيق (الوفديون) ومنهم من ذهب إلى أن الدستور خرقة مهلهلة ملفقة ، وأن المجتمع المصرى بحاجة إلى أسس جديدة أو إلى عقد اجتماعى جديد (الإخوان والشيوعيون) ، وعلى الجملة فقد كان المجتمع أكثر يسارية ، وقد ظهرت بدايات التفكك

على مستوى القواعد الشعبية ، فى سلامة نظام الحكم الديمقراطى الليبرالى فى مصر منذ أوائل الثلاثينيات حتى انعكست الأزمة العالمية المشهورة (١٩٣٠) فى الاقتصاد المصرى وفى السياسة المصرية) .

ويواصل لويس عوض قائلا (فحين عدت من انجلترا عام ١٩٤٠ كان وجدانى السياسى قد تطور بحيث أمكننى أن أقف موقف المتفهم للفلسفة الماركسية فى مجموعها والمتعاطف مع بعض وجوهها فقد كنت فى يفاعتى أى إلى ١٩٢٩ عام حصولى على شهادة الكفاءة شديد الحماسة للديمقراطية الليبرالية ، وكانت حماستى متمثلة فى الإيمان إيمانا أعمى بدستور ١٩٢٣ الذى كنت أعتقد أن الحفاظ عليه وسيلة مصر الوحيدة لتقييد الملكية وكسر شوكة بطانتها التركية من ناحية ولطرد الإنجليز من ناحية أخرى بقيام حكومة صلبة تعبر عن إرادة الأمة ، وكانت هذه بوجه عام وجهة نظر الوفد ، ولم تكن (الأمة) يومئذ قد تفتت فى نظرى إلى عناصر ومكونات أو طبقات أو مصالح ودرجة درجة بتأثير سلامة موسى على وجه القطع وربما بتأثير الأزمة المالية وتفشى البطالة وتعاقب دكتاتوريات محمد محمود وإسماعيل صدقى ، بدأت أجنح إلى الفكر الاشتراكى بطريقة هلامية ، فلم تعد الحرية عندى شيئا مجردا من غيبيات الحياة بل ارتبطت فى ذهنى بالاستقلال الاقتصادى سواء بالنسبة للأمم أو للطبقات أو للأفراد ، وقد مكنتنى هذه اليقظة الباكرة لمراجعة فكرة الحرية ومبادئ الديمقراطية الليبرالية من أن أكون من أسبق شباب جيلى إلى مقاومة التيارات الفاشية والنازية الوافدة علينا من الحزب فى أوائل الثلاثينيات وفى أواسطها وحين نشبت الحرب الأهلية الأسبانية كنت بوجدانى أكابد مع الجمهوريين الأسبان ، وقد أتيح لى أيام الكلية فى جامعة القاهرة أن أدرس الماركسية ومختلف النظم والمذاهب ودراسة منهجية كمادة من المواد المقررة فى قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب . وقد أحسست يومئذ بالصدع العميق الذى تجلى فى صفوف أساتذتى الإنجليز بسبب الرياح العقائدية التى كانت تجتاح أوروبا كلها فى تلك الأيام ، فقد كان بينهم المحافظون من أمثال الأستاذ أ. فيرنيس والأحرار الليبراليون من أمثال كريستوفر سكيف والاشتراكيون من أمثال برين ديفيز وأوبن هوكواى وجون كراير . وكان أساتذتى لا يخفون هنا انقسامهم فى الرأى ومنهم من كان يسخر من معارضيه أمام التلاميذ وكاووين هولواى يدفع إلى كتب ماركس وانجلز وسوريل ، أما ديفيز فكان يدفع لى بكتب الفابيين ، وذات يوم اختفى من بيتنا جون كراير ثم اتضح بعد أسابيع أنه تطوع فى الحرب الأهلية الأسبانية ليقاتل فى صفوف

الجمهوريين ، وكان سلوكه هذا بمثابة (سكندال) أصابت الجالية الإنجليزية فى مصر كل هذا ألهب عقلى ووجدانى بالظمأ لمعرفة ذلك الصراع الرهيب الذى اجتاح أوروبا وبدأت نذره تظهر فى مصر ولكن تكوينى الليبرالى الأول جعلنى حتى هذا السن أعتنق نوعًا من الفكر السياسى اجتمعت فيه الحرية والعدالة الاجتماعية ، ووجدت هذا المركب فى الفلسفة الاشتراكية الديمقراطية .

وحين سافرت إلى إنجلترا دخلت فى مأزق فكرى جديد أكد فى نفسى الشك فى سلامة الديمقراطية الليبرالية وأكد لى أنها لم تعد إلا واجهة للنظام الرأسمالى فقد اتضح فى أوروبا يومئذ أن الرأسمالية الإنجليزية والفرنسية والأمريكية ساهمت سرا فى بناء الحزب النازى بملايين الجنيهات لتقيم من ألمانيا «حاجزًا صحيًا» يقى غرب أوروبا من الشيوعية ، ووجدت أكثر المثقفين من أبناء جيلى سواء فى جامعة كمبريدج أو فى جامعة لندن أو فى السوربون يتظاهرون تأييدا للجمهوريين الأسبان ويجمعون لهم المال واللبن ، ومنهم من لبس بدلة للقتال ، وكانت خيانات الأحزاب الديمقراطية الاشتراكية فى أوروبا هى التى ألقت بى فى هذا المأزق الفكرى أثناء اقامتى فى الخارج ، فقد كان الديمقراطيون الاشتراكيون فى أوروبا أكثر تفاهما مع ألمانيا النازية منهم مع روسيا الشيوعية ، وهنا قالت نفسى كلا ، أى شىء إلا النازية والفاشية ، حتى الديمقراطية الاشتراكية لا تملك دواء لأوجاع الإنسانية .

هذا هو الدواء الذى تنفسه فى أوروبا مدى ثلاث سنوات فلما عاد إلى القاهرة عام ١٩٤٠ قاده أستاذه هولواى ذات مساء إلى (الاتحاد الديمقراطى) ليستمع إلى محاضرة والتقى هناك بالأخوين كوريل وهو يهودى أسس منظمة شيوعية باسم (الحركة الوطنية المصرية للتحرر الوطنى) .

يقول لويس عوض (كان لقائى بكوريل لقاء فاترا أدركت منه للوهلة الأولى أن ذلك غير ما أريد ... كليشهات .. كليشهات .. كليشهات.. شعارات ، شعارات ، شعارات ، ولكنى التقيت هناك ببعض المثقفين المصريين الذى اكتسبوا احترامى ، فكانوا يتكلمون لغة الماركسيين ، ولكن لغتهم كانت ممزوجة بالفن وكان للإنسان فيها مكان ، وقد ترددت على جماعات ماركسية أخرى وكنت أصطفى من أصطفى وأحتقر من أحتقر وأهمل من أهمل وكان أكثر من خالطتهم من مثقفى اليسار ، حتى من لم أرتبط بهم بغير المعرفة الرسمية يثقون فى لأنى ما كنت أتحدث الماركسية إلا باحترام تام فإن خالفتهم على أسس فلسفية لا مخالفة الزراية والتجريح» .

٢ – خلاف لويس عوض الفكرى والسياسى مع الماركسية :

هناك تفسيرات خاطئة لبعض المؤرخين والكتاب السياسيين عن موقف لويس عوض السياسى وموقفه بالذات من الماركسية ، ولعل أحد الأسباب هو موقف السلطة من لويس عوض سواء فى العهد الملكى أو العهد الجمهورى لثورة يوليو ١٩٥٢ فحينما قام إسماعيل صدقى رئيس الوزراء ورئيس اتحاد الصناعات المصرية وممثل الرأسمالية المصرية التابعة للغرب وأكثر شرائح الرأسمالية وعيًا سياسياً بتناقضها مع العمال والفلاحين ، قام بتوجيه ضربة أمنية وحملة اعتقالات لأكبر عدد من رموز الديمقراطيين والماركسيين بعد اندلاع المظاهرات الطلابية والعمالية التى قادتها لجنة الطلبة والعمال عام ١٩٤٦ ضد فاشية حكومة إسماعيل صدقى والملك والاحتلال الإنجليزى وكان ضمن أسماء المعتقلين لويس عوض الذى كان خارج مصر فى هذا الوقت غير أن المباحث ووزارة الداخلية فتحت له ملفاً وتصنيفه مع الشيوعيين ومنذ هذا التاريخ اعتبرته السلطة شيوعياً وحاسبته فى كل أزمة سياسية مع الشيوعيين فطرد من الجامعة مع أكثر من خمسين أستاذًا ومدرسًا فى أزمة الديمقراطية الشهيرة فى مارس ١٩٥٤ واعتقل مع الشيوعيين فى أوسع حملة اعتقالات عام ١٩٥٩ وعذب وامتهنت كرامته ، وطرد من وظيفته فى الأهرام فى عهد السادات بعد أن انقلب على مشروع عبد الناصر للنهضة عام ١٩٧٣

فثمة خلط فى كواليس الحياة السياسية والثقافية والصحفية وهو اتهام أى رأى معارض للسلطة ولمؤسسات القهر أو الاستعمار والتبعية له إنه شيوعى غير أن لويس عوض رغم قربه وانغماسه فى بؤر الحركات الماركسية وقناعها الثقافى والفنى الممثل فى أندية وجمعيات لم تعرف عنه أنه نظم فى أى تنظيم شيوعى .. غير أنه كان يقظاً كمثقف وناقد تنويرى أن يدرس النظريات السياسية والفلسفية وفى مقدمتها الماركسية غير أنه من واقع الدراسة والاستيعاب له بعض الخلافات والتحفظات على منهجيتها ونظريتها للمعرفة أو الابستوملجى .

يقول لويس عوض في مقدمته التوثيقية لروايته المتميزة والوحيدة (العنقاء) والتى صدرت وجسدت بالصورة والأسطورة والرمز الحياة السرية لتنظيمات الشيوعيين فى الأربعينيات) يقول لويس عوض عن خلافاته الفلسفية والمعرفية مع الماركسية (كنت أعامل الماركسية معاملتى للهيجلية أو للأفلاطونية ، أو للأكوينية ، أى أعاملها معاملتى لمذهب فلسفى ونظام اجتماعى نابع من فكر راق ولايجوز مناقشته إلا على مستوى

الفكر الراقى بل أكثر من هذا كانت فى الماركسية جوانب عديدة وجدتها مقنعة بعد تشذيبها مثل نظريتها القائلة بأن الاقتصاد محرك التاريخ ومثل إصرارها على أهمية المادة فى تكوين الفكر ، وقد أنقذتنى هذه من الخرافة المثالية التى تزعم أن الفكر هو محرك التاريخ وأن المادة ليست إلا ظلاً من ظلال الروح المطلق المستتر وراء الأشياء ، كذلك قبلت من الماركسية بعض أقوالها فى فائض القيمة والتفاتها إلى نظرية الحركة عن طريق النقائض ، ولكننى رغم هذا كنت شديد التحفظ بالنسبة لبعض أركان الماركسية الهامة ، وكنت أجدها لا تجب إجابة كافية على نواميس الوجود الرفض بوصفه خرافة مادية لا تفضل الخرافة المثالية فى قليل أو كثير من هذه التحفظات مثلا (١) إن الدورة الجدلية الهيجلية الماركسية بحاجة إلي مراجعة على ضوء المنطق الصورى الأرسطاطاليسى (٢) أن (أسبقية المادة على الفكرة لا تقل تبسيطاً للأمور عن (أسبقية) الفكرة على المادة فى أى تفسير (كوزمولوجى) (٣) أن (الجبرية) مادية كانت أو تاريخية تتعارض مع معارفنا الفيزيقية عن تجلى الإرادة الحرة فى سلوك الذرة وعن معارفنا النفسية عن تجلى الإرادة الحرة فى سلوك الإنسان فهى إذن بحاجة إلى قانون مكمل (٤) إن الإسراف فى إبراز دور الاقتصاد فى حركة التاريخ رغم أهمية التنبيه إليه قد يعود بنا القهقهرى إلي المادية الميكانيكية التى رفضتها الماركسية نفسها ، (٥) ولعل هذا هو أهم التحفظات من الناحية العملية والإنسانية ، إنه نظرية صراع الطبقات ونظرية صراع الأضداد إذا لم تستكمل داخل إطار أخلاقى أشمل كفيلة بأن تنشر على الكون والحياة رداء مأساوياً ثانياً . كذلك الذى صبغ منذ الأزل يوم هابيل وأنه لا فرق فى النهاية بين فكرة الصراع البروليتارى في ماركس وفكرة الصراع البورجوازى فى داروين حيث بلغة الشاعر تنسون (الطبيعة حمراء الناب والمخلب) وهذا الاعتراض هو موضوع رواية (العنقاء) أو تاريخ حسن مفتاح ، (٦) أن الماركسية على نهايتها علما أو منهجا تحولت تلقائيا إلى (دين) يقوم على المطلقات والغيبيات ، (٧) إن رؤيا) ماركس للإنسانية الشيوعية بعد ذبول الدولة لا تختلف عن رؤيا يوحنا اللاهوتى أو رؤيا فرجيل للعصر الذهبى وغيرها من المدن الفاضلة التى تخيلتها أحلام الفلاسفة والحكماء على حلم ذهبى جميل لا «حتمية» فى تحقيقه جملة أو تفصيلا مهما تمنينا أن تتحقق الأحلام (٨) إن دكتاتورية الطبقة العاملة كأية دكتاتورية مرفوضة شكلا وموضوعاً ، هى تقوم على حلم «لا طبقات» والدكتاتورية لا وجود لها إلا فى نظام

طبقى ، نقول وماذا بقى فى الماركسية بعد هذا ؟ أقول الكثير ولكن هذه الاعتراضات وحدها كفيلة بأن تشغل المفكرين والمثقفين بالبحث الطويل وبالجدل الذى ليس له نهاية .. وهذا ما كنا نفعله . كنا نبحث طويلا ونتجادل بلا نهاية فى أركان المادية الجدلية والجبر التاريخى والطوبى الشيوعية .. إلخ ، وأهم من هذا وذاك كنا نتجادل في نظرية (الصراع) صراع الأضداد الذى نبعث منه نظرية حرب الطبقات ، وكنت فى الجامعة أعلّم طلابى كيف يفكرون فى الماركسية باحترام وكيف يرفضونها باحترام ولم يكن لدى من بديل أعطيه إلا الاشتراكية الديمقراطية لا الديمقراطية الاشتراكية ولكن الاشتراكية الديمقراطية .

ومن أجل هذا الاحترام الذى أشعته بين المثقفين فى تناولهم الماركسية ، ومن أجل دعوتى للفكرة الاشتراكية .. الديمقراطية ، بل ومن أجل بغضى الذى لا يلين للنازية والفاشية وكل الغيبيات السياسية أصبح لى ملف عند البوليس السياسى بوصفى شيوعياً . وربما كان هذا أمراً طبيعيًّا ، ففى تلك الأيام ، لم يكن هناك أى فارق بين الاشتراكية والشيوعية بل وبين الراديكالية والشيوعية ، أنى مذهب فيه دعوة إلي إعادة تنظيم الملكية الفردية أو تقييدها أو المساس بها ، كان فى عهد فاروق تشتم فيه رائحة الشيوعية ، فقد كان هذا هو العهد الذى طرد فيه محمد خطاب من مجلس الشيوخ لمجرد أنه اقترح تحديدُ الملكية الزراعية بمائتى فدان .

كتب لويس عوض هذه الملاحظات النقدية والمنهجية على الأسس الفلسفية والمعرفية للماركسية .. المادية التاريخية والمادية الجدلية فى مقدمته للرواية (العنقاء) وتاريخ حسن مفتاح عام ١٩٦٦ ، ولقد كانت بصيرته نافذة وكأنه يقرأ أزمة الماركسية كفكر ونظام والتى وقعت فى نهاية القرن العشرين حيث انهيار وتفكك الاتحاد السوفيتى ومعظم النظم الشمولية الماركسية فى شرق أوروبا والثورة على ديكتاتورية البلوريتاريا والاتجاه إلى الديمقراطية والتعددية الحزبية .

ويمكن تلخيص تجربة لويس عوض السياسية في مراحل محددة مرحلة التكوين حتى عام ١٩٢٩ وفيها كان مؤمنا بالنظام الليبرالى ومنحازا لحزب الأغلبية وزعمه سعد زغلول وثورة ١٩١٩، ولم تكن (الأمة) يومئذ قد تفتت فى نظره إلى عناصر أو مكونات أو طبقات أو مصالح وبدرجة درجة بتأثير سلامة موسى وربما بتأثير الأزمة المالية وتفشى البطالة وتعاقب دكتاتوريات محمد محمود وإسماعيل صدقى بدأ يجنح إلى الفكر الاشتراكى ، وبتأثير من أساتذته فى كلية الآداب وهم انجليز عرف الماركسية

ودرسها .. واكتشف حياته الديمقراطية الاشتراكية عندما عرف أثناء إقامته فى انجلترا أن الديمقراطيين الاشتراكيين فى أوروبا أكثر تفاهماً مع ألمانيا النازية منهم مع روسيا الشيوعية ولأنه رفض أيضاً جوانب من الماركسية فلم يجد بديلاً إلى اعتناق الاشتراكية الديمقراطية .

هذا هو الموقف السياسى للويس عوض ، وهذا هو فكره السياسى والذى شرحه وجعله منهجا لعدد هام من الكتب السياسية قام بتأليفها .. تشكل مرحلة مضيئة من الفكر السياسى والاجتماعى فى ثقافتنا المعاصرة وهى - أيضاً - استمرار لتراث النقاد العظام فى أدبنا المعاصر الذين اهتموا بالقضايا السياسية وانغمسوا فى النضال الوطنى فى سياق الحركة الوطنية الديمقراطية أمثال طه حسين والعقاد ، ومحمد مندور .. بل إن لويس عوض فى مساهماته فى كل من مرحلتى العهد الملكى والعهد الجمورى لثورة ١٩٥٢ لعله يفوقهم اهتماماً وإنتاجاً وصدقاً فهو لم يتلون ويتكيف مع كل مرحلة بل ظل صلباً لا يلين ودفع الثمن من حريته واستقراره التشريد والطرد من الجامعة والاعتقال والطرد من جريدة الأهرام فى عهد السادات .

ونكتفى هنا بالإشارة الإجمالية لمؤلفات لويس عوض فى الفكر السياسى والاجتماعى حتى نعود إليها فى دراسة مستقلة نناقش ونحلل قيمة هذا الفكر السياسى وموقف لويس عوض من تاريخنا المعاصر وثورة يوليو ١٩٥٢ فى صعودها وانكسارها وانتصاراتها وهزائمها .

١ - دراسات فى النظم والمذاهب : ويشتمل على أبحاث تناولت النظم والمذاهب الاجتماعية والسياسية فى جذورها النظرية الناتجة عن الفكر اليسارى غير الشيوعى أو اليسار الخارج عن إطار الاشتراكية الماركسية ، من عصر ما قبل الثورة الفرنسية إلى يومنا هذا ، وهى تسجيل الصراع التقدمى البورجوازى ضد نوعين من التيارات المناوئة . ذلك الجانب إلى الجمود والتأخر والتسلط والآخر .. الدافع إلى الطفرة والتحكم وإلغاء الحرية .

٢ - لمصر والحرية - مواقف سياسية : مجموعة دراسات ومقالات عن موقف لويس عوض من ثورة يوليو ١٩٥٢ منذ بدايتها والتعاون معها فى صحيفة الجمهورية وصحيفة الثورة ، ثم خلافه معها بعد أزمة ١٩٥٤ حول الديمقراطية وطرده من الجامعة ، وكذلك مقالات عن الميثاق الوطنى والاتحاد الاشتراكى .

٣ – المحاورات الجديدة أو دليل الرجل الذكى إلى الرجعية والتقدمية وغيرهما من المذاهب الفكرية .

٤ – الحرية ونقد الحرية .

٥ – الاشتراكية والأدب .

٦ – الثورة والأدب .

٧ – ثورة الفكر في عصر النهضة الأوروبية ، وهى دراسة عن تاريخ الفكر الأوروبى الحديث فى عصر الرينسانس المعروف بعصر النهضة الأوروبية ، ليبين لنا الارتباط الوثيق بين ثورة الفكر الأوروبى ونشأة الحضارة الغربية الحديثة . وقد بدأ بأعلام الأدب والفن والعلم والاستكشاف فى إيطاليا من ماركوبولو إلى جاليليو .

٨ – أقنعة الناصرية السبعة : وهو تحليل وتقييم موضوعى علمى يرفض الأحكام العاطفية أو الذاتية لنظام عبد الناصر السياسى وإنجازاته الوطنية ومشروعه للنهضة والتحرر والعدالة كذلك تفسير هزائمه وسلبياته .. وقد كان هذا الكتاب أكثر الكتب موضوعية وصدقا في مواجهة الحملة الهستيرية التى قام بها اليمين والإخوان المسلمين وكل أعداء الناصرية كذلك رفض غوغائية دراويش الناصرية ويقول لويس عوض فى مقدمته للكتاب (وفى الصفحات التالية مناقشته لمشكلة الوعى عند توفيق الحكيم ومحمد عودة ومناقشته لكلام ووجهات نظر لمحمد حسنين هيكل فى الناصرية وعبد الناصر وردت فى كتاب (بصراحة عن عبد الناصر « وكان عبارة عن حوار طويل أجراه مع هيكل الكاتب الصحفى اللبنانى فؤاد مطر) .

ولعل أكبر درس في الوطنية والصدق لهذا الكتاب أن لويس عوض ارتفع فوق جراحه وهو يقيم حكم وأسلوب عبد الناصر فلم يتأثر بما حدث له خلال الفترة الناصرية من طرد من الجامعة بعد أزمة الديمقراطية فى مارس ١٩٥٤ ، واعتقاله مع الشيوعيين وتعذيبه عام ١٩٥٩ .. ولم يتاجر بنضاله .. بل أنى ومن خلال صداقتى وقربى من لويس عوض أدركت من حواراتى معه أنه كان يحب عبد الناصر رغم كل عيوبه ويعتبره زعيماً وطنياً ومؤسساً لمصر الحديثة .

٩ – وأخيرا نأتى لمشروعه الفكرى التاريخى المهم والذى لم يتم للأسف لرحيله وهو (تاريخ الفكر المصرى الحديث) وهو فى ٦ مجلدات تؤرخ لتاريخ الفكر المصرى الحديث منذ الحملة الفرنسية وتولى محمد على الحكم عام ١٨٠٥ حتى الثورة الوطنية عام ١٩١٩ ومنهج لويس عوض فى التاريخ للفكر المصرى الحديث يستفيد من المنهج

المادى التاريخى ومن علوم تحليل الأفكار ويعارض بذلك مدرستين حاولت كلا منها التأريخ لمصر الحديثة بنظرة وحيدة الجانب مثل المدرسة الإنجليزية مدرسة الاحتلال الإنجليزى وأبرز رمـوزها لورد كرومر فى كتابه عن مصر الحديثة .. كذلك مدرسة عبد الرحمن الرافعى .. الذى أرخ الحركة الوطنية المصرية من وجهة نظر الحزب الوطنى وزعامته مصطفى كامل ومحمد فريد فتجنى بذلك على ثورة عرابى وثورة ١٩١٩ ولوى عنق الحقائق التاريخية الموضوعية .

أما كتاب لويس عوض الأخير فقد كان تحليلا وتأريخًا مستنيراً لأحداث الثورة الفرنسية ، ودلالتها السياسية والاجتماعية والفكرية فى تمجيد حق الإنسان فى الحرية والإخاء والمساواة واحترام القانون ... ولقد كتب لويس عوض الفصول الأخيرة للكتاب عن دانتون وروبيير وهو فى اللحظات الأخيرة حيث أدى المرض الخبيث لاهتزاز قلمه وقد كانت كلماته الأخيرة دفاعًا نبيلاً ومجيداً عن ضرورة سيادة القانون ودعوة رجل يحتضر الأحياء من بعده إلى الاعتصام به .

دراسات
لنماذج من إبداع
لويس عوض
فى
المسرح والسيرة الذاتية

الفصل الثالث

نبوءة لويس عوض فى محاكمة إيزيس

* اعتقد ومن واقع صداقتى ومعايشتى ومعرفتى وتلمذتى للناقد والفنان الشامخ لويس عوض أن روحه القلقة سوف تهدأ قليلا الآن عندما يرقبنا عبر زجاج الموت البارد ونحن نقرأ أخيراً رؤيته ونبوءته وشهادته عن سر تكوين شخصية وروح مصر التى عشقها بشجاعة بقلبه وعقله وأعطاها عمره وجهده وفكره وإبداعه الخلاق .

* نعم فنشرت «مجلة القاهرة» النص المجهول الأدبى التجريبى (محاكمة إيزيس) وفى ذكراه الثانية يؤكد مدى وفاء وصدق أحد أبرز مفكرينا ونقادنا د . غالى شكرى للعهد والأمانة التى ائتمنه عليها لويس عوض .. حيث أودع لديه النص وأوصاه أكثر من مرة دون ذكر للأسباب والدوافع ، بعدم نشرها إلا بعد وفاته .

* ولقد كنت بحكم قربى من لويس عوض شاهداً على هذه الوصية فى أكثر من لقاء .. ولقد حاولت أن استفسر من د . غالى شكرى عن هوية النص فالتزم الصمت احتراما لوصية أستاذه .

* ولعل محاولتنا واجتهادنا فى قراءة وتحليل وتقييم دلالة ومغزى ومعنى وبناء هذا النص التجريبى الهام الذى تذوب فيه الرواية مع الدراما .. لتكون بنية ملحمية مصغرة يعطينا بعضا من الإجابة والضوء على دوافع رفض لويس عوض لنشره أثناء حياته .

* بجانب ذلك فنشر هذا النص الأدبى يعطى النقد والنقاد فرصة مناقشة جانب مثير وملغز ومحير في تكوين لويس عوض وهو جانب المبدع الخلاق فيه ، ومطاردة وحصار الناقد والمؤرخ والمفكر لهذا المبدع .

* ويقينا فلو قبض للويس عوض ممارسة الإبداع الشعرى والروائى والمسرحى لأحدث منذ سنوات بعيدة ثورة فى مفهوماتنا التقليدية عن الأدب والإبداع .. وأغنانا عن التسكع فى الطرق المستهلكة للإنشاء الأدبى .

* فلقد أثبتت تطورات الإبداع الأدبى صدق وثورية تجاربه الخلاقة الرائدة فى الشعر فى ديوان بلوتولاند والرواية (العنقاء) والمسرح (الراهب) ومذكرات طالب بعثة ، وقصيدته معشوقتى السمراء ومعشوقتى الحمراء .

* إن لويس عوض فى هذه الأعمال كان أبا الحداثة والتجريب والثورة على العروض والبيان ، والواعى بالحساسية الجديدة فى الكتابة الأدبية .. ولقد مهد بذلك لنا الطرق التى مازلنا نواصلها ، وحطم الأوثان وحاكم الأوهام الباطلة فى ثقافتنا ونزع النقاب عن الأنظمة اللاعقلية الموروثة وأيقظ فى قيام قانون يصبح المفكر والفنان هو حقيقته دون تنازل أو تبرير .

* ولقد عبر لويس عوض عن معاناة صراع الشاعر مع الناقد فى مقدمة ديوانه بلوتلاند .. بقوله «هذا مجمل ما فعله لويس عوض وما لم يفعله وهو لم يقصد بنشر هذا الديوان أن يفتح فتحا بل أن يخلق دوامة صغيرة من دوامات الفكر وسط هذا الأسن الأزلى ، وهو يعلم أنه نهب الشعراء على نطاق لم يسبق له مثيل ، فمن أجل هؤلاء قال لويس عوض الشعر وهو ليس بشاعر ، وهو يعد بألا يكرر هذه الغلطة ولو نفى فى بلا الخيال ، ولو أنه أراد الآن أن يقرض الشعر لما استطاع ، فقد انقطع عنه الوحى منذ أن عاد إلى مصر فى الخامسة والعشرين ولو أنه أراد الآن أن يقرض الشعر لما استطاع فقد أجهز عليه كارل ماركس ، ولم يعد يرى من ألوان الحياة الكثيرة ومن ألوان الموت الكثيرة إلا لونا واحدا» .

* وثورات الإبداع والخلق التى تنتاب لويس عوض تحدث فى لحظات أزمات حادة فكرية وحياتية يعانى ويلاتها وهى تعكس وتوازى مراحل انتقال قلقة وحاسمة فى عمر مصر والحركة الوطنية الديمقراطية ولقد كتب (محاكمة إيزيس) ورواية العنقاء ، وديوان بلوتلاند وترجم بروميثوس طليقاً لشيلى فى سنوات القلق والغليان والثورة بين ٤١ و ٤٦ وما أعقبها حتى ٥٢ .

* يقول لويس عوض فى طبعة ديوانه من جديد عام ٨٩ «هذه الأعمال كتبت فى مناخ الدعوة للثورة على جمود العهد البائد وفساده والدعوة لخروج الجديد من القديم

ولهذا فهى وثيقة تاريخية بغض النظر عن صحة مضامينها أو عدم صحتها وبغض النظر عن سلامة أحلامها أو عدم سلامتها ، لأنها تصور مناخ تلك الفترة (١٩٤٥ - ١٩٥٢) المشبع بالثورة والتحدى فى الأدب والفن والفكر الفلسفى والسياسة والاقتصاد والقيم الاجتماعية والأخلاقية .

* وربما كانت قمة المد الثورى التقدمى فى تلك الفترة هى تكوين اللجنة الوطنية للطلبة والعمال فى ١٩٤٦ لإسقاط معاهدة «صدقى وبيفن» معاهدة الأحلاف العسكرية ، وهى فترة تحالف الطليعة الوفدية بقيادة محمد مندور وعزيز فهمى مع اليسار المصرى العريض ضد طغيان الملك فاروق وتحالف الإقطاع والرأسمالية مع الاستعمار ، ولقد كنت أنا شخصياً وسط هذه التيارات المتلاطمة بمثابة المعامل أو المفاعل (الكاتاليست) كما يقول أهل الكيمياء وتمثلت لى الحرية الحمراء راية قانية اللون لكثرة ما ضرج وجه الأرض من دماء شهداء الحرب العالمية الثانية فى سبيل تحرير الشعوب من أغلال النازية والفاشية ، وبلغ اللاتفاهم بين البشر فى مصر مبلغ المأزق الذى لا مخرج منه إلا بطائش الرصاص ، فكان العنف والاغتيالات .

* ولن نفهم القصد والدلالة والرموز وجوها المعنى المختبئ فى إهاب وغموض الميثلوجيا المصرية القديمة وأسطورة أوزوريس وصراع الآلهة وأنصاف الآلهة والأبطال والكهنة والبشر فى نص (محاكمة إيزيس) إلا بتقصى ودراسة الواقع المصرى والعالمى والإنسانى فى هذه المرحلة التاريخية .

* فالكاتب الذى يعى جدل المرحلة التاريخية يخلق صورا حية هى نحت فى مادة متمردة وجموح ، وهى صور بالغة الصعوبة بطبيعة الحال ، ولكنها مع ذلك حقيقية وواقعية لأنها تصور جذوة الحياة التى لم تخمد نارها بعد ، وصدق الصراع ضد الشكل النهائى للعالم ، وصدقها يكمن فى حقيقة أن ما ترسمه بشكل مبالغ فيه إلى حد كبير صحيح من الناحية الجوهرية فى مضمونه الاجتماعى .

* غير أننا وبما سنحاوله من تفسير وتحليل وتأويل النص سوف نكتشف عند لويس عوض ، شمول الرؤية وصدق وعمق وتجاوز الرؤية ومستقبليها بحيث نخاطب المستقبل ونقرأ حاضرنا الآن بكل ما فيه من تدن وتبعية ومهادنة وانهيار .

* لقد شيد - لويس عوض بمهارة واتساق إنشائى فى نص (محاكمة إيزيس) بناء أدبياً مركبا من عنصرين وشكلين أدبيين لكل منهما مفرداته الجمالية ولغته وآلياته

فى الخطاب الأدبى هما الرواية والدراما اختلطا وذابا فى اهاب وبوتقة النسخ الشعرى الكلاسيكى الفخم المثقل بالصور والمجاز والرموز غير أن اللغة كانت قريبة من الفصحى المخففة الساخرة ذات التراكيب العامية .. وأنزل حوار الآلهة من علياء القداسة والجهالة والجهامة إلى لغة العامة من البشر .

* والثابت أن لويس عوض أقام نصه التجريبى على دراسات موسعة للمسرح المصرى القديم وقضية وماهية وجوده واختفائه لعدم تخطيه جدران المعابد وإغراقه فى أسرار الدين ، كذلك درس الميثولوجيا المصرية والأساطير وأسطورة أوزوريس وإيزيس ، واعتمد كثيرا على بلوتارك ، وله دراسات لعل أبرزها دراسته عن المسرح المصرى القديم ومأساة الإنسان بين الفن والدين فى كتابه (دراسات فى أدبنا الحديث) وله تفسيراته وتأويلاته وتخريجاته لجوهر وحقيقة هذا المسرح وقارنه بالمسرح اليونانى وانتهى إلى القول (بأن اليونان فعلوا ما لم يفعله المصريون خرجوا بهذه الأسرار من المعابد والمحاريب إلى الهواء الطلق وحرروا الفن من الدين ، فاستخرجوا من فكرة الإله المعذب فكرة البطل المعذب ، وأنشأوا عليها مسرحا نصفه دين ونصفه دنيا ، ثم أنشأوا مسرحاً فيه من الدنيا أكثر مما فيه من الدين .

* وهذا ما حاوله لويس عوض أن يخرج أسطورة أوزوريس من طقوس المسرح الدينى إلى ساحة وصراعات الحياة المعاصرة ويضعها فى أتون الصراع السياسى الذى كان يغلى فى مصر فى الأربعينيات وليستبصر ويقرأ سمات وملامح روح الشخصية المصرية واتصال عقيدة أوزوريس ... بعقيدة المسيح حيث – وكما سنثبت بالتحليل ... تجلى إيزيس فى صورة مريم وحوريس فى صورة الطفل المخلص ... المسيح .

* لقد كان فى مصر القديمة أسرة من الآلهة كلهم أخوة وأخوات وكان أفراد الأسرة هم الإله ست والإلة تفتيس والإلة أزوريس والإلهة إيزيس أما ست وتفتيس فقد ولدا داخل الزمن وأما أوزوريس وإيزيس والآلهة فقد ولدوا خارج الزمن ، قد نشب الصراع بين ست آله الجدب والعقم والصحراء والشر وأوزوريس إله الزرع والضرع بذرة الحياة فى كل حى ، تمر يده السخية على الوادى الأمين فتنتشر فيه الخضرة كل عام ويملأ حبه الكائنات فتهتز بالأشواق وتملأ الدنيا بالخلف الخصيب . ولقد دبر ست مكيدة الصندوق الشهيرة الذى سجن فيه أوزوريس وألقى به فى النهر ، فطفا الصندوق حتى بلغ البحر الأبيض المتوسط وحملته الأمواج إلى بلدة بيلوس (لبنان)

وفى ببلوس نمت على الشاطئ شجرة أرز كبيرة احتوت الصندوق ... ولقد رأت ملكة ببلوس الجميلة الشجرة فأعجبتها وهى «عشتروت» ، فأمرت بقطع الشجرة وأن يقوم منها عمود ضخم وسط قصرها أو معبدها وعندما استدلت إيزيس على موقع أوزوريس مضت إليه واتخذت صورة النسر وحومت حول العمود لتطوف بجثة زوجها أوزوريس وحدثت المعجزة فقد حملت إيزيس بالروح القدس دون أن يمسسها زوج ، وعادت إيزيس بزوجها فى زورق تحمله الأمواج جثة هامدة فاستقلت عليه إيزيس ونفخت فيه من أنفاسها فردت إليه أنفاسه ، أنها قبلة تجدد فى الميت الحياة .

* وفى مصر اختلت إيزيس بنفسها فى مكان بعيد بين أوراق البردى التى كست مستنقعات الدلتا ، وهناك وضعت الإله الابن والابن المخلص حوريس .

* ولقد خشى إله الشر ست هذا الثالوث المقدس وعثر أخيراً على أوزوريس وفتك به من جديد ومزق جسده وقطعه أربع عشرة قطعة وقذف بكل قطعة منه فى أقليم من أقاليم مصر ... وجدد جسده الممزق تربة الحياة فى كل إقليم .

أما إيزيس فقد اتهمها الإله الشرير ست بخيانة الزوج وزعم أنها حملت حوريس سفاحا ، ودعا الآلهة إلي محاكمتها .

* وعند محاكمة ايزيس .. تتوقف عدسة ومخيلة وبصيرة لويس عوض ليشيد بالواقع والتخيل وبلغة الشعر والدراما والقص مأساة الصراع الأبدى بين الشر والخير الحقيقة والضلال والكذب .. البراءة والنذالة والفتنة ، وعلى عدة مستويات يناقش برؤية نقدية ساخرة الواقع السياسى والاجتماعى والأخلاقى لمصر الأربعينيات ويرمز عبر صراع الآلهة والبشر لصراع الشعب مع الاستعمار والقصر وتشويهات وفساد القضاء ومقاومة المعارضة وشهود الزور ... والمتفرجين السلبيين على الأحداث والشعراء والكتاب ومدى صدقهم ، غير أنه يتجاوز كل ذلك وبرؤية شمولية انسانية رحبة هذه الصراعات الدنيوية إلى قضايا عامة مطلقة يعانى منها البشر حتى الآن في ملهاة ومأساة الحياة .

- ويمزج بين الحقيقى والوهمى ، الأسطورى والتاريخى ... بنفس ملحمى صاخب ومتدفق وهادر .

* ولأن النص المركب الذى شيده وأبدعه لويس عوض يرى أن هذه الفترة تعود إلى ماض بعيد .. بل ماض خارج الزمن وأنها نظام إنسانى تلاشى كما تراها من

حيث الضرورة التراجيدية لإنهيارها ، ولهذا السبب فإن الضرورة هى أقل صراحة ومباشرة إلى حد كبير وشئ أكثر تعقيدا مما فى الملاحم القديمة ، وهنا يتفاعل النظام القديم مع التكوينات الاجتماعية الأخرى الأكثر تقدما ، والأهداف الملحمية العامة قد تبقى ، إلا أنها سبق أن اتخذت طابعاً محليا أو خاصا ضمن إجمالى صورة المجتمع .. وهكذا خسرت طابعها الملحمى الصرف ، وفى ضوء ذلك مزج لويس عوض الرواية بالدراما بالشعر الملحمى .

* وتعقد المحكمة برئاسة (رع) كبير الآلهة وعضوية (تحت) و (آمون) ويتقدم (ست) بإدعائه قائلا فى حقد «أنا ست الرهيب إله الصحراء قاتل أوزوريس إله الخصب : أعلن بأعلى صوتى أن الربة الجميلة ايزيس قد حملت سفاحا وخانت زوجها وأخاها أوزوريس وأدعت أن حوريس ابنه ... فألحقت العار الأبدى بنفسها وبأسرتنا الكريمة وأطلب نزع الحجاب منها وإعلان عارها فى جميع الأمصار ، كذلك أطلب أبطال هذه البدعة الجديدة التى ظهرت بين نساء الوادى وهى لبس الحجاب اقتداء بايزيس ذات الحجاب .. أنا (ست) أقرر أن الطفل الإلهى حوريس ابن سفاح وأنه ليس من أبناء الآلهة ، ولا من أبناء العمالقة بل هو ابن بشرى وضيع يصنع التوابيت والصناديق فى (طيبة) .

* ويتقدم للشهادة شهادة الإثبات (ملكات) جامع الذهب و(عشتروت) خلية الآلهة ، وكل منهما له مصالح مع ست وأطماع فى مصر (ملكارت) يطمع فى ذهب صحراء مصر الذى يسيطر عليه (ست) إله الصحراء و(عشتروت) وقعت فى حب أوزوريس وكلاهما يشهدان زورا على صدق ادعاءات ست ويؤكدان التهمة على ايزيس ، أما الشاهد الثالث فهو الإله (من) رب التناسل لا يجتمع ذكر بأنثى من الإنسان والحيوان الا يعلمه ، وشهادته محيرة فهو لا يثبت التهمة ولا ينفيها ، غير أن يعلن عدم تصديقه بأن تحمل ايزيس وهى عذراء ويشهد (حابى) إله النيل بأن الصندوق سبح على النهر حتى وصل إلى شط ابيدو ولقد خفت إليه إيزيس ونقلت الشجرة إلى معبدها الأزهر تحت بصر الآلهة والبشر وأقامت منها عمودا فى وسط المعبد تحج إليه كلما هزتها الأشواق ورمزا للخصب تحج إليه الذارى وتتبرك به .

وعندما يوجه (رع) إلى ايزيس هذه الاتهامات تكتفى بالرد ... أنا كل ما كان وكل ما هو كائن ، وكل ما سيكون .. أن الحقيقة وتعلن فى حسم .. أقسم بالطفل الإلهى حوريس .. المخلص المنتظر المولود خارج الزمن ... أقسم بالطفل الالهى الذى ورد فى ألواح تحت الأزلية أنه سينهض فى نهاية الزمن ويثأر لأبيه المقتول من قاتله .

غير أن (رع) كبير الآلهة يقع فى إغراء وفتنة (عشتروت) ويقف موقف القاضى المتحيز ضد ايزيس ويعلق الحكم على تقرير الطبيب الشرعى ... ويكتفى الشاعر بنتاؤر بالصمت والبكاء على المهانة التى تتعرض لها إيزيس .

* أما محامى ايزيس فهو الإله (بتاح) فهو يتحدث (قولى أن كل ما سمعتم من تهم ملفق وكل ما سمعتم من شهادات زور فى زور ، قولى أن صندوق الفقيد أوزوريس لم يصل إلى بيلوس ، بل وصل إلى أبيدوس قولى أن الشجرة التى تنبت حوله لم تنبت فى ببلوس بل نبتت فى (أبيدوس) قولى أن حكاية النسر صحيحة وأن مولاتى إيزيس ذات الحجاب نقلت الشجرة من شاطئ أبيدوس إلى معبدها بأبيدوس وهناك لبست أجنحة النسر ورفرفت حول العمود المقدس فحملت السيد حوريس بالروح وحين جاءتها آلام المخاض خافت على ولدها فتك الآلهة ست الواقف بالمرصاد ففزعت إلى دولة مولاى تحت ووضعت الطفل الإلهى بين مستنقعات البردى ... قولى إن كل كلمة قالتها مولاتى إيزيس صادقة .

ويؤكد دفاع (بتاح) شهادة حابى وحتحور .

وتتهاوى دعاوى عشتروت وملكارت ويتضح كذب شهادتهما وأطماعهما فى مصر .

أن بتاح يكشف المؤامرة ، مؤامرة الفينيقيين ويعلن « من يملك الخمور : الفينيقيون .. من يزرع القصب : المصريون .. الزيت الصابون ... السفن نعم السفن .. الأساطيل وسائل النقل .... بيوت الدعارة كل ذلك يملكه الفينيقيون المولون .. والصناعة .. والأسواق السماسرة المغنيات الممثلات من فنيقيا ... حتى الأم أوزوريس المتجددة يتاجر بها الفينيقيون ... ابقيت لنا صناعة قومية ؟ نعم بقيت لنا صناعة الدموع .. والآن بعد أن ملكوا كل شئ ... لم يبق أمامهم إلا السياسة .. أن بلاط الملك من الفينيقيين لقد دخلوا مجالس الجيش ... أنهم يتمصرون كل عام بالآلاف لينتشروا فى الدواوين ...» .

* ويصل تقرير الطبيب الشرعى ويدعى رع أنه ورقة بيضاء ويبتلع الورقة .... غير أن (تحت) كان قد قرأ الورقة وعلم ما فيها أن الأم عذراء ... ويعلن (بتاح) ذو الدرع المضئ عن رغبته فى قتل (رع) بعد أن يتشاور مع (تحت) وأمون ... وهنا رأى الثلاثة الطفل الإلهى يرفع رأسه من صدر أمه فيحيط برأسه هالة من نور ويقول (أنا كل ما كان كل ما هو كائن وكل ما سيكون أنا الحقيقة ... وذهل الآلهة الثلاثة ... كانت هذه أول مرة يرون فيها طفلا يتكلم ، ولكنهم علموا أن سر الأم العذراء قد انتقل إلى

طفلها الإلهى ، فصدعوا بالأمر وانصرفوا راجمين ولم يلتفتوا إلى إيزيس الطريحة مرة واحدة فقد علموا أنها في حمى حوريس المخلص وحين بلغوا أعمدة القاعة قال (تحت هيا تصرف ... لقد ظهر المخلص وتحققت النبوءة لقد جاء فى الكتاب الجديد ... «عندما يأتى آخر الزمن ... سوف ينهض المخلص فينتقم لأبيه من قاتله ويخلص مصر عن مكره وشروره .

قال (بتاح) لقد أفلت شمس مصر أما هذا الملك الخائن فلن تمتلئ جعبته بسهامى مرة أخرى .. لقد باع دولتنا بجسد أمرأة .

* وحين أطل رع على العالمين من كبد السماء ليحرقهم بشمس الظهيرة ، بدأ وجهه شاحبا باردا ... ومد يده إلى جعبته فلم يجد فيها سهاما ولم يرشق بسهامه أحدا . وأراد أن يزهو بقوته ولكنه ظل شاحبا باردا كأنه قرص من الصفيح وفهم (رع) أن (بتاح) غاضب وعلم أنه لن يضع فى جعبته سهاما بعد ذلك فندم على قوته الضائعة وخجل من نفسه قليلا ثم نظر إلى الغرب طويلا وألهب جياده الستة البيضاء فركضت تطلب الأفق بسرعة المشتاق ليرخى المساء سدوله ويزيح (رع) كهولته المتعبة على صدر (عشتروت) وهكذا أدرك الشفق الآلهة .

* تلك كانت نبوءة لويس عوض بعيدة البصيرة عن مستقبل الصراع الذى كان يدور فى الأربعينيات فى مصر بين الشعب والاستعمار والقصر جسدها لويس عوض بالصورة والرمز واستقصاء واستخدام أسطورة إيزيس الغائرة فى وجدان الشعب المصرى .. ولقد أسقط لحد ما التفسير المسيحى على رموز الأسطورة فى أخذه بالثالوث المقدس إيزيس وأوزوريس وحوريس . وجسد تجلى إيزيس فى مريم العذراء والمخلص حوريس الذى يتكلم فى المهد .

* وربما كان هذا التفسير هو ما جعل لويس عوض يتردد فى نشر هذا النص الهام لا سيما بعد الحملة السلفية المتخلفة التى قامت ضده دائما كلما حاول أن يدلى برأيه عن سر تجدد الشخصية المصرية وميلادها من جديد وتفسير جوهرها الحضارى .. غير أننا بعدم نشرها محاولة ابداعية تجريبية جديدة كان يمكن أن تضع ابداعنا فى طريق الابتكار والأصالة فى خلق أدب جديد مستلهم من تراثنا العريق .

* ولقد نفذ أبناؤه ونشروا هذا النص ليثبتوا له أن أسهامه الفكرى والإبداعى لم يزل درسا لنا فى التنوير والخلق المتجدد بتجدد هموم واقعنا .

الفصل الرابع

مذكرات طالب بعثة وبلاغة السرد بالعامية المصرية

لن نستطيع تقييم وتأويل وفهم وإدراك جسارة التجربة والمغامرة الإبداعية فى الكتابة والإنشاء بالعامية المصرية والمغرقة فى عاميتها فى كتاب لويس عوض المثير للدهشة والعقل (مذكرات طالب بعثة ..) كذلك فى بعض إبداعه الشعرى التجريبى الموزع بين بعض قصائد ديوان (بلوتلاند) وقصيدتى - معشوقتى السمراء ومعشوقتى الحمراء .. إلا بمناقشة عدة قضايا إشكالية متداخلة فى بناء وتكوين لويس عوض العقلانى والوجدانى والذى تجلى عبر مسيرته الإبداعية القلقة فى صراع وتوتر الناقد وأستاذ الأدب مع الفنان والشاعر بالذات .

قال لى - لويس عوض فى حوار طويل نشر بمجلة الطليعة اليسارية الصادرة عن الأهرام عام ١٩٧٤

« اعتقد أن الروح والمادة وجهان لنفس الشئ .. وأن الزمان والمكان وجهان لنفس الشئ ، فالحقيقة أن الحياة فى تجربة وحدة الوجود هى فى ذاتها مجازفة كبرى ، وأنا شخصيا وصلت إليها عن طريق التفلسف المبنى على الاستقراء المادى ولكنى للأسف غير قادر عليها كلحظة وجد صوفيه فاكتفى بأن أعيش فيها بالخيال والخيال وحده غير كاف ، لأنها فى الواقع تجربة لها نوعية صوفية مدمرة .. أن توجد فى لحظة التقاء الزمان والمكان والأبد والأزل والفعل والسكون .

هذه أزمة روحية لا يحسد عليها إلا الصوفيون وللأسف أيضا أن أكثر الصوفيين يحدد أمكانتهم الصوفية بانتمائهم إلى معتقدات مسبقة أو خرافات مسبقة (يقينية) هذه اللحظة النادرة فادحة الثمن وأنا أخاف منها .. لقد عشتها بكل ويلاتها وعذوبتها

فى منحنيات حادة من حياتى . ولم أتخلص من سطوتها وكثافة مشاعرها ودوامة توتراتها إلا بممارسة عملية الخلق لأصل لنوع من التعادل مفتقد مع الحياة فأنا لم أكتب – بلوتلاند – العنقاء – الراهب – محاكمة إيزيس وغيرها من أعمال لم تنشر إلا فى لحظة التوهج هذه ، وطبعا لست مستعداً فى هذا الحوار أن .. أتحدث عن أزمات المراحل السياسية والاجتماعية والصدامات التى جذبتنى إليها واقعنا السياسى قبل وبعد ١٩٥٢ فأنت تستطيع أن تعود لكثير مما اكتبه من مقدمات لهذه الأعمال أو فيما كتبته عن محمد مندور والعقاد وطه حسين فقد حاولت على قدر الإمكان أن أضئ خلفيات الأجواء الفكرية والسياسية التى كانت هذه الأعمال الفنية القليلة التي كتبتها استجابة لها وترجمة لفترات خصبة وصعبة وموحية من حياتى غير أنى أحتفظ حتى الآن بالكثير مما لم أقله ولم أكتبه » .

الإشكالية الثانية ... أن لويس عوض ظل طوال عمره كباحث وناقد ومبدع فى صراع مع اللغة واللغة العربية بالذات ..

فقد بدأ حياته الجامعية بالبحث فى تقاليد التعبير الشعرى فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى أى رسالته سوف تكون حول لغة الشعر .

ولقد أنهى حياته بكتاب (مقدمة فى فقه اللغة العربية) عام ١٩٨٠ الذى صودر دون حكم قضائى بايعاز من الأزهر وجر عليه زوابع السلفيين وكهنة اللغة والموروث لأنه تجرأ على قداسة اللغة العربية وحاول أن يكشف من أصولها وفقهها ويبحث فى تاريخها السيسيولوجى والفونيطيقى ويضعها فى سياق التحول التاريخى ... وينظر لها نظرة لغوية مقارنة رحبة وربما نجد له بحوث عديدة فى هذا المجال لعل أبرازها مقالاته اللغة ومدارس التعبير والترجمة وتطور التعبير العربى وثورة اللغة فى كتابه (ثقافتنا فى مفترق الطرق) وهو يرى فى نهاية مقالاته (ثورة اللغة) .. أن (اللغة العربية قد تغيرت بنيتها تغييرا أساسيا فى القرنين الأخيرين بتأثير الاتصال الثقافى بين العالم العربى والحضارة الأوربية .. تغيرت ليس فقط من حيث استيعاب الآلاف المؤلفة من الألفاظ الأجنبية والآلاف المؤلفة من الألفاظ العربية المستحدثة الدالة على معان لا وجود لها فى الفصحى ، ولكن أيضا من حيث التركيب النحوى للجملة – العرب لم تكن تتحدث عن (بنية) اللغة ولا عن التغير (الأساسى) ولا عن (الاتصال الثقافى) والعرب لم تكن تقول (الألفاظ الأجنبية) وإنما كانت تقول (الأعجمية)

فكل هذه أصلا تعبيرات داخلة على اللغة العربية ولكنها أصبحت اليوم تكون نسيج اللغة العربية كما نجده فى الكتب وفى الصحف وعلى (أمواج الأثير) هذه التى حاول ابن الأثير أن يتصور لها معنى معروفا عند العرب لما استطاع ... لقد آن الأوان أن يكتب الجواليقى الجديد (المعرب) وأن يكتب الخفاجى الجديد (الدخيل) لنعرف ماذا أبقينا وماذا بقى لنا من لغة العرب ولست أحسب أن اللغة العربية فريدة بين اللغات فى الثورة اللغوية وفى هذا التجدد الشامل ، فمن يقرأ انجليزية شكسبير وفرنسية رونساريدرك أن العصر غير العصر واللغة غير اللغة ، د. راشد البراوى (رأس المال) لكارل ماركس ونشرت فيها (بروميثيوس طليقًا) للشاعر شيلى وكتب فيها رواية (العنفاء) ونشرت لى مجلة « الكاتب المصرى » فصول كتابى « فى الأدب الإنجليزى الحديث » وهى فترة مذبحة كوبرى عباس الثانية والفترة (١٩٤٦) التى فتح فيها جيش الاحتلال البريطانى النار على المواطنين المتظاهرين فى ميدان الإسماعيلية (التحرير حاليا) من ثكنات قصر النيل (هيلتون النيل) ومبنى الجامعة العربية حاليا) .

وهى فترة تحالف الطليعة الوفدية بقيادة محمد مندور وعزيز فهمى مع اليسار المصرى العريض ضد طغيان الملك فاروق وتحالف الإقطاع والرأسمالية مع الاستعمار وقد كنت أنا شخصيا وسط هذه التيارات المتلاطمة بمثابة المعامل أو المفاعل (الكاتاليست) كما يقول أهل الكيمياء ، وتمثلت لى الحرية الحمراء راية قانية اللون لكثرة ما خرج وجه الأرض من دماء شهداء الحروب العالمية الثانية فى سبيل تحرير الشعوب من أغلال النازية والفاشية ، وبلغ اللا تفاهم بين البشر فى مصر مبلغ المأزق الذى لا مخرج منه إلا بطائش الرصاص فكان اغتيال رئيس الوزراء أحمد ماهر باشا واغتيال صديق الإنجليز أمين عثمان باشا واغتيال رئيس الوزراء النقراشى باشا ، واغتيال سليم زكى باشا حكمدار القاهرة واغتيال المستشار الخازندار ومحاولات اغتيال زعيم الأمة مصطفى النحاس باشا وكانت انفجارات قنابل سينما مترو ثم أعمال الفدائيين المصريين ضد جيش الاحتلال فى منطقة القنال وفى الخلفية كان هناك نزيف ملحمة فلسطين) .

الإشكالية الرابعة ... تتعلق بقضية الفصحى والعامية واضطهاد وقمع المتعصبين للفصحى ، وأصحاب نظرية النقاء اللغوى للتعبير بالعامية .

لقد انتهى لويس عوض عقب عودته من كامبريدج فى سبتمبر ١٩٤٠ وبعد كثير من التفكير فى مشكلة اللغة والتعبير الأدبى شعرا ونثرا أو ما يسمى عادة بمشكلة العامية والفصحى انتهى قبل ذلك بسنوات إلى امكانية قيام شعر بالعامية يتجاوز تجاوزا شرعيا مع أدب الفصحى دون أن يوجد بالضرورة أى تعارض بينها وأجرى بالفعل بعض التجارب فى هذا الاتجاه بين ١٩٣٧ و ١٩٤٠ ظلت تتداول بين المثقفين فى جامعة القاهرة وخارج جامعة القاهرة منسوخة على الآلة الكاتبة حتى نشرها عام ١٩٤٧ فى ديوان « بلوتلاند » والحق أنه لم يكن فى كلامه جديد إلا الطريقة التى عبر بها عن آرائه هذا ما كان من أمر الشعر العربى ، أما النثر العربى فلم تظهر له مشكلة فى تاريخ أدبنا الا حينما تصدينا لكتابة حوار المسرح (باريز) ١٨٣٤ الذى وصف فيه إقامته فى باريس بين ١٨٢٧ ، ١٨٣٠ وسجل انطباعاته عن الحضارة الفرنسية فى جيله ، ثم تلاه – أحمد فارس الشدياق فى (الساق على الساق) ١٨٥٢ وفى كتابه (الواسطة إلى معرفة مالطة) ١٨٥٤ وفى كتاب (اكتشف المخبأ فى فنون أوروبا) ١٨٥٤وغير ذلك من أدب الرحلات والمذكرات حتى ظهور (الأيام) لطه حسين فى العشرينات من هذا القرن ، ومذكرات مبارك عن فترة إقامته فى باريس ، وقد ظهرت فى الثلاثينات من هذا القرن ، مذكرات توفيق الحكيم العديدة التى صدرت فى الثلاثينات والأربعينات ولا فرق فى المنهج بين هذه المدونات العظيمة سوى أن بعض أصحابها كتبوا عن أشخاصهم أكثر مما كتبوا عن مشاهداتهم ، أما بعضهم الآخر فقد كتبوا عن مشاهداتهم أكثر مما كتبوا عن أشخاصهم وقد أوحت إلى كل هذه الأعمال أن أتاثر خطى هؤلاء الرواد فلنقل صورة أوربا وحضارتها فى وجدان شاب مصرى زارها بين ١٩٣٧ ، ١٩٤٠ ولكن مستخدما تجربة بيرم التونسى فى استكشاف امكانيات اللغة العامية ، فعلت ذلك فى ١٩٤٢ قبل أن تزول من ذاكرتى الانطباعات العديدة التى تركتها رحلتى الأوربية فى حياتى ووجدانى ، وقد راعيت أن أبدأ وصف تجربتى منذ أول يوم غادرت فيه مصر حتى يوم عودتى إليها وقد عدت إلى مصر بعد نشوب الحرب العالمية الثانية بنحو عام ، وكان ممر جبل طارق مغلقا يومئذ بسبب ظروف الحرب ومن هنا أتيح لى أن أعود عن طريق رأس الرجاء الصالح فانتفعت من هذه التجربة ايما انتفاع) .

يبدأ كتاب (مذكرات طالب بعثة) بهذه المقطع الساخر وبلغة غارقة فى العامية – ببلاغتها وصورها وتلويناتها اللفظية الدارجة .

« ..... رحت قاعد لك على كرسى الاعتراف وحطيت قدامى طقطوقة أرو قديم، بوهيتها راحت ومعصفة حبر – روحى تملى وإيدى تكتب مافيش تصحيح ولا تنقيح ولا تردد ولا كسوف ... اشمعنى والترسكوت كان بيكتب والمطبعجية بيصفوا ؟ .

اشمعنى بلزاك كان بيكتب تمنتاشر ساعة على القهوة السوداء ؟ رحت يافندم حاطط لك دبابيس فى كرسى الاعتراف عشان روحى ما تعسلش من التعب واشتريت لك كام رطل بن محمص أقرش فيهم طول الوقت عشان جسمى يبقى دينامو مش ناقص لا جاز ولا تشحيم .

قعدت على كرسى الاعتراف وابتديت أكتب وادى اللى كتبته » .

فى الفصل الأول بعنوان (الحر ومكتب البعثات) يصف لويس عوض وصوله إلى القاهرة قادما من المنيا .. فى أغسطس ١٩٣٧ .. مجملا بالآمال العريضة فى غزو أوربا للحصول على المعرفة والحضارة فى لندن ويصف بإسهاب رحلة القطار المهلكة والمناظر الريفية ومدى الفقر للقرى المترامية وأكداس الصعايدة الفقراء وشمس مصر وراء جبل المقطم والتى عبدها الأجداد وكمية التراب التى بلعها طوال الطريق .. كانت هذه آخر مرة يرى فيها الطبيعة المصرية . ويبلغ الوصف الشاعرى مداه فى هذا الجزء، وفى القاهرة يعانى العذاب من الروتين الحكومى وبلادة الموظفين والكتبة (رحت الوزارة) .. (روح الكومسيون احنا خلاص بعتنا ورقك) .

رحت الكومسيون « ماتفرقش » الوزارة الكومسيون .. الوزارة .. نهايته كشفت ونجحت .

فى هذه الأثناء يلتقى بموظف كبير فى إدارة البعثات هو كاتب المسرح الرائد إبراهيم رمزى يحاول أن يغريه ببعثة الوزارة .. غير أن لويس يرفض ويتمسك ببعثة الجامعة .. التى تأخر ورقها وموافقاتها وينتهى كل مرة أن يكتب تنازل عن بعثة الوزارة .

وأخيرا يصل الورق من الجامعة فى أكتوبر ويستعد لويس عوض للسفر ويأخذ القطار للاسكندرية ويلحق بباخرة (الكوثر) بلا أى مودع وهذا دليل على مدى صلابته لويس عوض فى بداية شبابه .

وفى عرض البحر يقدم – لويس عوض كل شئ مثير عن مناظر البحر وتقلباته ولا نهائية السماء والتقاليد المتبعة على سطح الباخرة تقاليد الأكل والشرب والسمر

والصحبة ، ويدمج ويسترجع قراءاته في الأساطير بوصفه المكثف المعبر الشاعرى (أنا مش فاكر حاجة أبدا عن ليالى البحر الأبيض المتوسط مش فاكر إذا كانت مقمرة ولا سودة .. مش فاكر شكل النجوم فى السما وفى الميه وفى خيالى اللى بيلون كل حاجة – لكن فاكر الريح التى قامت واحنا فى بوغاز مينا واستشاطت الأمواج فى ليلة من الليالى .. ودخلنا سالمين والبحر رجع حصيرة .. شفت أننا اللى امبازوقليس وقف عليه بعد ما البشر نبذوه فى المنفى وشاور بعصايته السحرية لرياح المضيق فهاجت ولسه من يومها هايجة ، واضطربت العناصر الأربعة ومن جوف البركان ارتفع لسان من النار اتلقف البنى القديم ، قريت أغنية كاليكليس عشر مرات فى ديوان ما تبوا أرنولد وعينه حايره بين الكتاب وجبل النار . لحد ما غاب الجبل بسحابه ويضبابه ورا الهواء الثقيل .. ابتديت الكتب اللى كنت قريتها فى الخمس سنين الأخيرة يبقى لها معنى فى قلبى لأن السما راح صفوها والبحر اتطفا زى الرخام والهوا رطب جبينى – لو كنت فاكر القصيدة اللى كتبها كريستوفر سكيف على اننا جيل الموت كنت نقلتها هنا ، الفاتحة على روح انباذوقليس النبى الشهيد قبل ارميا واشعيا وعيسى الأمين » .

وكان فى صحبته على ظهر السفينة من الطلاب المصريين على عيسى المدرس بالمدارس الثانوية ومدام عيسى وعباس عمار مدرس الجغرافيا بكلية الآداب وقدرى مدرس علم النفس بمعهد التربية والآنسة زينب شعراوى مدرسة التربية .

وتصل السفينة (جنوة) يتحول فى مقبرة جنوا ويصف فخامتها الأسطورية من تماثيل جميلة وجناين متحدرة ولكن (البلد عادية وමليانة حتت وسخة وحوارى ضيقة وبنى آدمين بـ منتهى القذارة ، ويصف أيضاً مستوى الجمال لبغايا جنوة وكثرتهم) .

بعد ذلك تصل السفينة مارسيليا – فنجدها (بلد وسخة خالص من برة منظرها من البحر مش ولابد وتقدر تستنتج أن إسكندرية أجمل مينا أنا شفتها فى البحر الأبيض المتوسط) .

ثم استقل القطر الأزرق متجها إلى باريس ، وبعد نصف يوم سفر عانى فيها الملل والضجر نام الجميع حتى وصلوا باريس وهناك التقوا ببعض المصريين أبرزهم (محمد مندور – بتاع أدب فى السربون) ولسوف تنشأ صداقة حميمة وتاريخية بين لويس عوض ومحمد مندور تكون وثيقة مضيئة من تاريخنا الأدبى المعاصر لقد جرب محمد مندور اهتمام وإعجاب لويس عوض بسعة معلوماته وثقافته وخبراته

بمعالم باريس وأصبح دليله ومرشده فى خباياها كلما ذهب إلى باريس فى إجازاته .. ووجد نفسه فى الحى اللاتينى فجأة (كل حاجة عادية برضه ناس لابسين برانيط وشوارع وبنايات لكن الفكرة آه الفكرة – وتعمل ايه فى الفكرة مجرد الفكرة انى فى الحى اللاتينى اللى اتشرد فيه كل ادباء مصر خلتنى ارتعش .. امتى يا ربى اتشرد فى الحى ده زى زكى مبارك والصاوى وتوفيق الحكيم امتى يا ربى اتشرد وأكتب زى ماكتبوا) .

وفى ومضة مضيئة حية يصف لويس عوض شخصية (محمد مندور) « قعدت أتأمل فى مندور دا لاقيته شاب طويل فى اعتدال مليان أسمرانى شعره اسود قوى زى شعر الهنود طويل .. قوى ، قوى زى شعر الارتيستات ومناخيره واضحة ف وشه ، أما ملامحه كلها فتدل على إنه من أصل رومانى مافيش شك ما فهوش مصرى غير سماره – تمثال مترهل شوية ، عينيه كبيرة ومحفورة يقول محفورة مش غايرة .. طول الوقت يعلق وينكت نكت عقلية غير مألوفة نكت زى اللى بنقراها فى الكتب نكت ما تضحكش قوى انما تشعرك أن قدامك مخ شديد الالتفات وكان كل ما ينكت يضحك بشويش أو يبتسم . وفى ركن شفايفه التواء والتهكم واضح واللى بتقوله شفايفه بتقوله عينيه وأحيانا يتهيأ لك إنه بيتهكم بيك » .

وقادهم محمد مندور فى جولة إلى مبنى السربون وعرفهم بكلياته ومبنى الانفتياتر – انفتاياتر فولتير والوليج دى فرانس اليانتيون ، وتياترو سارة برنارو الثانلية وكاتدرائية نوتردام ، ومندور بيشرح (كل كنيسة مبنية على هندسة صليب من جوه فيه ثلاثة صلبان .. صليب فرعونى دا مالوش راس وصليب جرجس ودا أضلاعه متساوية وصليب لاتينى ودا راسه أكبر من جسمه » .

ثم استقل مركب عبرت به المانش إلى ساحل دوفر بانجلترا (اركب المانش نوبة وشوف بنفسك .. شوف ازاى الطبيعة تعنها مختلفة بين كاليه ودوفر مرة واحدة تلاقى السما اتملت غيوم والبحر الأزرق الفاتح بقى لونه زى القصدير شوف ازاى الريح نفسها مجراها وسرعتها ووزنها الموجه تتنفس زيدا غير ذى القصة المطفية شوف السهل يضحك ورا ظهرك بالسنا السابع والدفء العميم والصخر قدامك ينطح أجواز السما الغامضة ووقفت أنا وهتلر وماثيوا رنولد وبولس تلميذ المسيح قدام صخور دوفر وصحنا .

فاتصدعت الصخور وأجابت زى الملك لير لكن فى تهكم لما وصلنا المينا وقعت فى بوز المركب وافتكرت كلام ادجار لدوق جلوسترف رواية الملك لير .

كل ده شعر عظيم من الدرجة الأولى ولكن شعر بس ، ماتيو ارنولد كتب قصيدة عن شاطئ دوفر « شبه الشاطئ فيها بحصى الحياة المكشوفة .. هى دى الجملة اللى أنا بدور عليها » .

واستقل لويس عوض قطر السهم الذهبى بين دوفر ولندن وانطلق وسط الريف الإنجليزى .. وتأمل الركاب وكلهم مستغرقين فى صمت أو فى قراءة الجرائد .

ويبدى لويس عوض عدة ملاحظات ذكية عن طبيعة ومكونات الطبقة المتوسطة الإنجليزية وتحفظها وحذرها من الغريب ونفعيتها فى حين يرى الطبقة العاملة صريحة وتلقائية فى تصرفاتها وأحاديثها ويستغرق فى وصف أحياء لندن ومعالمها ومبنى البرلمان ونهر التيمس وعبقرية الترام الذى يسير تحت الأرض وبارات ومقاهى لندن ذات الطابع الخاص .

« أنا كنت دائما أقول للناس اللى بيسألونى عن لندن أن أهم حاجة فيها الاندر جراوند ... أهم يمكن من المتحف البريطانى وبالتأكيد أهم من البرلمان الإنجليزى أو من كاتدرائية سانت بول .. وأهم حاجة فى الاندرجراوند هى الاسكاليتور . الاسكاليتور دار يطلع السلم الميكانيكى » .

وبعد عدة إجراءات ينتسب لويس عوض فى سلك طلبة كامبريدج ويعانى من إجراءات السكن حيث يكتشف أن الحى الذى سكن فيه مستعمرة الستات البطالين . ويقرر أن يغير السكن .

ويصف لويس عوض أبهاء وعظمة المتحف البريطانى أكبر مكتبات العالم (هنا كارل ماركس كان بييجى يلتمس الدفء لأنه كان بلا مأوى وهنا سطر الإنجيل الجديد وسماه « رأس المال » هنا درس د . جونسون العظيم بعد قرنين من الزمان طاح فيهم الشعر المستعاد وقامت الثورة الفرنسية وحكمت الطبقة المتوسطة وانهارت ، والناس غنوا الانترناسيونال والآلة أصبحت آلة ، والمتحف البريطانى لسه زى ما هوه بيتردد عليه الصعاليك زى اللى ترددوا عليه أيام الشاعر سافيدج .. بصيت للمتحف ثانى وافتكرت كلمة ت . س اليوت .. أن شكسبير استفاد من تراجم بلوتارك أكثر مما استفاد أى مخلوق من مكتبة المتحف البريطانى كلها أدى الحكم ولا بلاش .

أدى الكلام الموزون .. هزيت كتافى باستخفاف وقلت للمتحف « إلى الغد يا خزانة الفكر .. أتركك ف حفظ توت كاتب الآلهة » ثم توليت عنه باحثا عن يار .. ويلتقى لويس عوض بعدة شخصيات غريبة بالمتحف البريطانى أبرزهم (دافيد سيرمير) رجل طويل وعريض وغامق ويهودى وشيوعى وعقله مريض .. كان يشرح له جغرافية لندن وأحيانا مبادئ الماركسية مهوشة طبقاً – (كان كلامه عن الاشتراكية لا ينتهى وحقده على الطبقة المتوسطة لا يحد) .

وبعد أن يستعرض لويس عوض نماذج من المتحدثين والخطباء فى حديقة هايد بارك يكتب باستخفاف عنها قائلا (أنا يظهر كنت مخدوع فى هايد بارك ... عرفت أن دول حبة مجانين قاعدين يعملوا سوا والحكومة سايباهم فى حالهم لأن ما فيهمش خطر .. ومكانهم الحقيقى مستشفى أمراض عقلية مش السجن .. أكثر من كده .. عرفت أن بعضهم حافظ الخطبة بتاعته صم وبيروح يسمعها كل يوم حد على ناس جداد .. عرفت أن أغلب الناس اللى بيخطبوا فى هايد بارك ، (حالات عقلية) زى ما بيقولوا الإنجليز يعنى من الجماعة المشتبه فى عقلهم ويظهر أن جنونهم من نوع خطابى فيروحوا ينفسوا عن أنفسهم » .

ولعل أكمل وصف لطبيعة وشخصية كامبريدج قول لويس عوض (فيه كثيره فى كامبريدك تخليها قرية من القرى الوسطى ... اقرأ شعر توماس جراى تلاقى فيه أوصاف كثيرة تنطبق على كامبريدج . لكن اللى أهم من ذلك أنك منين ما تروح فى البلد تلاقى صحايف التاريخ زى ما بيسموها مبسوطة قدام عينيك وشواهد البطولة بارزة فى كل مكان .. دى كلية مبنية فى القرن الرابع عشر ودول فى الخامس عشر ودول فى عصر أسرة تيدور وهكذا تدخل كلية ترينيتى تلاقى مربع ، وتلاقى بواكى قديمة حوالين المربع وأرضية إذا مشيت عليها ترن ويرجع لك الصدى من عمرها القديم ... يقولوا لك .. هنا نيوتين كان يقف فى طرف تربيعة ويضرب الأرض برجله ويقيس المدة بين الصوت والصدى ، أروح حته يقولوا دى شجرة التوت بتاعت ملتون .. أمشى بحذا الطريق يقولوا أنت ماشى فى سكة ملتون وادا هاوسمان اللى اتفسحوا فيها ونظموا التريض .. أوصل كلابها يد آلاف البر المشهور اللى فات عليها جون جلين اللى فى قصيدة وليم كوبر » .

ويورد لويس عوض تفاصيل اللوائح والنظم التى تتحكم فى سلوك وحياة الطالبة فى كامبريدج من ضرورة ارتداء الروب مالكا ب وعدم السهر والكذب والسرقة ومدى

الرقابة المفروضة عليهم حتى سن أصحاب السكن اللذين يقيمون معهم .. غير انه يعرض فى سخرية لتحايلات الطلبة على هذه اللوائح والنظم .. وكيف تحداها هو وقرر أن يعيش تجربة غير إنه وصل فى النهاية إلى التكيف مع هذه الحياة المنتظمة ..

ويتحدث عن النادى المصرى للطلبة فى فصل شيق بعنوان (نادى الفراعنة) يقول (أنا ظلمت النادى شوية لما وصفت الزيطة بتاعت أول يوم الحقيقة أن النادى كان من أحسن النوادى اللى شفتها فى حياتى أولا ما كانش له مكان ولا عنوان .. كنا نجتمع كل يوم حد فى بيت واحد من الأعضاء ناخد شاى ونتبادل الآراء ثانيا كان من نشاطه إنه يدى أسبوع محاضرة وأسبوع مناظرة وينظم مباريات رياضية وبريدج وشطرنج مع النوادى الثانية ويعزم أساتذة يعملوا أحاديث ويعمل حفلات تعارف سمر ورقص وتهريج وحفلة عشا رسمية كل سنة ويدعى فيها العمداء بتوع الكليات والأساتذة وسفيرنا فى بلاط سانت جيمس ومدير مكتب البعثة فى إنجلترا وتلامذة يمثلوا النادى المصرى الملكى بتاع لندن والناس اللى لهم أهمية فى كامبريدج » .

وفى الزيارة الثانية لباريس يتعرف أكثر لويس عوض على معالمها وأسرارها وتتوطد صداقته مع محمد مندور وينغمس فى ملاهيها ومقاهيها وكباريهاتها ويتعرف على (مادليان برنية) الفرنسية التى ارتبط معها بقصة حب طويلة انتهت عام ١٦٩٤ وأهداها ديوانه (بلوتلاند) ويقول لويس عوض ملخصا خبرته بباريس (زى أغلب المصريين اللى على نياتهم أنا كنت فاكر إن فرنسا بلد الإباحة والحرية اللى مالهاش حدود .. بعد ما شفت بنات الاسرف عمودية الحى اللاتينى رايحين الرقص محروسين بقرايبهم عرفت أن فيه حاجات فى فرنسا مش باريس .. عرفت أن الفرنساويين شعب محافظ زى أغلب شعوب البحر الأحمر المتوسط أو على الأصح زى أغلب الشعوب الزراعية وبالأخص فى الريف .. عرفت أن الحرية اللى بيحكوا عنها دى فى باريس ليس إلا لأن باريس عاصمة العالم اللى عاوز يتفسح ومدينة معمولة للاستهلاك الخارجى عرفت أن فى الجنوب بتحصل أحيانا حوادث مثل إذا بنت سلوكها خسر شوية زى ما بيحصل عندنا فى الصعيد » .

وتقوم الحرب العالمية الثانية .. ويقرر لويس عوض مع عدد من الطلبة العودة إلى الوطن غير ظروف الحرب تجعله يعود عبر رحلة طويلة حول رأس الرجاء الصالح ..

وبذلك يصف لويس عوض بالتفصيل مشاهد رحلة العودة وهى تقدم ربما فى أدب الرحلة المصرى مناطق من أفريقيا لم تكن معروفة ولا مدروسة وهو يقدمها بسخرية وسخونة وتلقائية تجعلنا نعيش هذه المشاهد الحية .

إن لويس عوض فى رحلة العودة يقدم مشاهد دامية لمأساة الملونين فى جنوب أفريقيا ومدى أدران التعصب العنصرى ويتضامن معهم فى هذه العبارة التى تلخص موقفه وتكشف عن نبل وشاعرية شخصية .

(لو كنت روسو كنت كتبت للعبيد إنجيل حروفه نار وصحايفه بلون الدم الصبب لو كنت بايرون كنت سليت سيف العدل والجهاد وما غمدتوش قبل ما أشوف بعينى عملاق الظلم مضرج على سهول بريتوريا ..

لو كنت شلى كنت تمنيت مع الصبح ومليت الآفاق بأناشيد الخلاص .. لكن أنا ضعيف وروحى مكسورة وريشتى هريلة ودمى مهدود فى خدمة الأحرار » .

تلك كانت خلاصة تجربة لويس عوض فى الكتاب بالعامية المصرية قدم فيها مذكراته عندما كان يطلب العلم فى لندن . وهى تثبت حيوية ويسر اللغة العامية فى الوصف والتحليل ورسم الأجواء وبناء النماذج والحوار الفكرى .... لقد حطم فيها التحفظات المقدسة التى تصطنعها اللغة الفصحى .. كلغة للخاصة .. وجعل لغته هى لغة الشعب لأنه أراد أن يوصل رؤيته وأفكاره وتجربته ويرسم صور لأوروبا لأبناء أوسع الجماهير من العاديين والبسطاء والمغمورين غير أننا نلاحظ أن لويس عوض لم يتوسع فى وصف تكوينه الفكرى والعلمى ومدى القراءات الواسعة التى حصها فى هذه الفترة ولم يبشر إلا سريعا لجوهر الرسالة العلمية التى كان عليها أن بعدها كذلك يلاحظ التحفظ على تجربته مع المرأة الأوربية وقضايا الجنس .

لقد انصرف لويس عوض لصخب وعنف الحياة فى لندن وباريس وما انغمس فى اتونها مبهوراً بأنشودة الحرية أكثر مما صور انعكاس كل ذلك على رجل شرقى :

غير أنه وعبر تعبيره العامى لمس كثيرا من الموضوعات والرؤى والأفكار تؤكد صدقه ومزاجه الفنى وبصيرته العقلانية ويكتشف صفحات الكتاب عن مدى الصراع الذى يعانيه لويس عوض بين الناقد والفنان .. العقل والحدث .. الصرامة والتلهى .

ولقد قمعت هذه التجربة فى التعبير بالعامية وظلت بعيدة عن القارئ عشرين عاماً بعد أن نفضتها إدارة المطبوعات فى الأربعينات ، ثم ضاعت من لويس عوض .. ونشرها صحفى اسكندرانى مغمور هو كتارى ... فأنقذها من الضياع وأهدانا تجربة جريئة فى التعبير تثبت انتماء لويس عوض للشعب ولغته ومثله وقيمه .

الفصل الخامس

قراءة مقارنة بين (سجن العمر) لتوفيق الحكيم و (أوراق العمر) للويس عوض

يقوم اختيارنا لإعادة قراءة وتأويل ودراسة وتحليل السيرة الذاتية لكل من مؤسس أدب المسرح العربى - توفيق الحكيم فى (سجن العمر) والناقد المؤرخ الفنان لويس عوض فى (أوراق العمر - سنوات التكوين) على عديد من الاعتبارات والمعايير المتشابكة لعل أولها أننا فى سنوات التكوين الفكرى والأدبى والقراءة التلقائية فى مرحلة الصبا كنا نشعر باقتراب حميم وانبهار ودهشة بالإبداع الأدبى الخلّاق المتعدد الكثير الحيل لتوفيق الحكيم خاصة عندما التهمنا رائعته الروائية المؤسسة لفن الرواية المصرية (عودة الروح) وعشنا مع مشاعر وخيالات وحب وتجربة بطلها (محسن) القريب لوجداننا وذوقنا وحياتنا كأبناء للطبقة المتوسطة الصغيرة وكان المعبر عن جيل الثلاثينيات المثقل بخبرة اليقظة والنهضة الوطنية لثورة ١٩١٩ ومدى ما أحدثته من تفتح وازدهار فى كلية الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية المصرية كذلك سحرنا عذوبة وسيولة وأحكام حوار ولغة توفيق الحكيم فى مسرحياته الذهنية المثقلة بالتجريب الفكرى والجمالى أهل الكهف وشهر زاد ..... إلخ .

لقد تبدى لى دائما توفيق الحكيم كمؤسس لفن الإنشاء الأدبى القائم على التخيل والتعبير بالصورة والرمز والمجاز والمستفيد لأبعد مدى من فنون التصوير والنحت والموسيقى والشعر إنه بلا جدال بداية مرحلة الكتابة الفنية المتجاوزة للكتابة الخبرية القائمة على مقتضيات العقل والتعبير المباشر اليقينى .

ولقد عانينا الحيرة فى تفسير أقنعة توفيق الحكيم .. العصا والحمار ، والبخيل الذى عبرها أقام حواره وتأملاته حول مسار حياتنا السياسية والأدبية فى عهود الملكية

والجمهورية وتساءلنا أكثر من مرة كيف عايش وساير ونقد فى الوقت نفسه الحكيم كل التقلبات السياسية قبل وبعد ثورة يوليو ١٩٥٢ وعاش فى الوقت نفسه مكرمًا مقدراً خلالها وربما ذروة تكريمه وتقديره قد تمت فى عهد عبد الناصر الذى كان يقدره تقديراً خاصًا وصل لمنحه أعلى وسام فى مصر وهو قلادة النيل .. غير أننا صعقنا وصدمنا بنقد الحكيم لعد عبد الناصر عندما أصدر (عودة الوعى) وأحدث بذلك الكتاب الصغير أكبر بلبلة استغلها اليمين والثورة .. المضادة فى نسف كل منجزات عبد الناصر .

أما اختيارنا للسيرة الذاتية للويس عوض فتعتمد على اعتقادنا أنه أبرز نقاد جيل الأربعينيات تعبيراً عن تحولات الفكر النقدى الذى يشكل استمراراً وتجاوزاً لجهود طه حسين في علمنة النقد الأدبى وتأسيس نسق المنهج التاريخى الاجتماعى ولعله فى كل من مقدمات كتابيه الأساسيين بروميثيوس طليقا والأدب الإنجليزى شرح وقدم مفهوم المادية التاريخية لتفسير البنية الأدبية وقدم تحليلاً يكاد يكون مباشراً وآليًا لعلاقة التحولات الاقتصادية بظهور المذاهب الأدبية .

ولكنى أعتقد أيضا أن لويس عوض يتجاوز دوره كناقد أدبي إلى دور مؤرخ الفكر المصرى الحديث منذ صدام العقل المصري بالعقل الأوربى عقب حملة بونابرت على مصر وقيام دولة محمد على كذلك هو صاحب المعارك الفكرية والنقدية والاجتماعية التى جعلت منه رائداً من رواد التنوير والفكر الاشتراكى الديمقراطى وكان منطقيًا فى جهوده الفكرية ومتسقًا حتى آخر كتبه عن الثورة الفرنسية الذى أكمل آخر فصوله على فراش الموت كان متبعًا لفكرة الحرية والمساواة والعدالة والتقدم وظل رغم كل ما تعرض له من اضطهاد وقمع لا يساوم على أفكار التحررية التقديمية وهو من كبار المؤثرين فى جيلنا والمحركين لأفكارنا عن الأدب .. والمجتمع .

والاعتبار الثانى لاختيارنا السيرة الذاتية لكل من توفيق الحكيم ولويس عوض هو اقترابنا الشخصى منهما وحصولنا على ثقتهما وصداقتهما سنوات طويلة بعد خلافات فى الرؤى والمواقف بجانب الحوار والدراسة الدائمة لكلية إبداعهم وهذا جعلنا نتحقق عن قرب من سماتهم الشخصية وطباعهم ومواقفهم وسلوكياتهم الخاصة والعامة مما يجعلنا نقيس مصداقية ماكتبوه عن طفولتهم . وصباهم وشبابهم وتكوينهم ورؤيتهم لسياق المراحل بالحيوية والنبض بخلاف الدراسة النصية التى تفتقد المعرفة الشخصية .

والاعتبار الثالث لاختيارنا أن كلا من (سجن العمر وأوراق العمر) أقرب السير الذاتية فى أدبنا المعاصر لشروط وفنية المفهوم العلمى الأدبى لكتابة السير الذاتية .. يتحقق فيها إلى حد كبير مصداقية السرد الواضح والمباشر لنسيج مسار حياة أصحابها بداية من الميلاد والتعريف بأصول الأب والأم والجدود والأسلاف ومتابعة لنشاة الوعى ومراحل التكوين التعليمى والأدبى والبحث عن أغوار الذات والطبع وتفسيرها بجانب الإشارة الدالة على أحوال المجتمع المصرى والمسار التاريخى السياسى الذى أحاط بالشخصية وشكل مسارها ومواقفها ودرجة استجابتها إنها اطلالة غاية فى الثراء على مكونات شخصية كل من توفيق الحكيم ولويس عوض وتعرف بانتسابهما الطبقى وموقفهما من تحولات المجتمع المصري وتتفاوت درجة الصراحة والصدق بين كل منهما فى مدى الاعتراف عن أدق وأخص مسار حياتهما .

وكلا السيرتين تتشابهان فى البداية منذ لحظة الميلاد ومكانه والتعريف بالأسرة وأصولها ثم مسار حركة التعليم والوعى وتنتهى كل من السيرتين عند نهاية التعليم الجامعى والوصول إلى درجة أولى من جدارة بداية الحياة العملية وهى أيضا تتشابه فى تقصى مكونات وأسرار النزعة الأدبية والسياسية عند كل منهما وتقف طويلا عند آثار النهضة واليقظة القومية لثورة ١٩١٩ . وتشكيلها لمسار الحياة السياسية المصرية فى نصف قرن ونشير إشارات دالة لصراعات القوى السياسية الاحتلال الإنجليزى والقصر والأحزاب ورجالاتها .

(سجن العمر) تحليل وتفسير لحياة ودراسة عن تركيب الطبع قبل أن نقرأ المسكوت عنه فى السيرة الذاتية لتوفيق الحكيم (سجن العمر) نشير بإجمال إلى أن توفيق الحكيم من أكثر الكتاب الذين اهتموا بسرد مراحل محددة من سيرتهم الذاتية بطريق غير مباشر عبر أعمال أدبية عبر فيها بلغة الصورة والمجاز عن عدة مراحل مهمة من حياته وخبراته ومعاناته الحياة والفن عبر نسق أدبى تتناسق فيه خبرة الحياة ودورتها مع المتخيل والوهمى والمتجاوز للحظة الآنية مراعاة لمقتضيات البناء الفنى .

فنجد فى رواية (عودة الروح) بعضاً من سيرته الذاتية الصبا والشباب المبكر وسنوات الدراسة الثانوية ووعيه وتفتح وجدانه السياسى على ثورة ١٩١٩ وحبه لزعيمها سعد زغلول والذى عبر عنه أسطورياً وجعله أوزوريس المعبود حيث الكل فى واحد كذلك سجل تجربة حبه الأول وانكساره العاطفى الذى ظل يشكل موقفه من المرأة طوال عمره .

وفى رواية (عصفور من الشرق) مرحلة من سيرة الحكيم فى باريس حيث ذهب إليها للحصول على الدكتوراه فى القانون فانغمس فى حياة الفن ودراسة الحضارة الأوروبية بعلومها وآدابها وفنونها بشكل موسوعى وسجل وثيقة صراع الحضارة الشرقية مع الحضارة الأوروبية وحاول أن يقدم رؤية الذات العربى المسلم الروحانى مع الآخر الأوروبى العقلانى المادى .

وفى رواية (يوميات نائب فى الأرياف) تسجيل لسيرته كوكيل نيابة فى أقاليم مصر ومدى .. التعاون بين القانون المدنى الفرنسى وإجراءاته الروتينية والفقر والجهل والجريمة الذى يعانيه الريف والحياة المصرية وكان أكبر صرخة احتجاج ضد عدالة مغيبة وتعرية فى الوقت نفسه لزيف ولعبة الانتخابات المصرية عام ١٩٣٥ وهيمنة وديكتاتورية حكومات الأقلية .

ويبقى كتاب (زهرة العمر) الذى يمكن اعتباره تجاوزاً بشكل غير مباشر من أشكال السيرة الذاتية فهو مجموعة رسائل لتوفيق الحكيم مع الآخر الفرنسى (مسيو أندريه) يتحدث فيها الحكيم عن تكوينه الفكرى والأدبى والفنى فى لقائه مع ثقافة وفنون أوروبا وصراع المذاهب الأدبية والفنية فى باريس ونضال الحكم الدوب لهضم منجزات الحضارة الأوروبية وتعليقاته وتأملاته ومراجعاته لاتجاهاتها وهو أيضا يسجل فى عدة خطابات بعد رجوعه إلى مصر وإعادة دراسة التراث الفكرى والأدبى العربى والبحث عن أسلوب أدبى متميز ومسرح له خصوصيته ومحاولاته لاقتحام أشكال الأدب الحديث كالرواية والقصة القصيرة . إن هذا الكتاب بانوراما موسعة عن نضال كاتب مصرى عربى فى حل المعادلة الصعبة وهى الأصالة والمعاصرة وهو بداية مرحلة من الخلق الإبداعى المصرى المعاصر وهو يقدم للقارئ دليلاً مركزًا وموسعاً عن فنون الأدب واتجاهات المسرح من اليونان حتى العصر الحديث .

فى ضوء هذه التحديدات من محاولات توفيق الحكيم سرد سيرته الذاتية فى أكثر من عمل أدبى نتوقف عند أقربها للمفهوم العلمى والأدبى لفن السيرة أقصد كتابه الفاتن (سجن العمر) .

يبدأ توفيق الحكيم سيرته الذاتية بهذه العبارة الدالة .

أملى أكبر من جهدى . وجهدى أكبر من موهبتى وموهبتى سجينة طبعى ولكنى أقاوم . فهو إذن لا يقدم فى صفحات كتابه سرداً وتاريخًا لحياة إنما تعليل وتفسير

لحياة فهو يرفع فيها الغطاء عن جهازه الأدبى ليفحص تركيب ذلك (المحرك) الذى تسميه الطبيعة أو الطبع هذا المحرك المتحكم فى قدرته والموجه لمصيره .

لذلك يبدأ من لحظة الميلاد لقد ولد فى الإسكندرية من أب وكيل نيابة لأحد المراكز فى عهد الاحتلال الإنجليزى حكم كرومر وأسرة والدته من أهل البحر ممن أطلق عليهم اسم (البوغازية) ويظهر أن أصل هذه الأسرة من الترك أو الفرس أو البانيا وكانت أمه على شيء قليل من التعليم تعرف الكتابة والقراءة وبذلك أصبحت أكثر نفوراً من كل نساء جيلها فى أسرتها ولقد قادها وعيها وطموحها وإراداتها فى فرض رغبتها على كل من حولها للتمسك بالزواج من والده عندما أدركت أنه من رجال السلطة رغم أن أهله عندما تقدموا لخطبتها عرضوا مبلغًا قليلاً على سبيل المهر . وبإشارات سريعة نعلم أن والده من أبناء متوسطى الفلاحين الذين يملكون ما قيمته ٨٠ فدانا وإنه كان راغبا فى التعليم ودءوبا حتى تخرج فى مدرسة الحقوق وكان زميلاً لأحمد لطفى السيد وعبد العزيز فهمى ومصطفى كامل وكان رجلاً مثقفًا يهوى الشعر وقراءة أدب التراث بجانب دقته وعقلانيته فهو يسجل فى كراساته كل شيء عن أحوال الأسرة .. ومصاريفها كما ظهر ذلك فى التسجيل كل ما يتعلق بميلاد أبنه توفيق غير أنه كان رجلا متوسط الحال كل اعتماده على مرتبه الذى تدرج فى سلك القضاة مما دفع زوجته التى .. كانت طموحة لبيع ما ورثته من أبيها وشراء أرض زراعية أصلحتها وهى تبلغ ٧٠ فدانا كل ذلك يدل على انتماء توفيق الحكيم الطبقى فهو من الطبقة المتوسطة المستورة الحال ومن أبناء كبار الموظفين المثقلين بالديون .

وما يهمنا التركيز عليه فى مسار هذه السيرة الذاتية هو تغلغل الحكيم فى البحث عن بدايات ودوافع ميوله الفنية وعديد العوامل والمؤثرات التى شكلت مساره الفنى حتى أسلمته إلى اكتشاف كاتب وفنان المسرح فى أسس تكوينه فهو قد أدرك طريقه مبكرا .

إن أول مؤثر فى تنمية خياله كان والدته التى كانت منهومة بقراءة قصص ألف ليلة وعنترة وحمزة البهلوان وسيف بن ذى يزن ونحوها وكانت تقص عليه ما قرأت ولا تترك تفصيلا إلا - حاولت تصويره وبعد ذلك قرأت والدته الرواية الأوربية المترجمة بأقلام الشوام وقصتها عليه وقد بدأ هو نفسه يقرأ بعد ذلك فصار يتحدث عن القصص والروايات التى كان يراها فى يد والدته فيستخرجها من صناديق الأمتعة القديمة

ويعكف على قراءتها بسرعة ولعل ذلك ما ساعده على إجادة اللغة العربية قبل الظفر بتعليم منظم ثم بدأ ينجذب إلى الرسم ويجد متعة فى تجويد قراءة وتلاوة القرآن يقول الحكيم : ولكن لم استمر فى هواية الرسم إلى حد جدى إنما هى تلبية لذلك الصوت الخفى أو اتجاه غريزى إلى أقرب موارد تلك النزعة تتخذ صوراً مختلفة بحسب الأردية التى تتيحها لها الظروف كانت تقترب بسرعة كالمنجذبة بمغناطيس إلى كل ما يلائمها من أوضاع تظهر لها كأنها روح شبح يتحسس الأجساد التى كتب عليها أن يحل فى أحدها لماذا كانت هذه النزعة عندى ؟ الإجابة عن هذا السؤال هى أحد الأسباب التى من أجلها أكتب هذه الصفحات فأنا دائم السؤال لنفسى . أكان من الممكن أن أتخذ طريقا آخر فى الحياة ؟

ما هو منبع هذه النزعة الدفينة التى سيطرت على وجودى منذ الصغر وتطلبت لتحقيقها من المواهب أكثر مما عندى واقتضتنى من الجهود ما كدت أنوء به ؟ هل أنا وحدى مسئول عن إيجادها ؟ أهى بذرة تلقيتها عن أب وأم لم تنبت عندهما بفعل الظروف فألقيا بعبء إنباتها على كاهلى دون وعى منهما عن طريق رسالة خفية ضمناها تلك النطفة التى منها خلقت ؟ . لست أريد التعجل بالجواب ولكن أكتفى بأن أعرض هذه التفصيلات عن طباع أبى وأمى لعلى أجد فيها المنبع للإجابة عن سؤالى .

وينتقل من فن الرسم إلى عالم الغناء والموسيقى فقد عرفت أسرته جماعة من عوالم الأفراح .. بمناسبة زفاف عمه وتصبح الأسطى حميدة العوادة المطربة رئيسة العوالم أستاذته وتعلمه العزف على العود ، ويقابل ذلك برفض من والدته ويتفتح وعيه على الفرق التمثيلية المقلدة للشيخ سلامة حجازى وهى تجوب الأقاليم وينبهر بعروضها ويصل الأمر به إلى مطالبة أسرته بأن تصحبه إلى القاهرة لمشاهدة مسرح الشيخ سلامة حجازى وفى أثناء مرحلة دراسته وإقامته مع أعمامه فى القاهرة فى شارع سلامة شعر بالحرية واتجه إلى المسرح بكل ما يحتمله وقته وجيبه ويصف الحكم بتركيز خريطة المسرح المصري وقت ذلك والموزعة بين تمثيل .. التراجيديا فرقة جورج أبيض والمسرح الهزلى نجيب الريحانى والكسار ويحاكى للحكيم وزملائه فى المدرسة فنون المسرح وينشئون مسرح هواة متواضعاً على أن طريقة اكتشاف الفن يتخلله فى سيرته اعترافات صريحة وشجاعة عن معرفته عالم الجنس وذهابه إلى إحياء البغاء فى وجه البركة وكلوت بك كذلك يورد الحكيم تحوله الفكرى قائلا فقد انتهى اهتمامى بقراءة الروايات وقصص المغامرات بل قد انتقل حديثى مع الزملاء من شئون التمثيل

إلى المناقشة والمجادلة فى موضوعات فكرية وفلسفية على أن هذا الميل إلى التفلسف لم يجس بعد منطقة المعتقدات أو ما وراء الطبيعة بل كان يدور حول كل مسائل عاطفية فما من شيء وقتئذ كان يهز عقائدنا أو يجعلنا نصدق أن هناك تفكيرا يمكن أن يثار للتشكيك فى الدين وهو يرفض دعوة (شبلى شميل) عن نظرية التطور ويعتبره ملحدا غير أنه يشير فى الوقت نفسه لسماحة المجتمع والحركة الفكرية آنذاك فى تقبلها لهذه الدعوات العلمية المناقضة للدين .

ثم يشير فى إجمال الحكيم إلى طبيعة المرحلة السياسية فى هذه الفترة من حياته وكانت خلال الحرب العالمية الأولى وكغالب المصريين كانت مشاعره مع الألمان والأتراك ضد الانجليز المحتلين مصر وتعلق بمصطفى كامل الذى أيقظ مشاعر بغضه للإنجليز غير أن والده كان فى الصفوف الأولى من مدرسة الحقوق بينما كان مصطفى كامل فى البداية وزملاؤه بالسنة الرابعة يرون فيه شابا ثرثاراً وهم يعتبرون أنفسهم أكثر اهتماما بالسياسة والدستور منه .

وهو يشير بسرعة لقيام ثورة ١٩ واشتراكه فيها بتأليف الأناشيد الوطنية الحماسية وتلحينها وكانت تنتشر بين الجماهير وتتخطى حدود القاهرة إلى الأقاليم ثم مالبث أن لاحظ أن .. شيطان الفن عنده قد ارتدى ثوب التمثيلية قبل أن يلتقت إلى ثوب القصيدة الشعرية ولما حل فيها كمن واستقر ولم يعد يفكر فى الخروج إلى غيرها من أثواب وأشكال حتى عندما كتب القصة والرواية فهو قد كتبها ليؤسس لهذه الأشكال الأدبية التى كانت مستحدثة فى الأدب المصرى آنذاك ولم يكن ينظر إليها باحترام ويكفى أن هيكل لم يكتب اسمه فى البداية على رواية (زينب) .

وفى عام ١٩١٩ كتب أول مسرحية بعنوان (الضيف الثقيل) وقد فقدت منه .

ويتساءل الحكيم لماذا بدأت أول ما بدأت بالمسرحية .

يقول (لعل الطبيعة المسرحية : أى خلق الإنسان من الحوار لا من الوصف خلقه من واقع كلامه هو لا من واقع وصف غيره هو ما يلائم طبعى لماذا أهى وراثة ؟ أو هو روح الجدل والمنطق والتركيز ووضع الكلمة فى موضعها وحوار النفس وقلق القاضى وميزانه عند والدى كل ذلك أقرب إلى روح المسرح لست أدرى ؟.

وقد لازم هذه الميل الحكيم وسار معه فى كل خطوة من خطوات حياته ودراسته وبعد أن التحق بمدرسة الحقوق تعرف على مصطفى ممتاز وهو الذى قاد الحكيم

للكتابة مباشرة للمسرح فكتب معه مسرحية العريس وقدمها إلى فرقة عكاشة ثم بعد ذلك على بابا ... إلخ وقد لحنها كامل الخلعي ويستطرد الحكيم في شرح الجو المسرحي في هذه الفترة ويتضح انغماسه في عالم المسرح .. ويبدأ قراءته المنهجية في المسرح العالمي والمسرح .. الفرنسي بالذات ويبدأ في تعلم اللغة الفرنسية وتظهر ميوله الأدبية ويتخرج في مدرسة الحقوق في ترتيب متخلف ويشعر والده بقلق على مستقبله بعد أن أعلن رغبته في ممارسة الأدب ويصر على إلحاقه بسلك المحاماة فترتيبه لا يصلح لأن يلحق بالسلك القضائي ولا يجد إلا استشارة زميله أحمد لطفي السيد الذي ينصح بسفره إلى باريس ليحصل على الدكتوراه ويعمل بالقضاة ويمارس الأدب في الوقت نفسه ويسافر إلى باريس لينغمس في الفن والمسرح ويعود بلا دكتوراه ليعمل في النيابة وتتوقف السيرة عند ذلك الحد فقد استكملها في زهرة العمر) وعصفور من الشرق ويوميات نائب في الأرياف كما أسلفنا .

والخلاصة في هذه السيرة نجدها في كلمات الحكيم الدالة (هذا السجن الذي أعيش فيه من وراثات عن أبي وأمي كأنها الجدران هل كان من الممكن الخلاص منها؟ حاولت كثيراً كما يحاول كل سجين أن يفلت ولكني كنت كمن يتحرك في أغلال أبدية وبدت المأساة لعيني عندما خيل إلي يوما أحلل نفسي أني لا أعيش حياتي إلا في نسبة ضئيلة .. أما النسبة الكبرى فهي تلك العجينة من العناصر المتناقضة التي أوردت تلك النطفة التي منها تكونت والنسبة الضئيلة التي تركت لي حرة من حياتي قضيتها كلها في الكفاح والصراع ضد العوائق التي وضعها أهلي أنفسهم في طريقي ومن خلفهم المجتمع كله في ذلك الوقت فوالدي الذي أورثني حب الأدب هو نفسه الذي يصدني عن الأدب والدتي التي أورثتني الإرادة تقف بإرادتها دون رغباتي الفنية حريتي المتبقية لي إذن هي فرصتي الوحيدة وسلاحي الوحيد في مقاومة كل تلك العقبات وحريتي هي تفكيري أنا سجين الموروث المكتسب وما شيدته بنفسي من فكر وثقافة هو ملكي وهو ما اختلف فيه عن أهلي كل الاختلاف ها هذا مصدر قوتي الحقيقية التي بها أقاوم .

نعم تفكيري وتكويني الفكري هذا كل حريتي الإنسان حر في الفكر سجين في الطبع ولست أدري أهي مجرد مصادفة أن أكتب عن تكوين الفكر في (زهرة العمر) قبل أن – أكتب عن تكوين الطبع في (سجن العمر) إن زهرة عمرنا الفكر وسجن عمرنا الطبع .

ثم يقول أخيرا فى ختام سيرته (وبعد هذه مرحلة من حياة لما أرد منها قص حكايتها فلم ألتزم فيها بالطريقة المألوفة فى سرد تاريخ الحياة الترتيب الزمنى لتتابع الوقائع ولكن مزجت الأزمان والأحداث فى أكثر الأحيان كى أصل مباشرة إلى لب المقصود هنا وهو محاولة كشف شىء عن تكوين هذا الطبع الذى أتخبط بين قضبان سجنه طول العمر .

فتوفيق الحكيم إذن فى سيرته الذاتية التي تبدأ بالميلاد وتنتهى بتخرجه فى مدرسة الحقوق وسفره إلى باريس لا يسرد حياته وحياة أسرته وحركة المجتمع المصرى إلا ليقوم بتحليل نفسه .

لتحليل مكوناته المورثة والتى يطلق عليها مصطلح الطبع وكان صادقاً وعقلانياً إلى حد كبير فى هذا التحليل الذى مارسه وهذا يكشف عن نزعة الحكيم التأملية للتعرف على طبيعة موهبته الإبداعية التى ظلت تناضل ضد محددات هذا الطبع الذى فرض عليه ومن هذا تكتسب هذه السيرة الذاتية أهمية فهى تضئ لنا أسرة ابداعه الأدبى والفنى وجوهر عالمه المسرحى الذى أقامه فى أدبنا المعاصر وقام على صراع الثنائية بين الموروث . وبين المتجاوز فى الفكر والخلق وهو بذلك يشكل مرحلة أساسية فى تاريخ الأدب .. المصرى المعاصر جعلت من الحكيم كاتبا له نسق فكرى مثالى لعل أبرز معطياته هو ما عرف عن إنجازه فى المسرح الذهنى أو الفكرى الذى كان مرحلة ضرورية لبناء مسرح يناقش قضايا الوجود والمصير والعدل والحرية والإرادة وهو بذلك يتجاوز مرحلة مسرح الفرجة والواقع اليومى ومسرح الضحك والفكاهة .

ولعلى وأنا أقر هذه السيرة أضعها فى سياق معرفتى الشخصية له وصداقتى الطويلة له وحوارى الدائم معه وتسجيل مواقفه الفكرية والسياسية فأكتشف كمية الصدق والصراحة والمداورة والمخاتلة فيها والتى شكلت فى النهاية طبيعة وشخصية أدبية كانت أقرب التعبيرات عن نبذبة ووسطية وتعادلية الطبقة المتوسطة المصرية التى كانت دائما هى القائدة للثورة الوطنية وهى المؤثرة بفكرها ومثلها فى جماهير الشعب المصرى وصنعت وضيعت فى الوقت نفسه ثورتى ١٩١٩ ويوليو ١٩٥٢ .

أوراق العمر سنوات التكوين التاريخ والسيرة

إذا كان توفيق الحكيم فى (سجن العمر) قد ركز فى سيرته الذاتية على الجانب الذاتى وتحليل الطبع والنضال الدءوب للخروج من أسره وقيوده وحاول أن يكتشف

ويفـهم مكوناته الموروثة والمكتسبـة وبدايات مـيوله الفنيـة ومكوناته الفكرية والفنيـة واكتشاف بداية الطريق ككاتب لمسرح غير مهتم إلا بالإشارات البعيدة لحركة المجتمع المصرى وتطوره سياسيًا واجتماعيًا وثقافيًا فإن لويس عوض على عكسه تمامًا فى سيرته الذاتية (أوراق العمر) فهى تقدم مساراً متوازيًا بين وعى الذات وتفتحها ونضجها ومسيرتها الحياتية منذ الميلاد وحتى التخرج من الجامعة وبين حركة المجتمع المصري سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا وثقافيًا . وفى رصيد تحويلات ومسار وصعود انكسار الحركة الوطنية منذ ثورة ١٩١٩ . وحتى عام ١٩٣٧

وتتمتع السيرة الذاتية للويس عوض بعدة خصائص ومسميات لعل أبرزها الصدق والصراحة والشجاعة فى تناول أسرة قبطية مصرية من صعيد مصر تتحول عبر اللوحات والمشاهد والتحقيقات والوثائق والاعترافات إلى مثال معيارى عن مدى التحام أقباط مصر بنسيج المجتمع المصرى وغالبيته المسلمة ومسار هذا الالتحام الذى يتألق ويكشف عن جوهره .. التاريخ فى عصور الديمقراطية والسماحة الفكرية وآليات المجتمع المدنى الذى يرفض التعصب والتميز العنصرى والدينى فى حين يعانى الأقباط مع المسلمين من أدران التعصب والاضطهاد عندما تسود عهود الدكتاتورية السياسية وحكومة الفرد المستبد الذى يلغى الدستور والحريات وينشر رعب أجهزة الأمن وينتهك الحريات ويبرز هذا دور حزب الوفد بزعامة سعد زغلول واتجاهه العلمانى فى تقديم الحل العلمى لوحدة عنصرى الأمة وذوبان الأقباط مع المسلمين فى أتون الحركة الوطنية ضدالاحتلال الإنجليزى والمطالبة بالاستقلال والدستور .

والعقد الاجتماعى للمجتمع المدنى ولعل ثورة ١٩١٩ كانت أكمل تعبير عن هذه الوحدة .. الوطنية التي خطت بالمجتمع المصري لآفاق التحديث لذلك يبرز فى سيرة لويس عوض مدى تأثير هذه الثورة الوطنية وزعيمها سعد زغلول فى صياغة وعيه وحساسيته الوطنيه .. ومدى ايمان والده الموظف المثقف والبرجوازى الصغير بدور سعد زغلول ونضاله ويقدم لويس عوض بانوراما موسعة عن انعكاس نضال ومواقف سعد زغلول على أسرته ووعيها ومواقفها ومدى الحزن واليتم الذى خيَّم على الأسرة عند وفاة سعد زغلول مما دفعه لكتابة أول قصيدة شعر .

ولم أجد فى سيرة طه حسين فى الأيام ؛أو إبراهيم عبد القادر المازنى فى قصة حياتي ، أو سلامة موسى فى تربيـة سلامـة موسى أو (سجن العمر) لتوفيق الحكيم

لم أجد فى كل هذه السير كل هذا الكم من عملية التاريخ والتحليل والتوثيق التى وجدتها فى أوراق العمر للويس عوض بحيث تكاد تتحول السيرة هنا إلى كتاب تاريخ موسع لمصر الحديثة منذ ثورة ١٩١٩ وحتى عام ١٩٣٧ ورغم كثرة قراءتى لتاريخ هذه الفترة بأقلام مؤرخين وسياسيين فقد وجدت فى (أوراق العمر كتابة دقيقة تمتلك بصيرة تحليلية لعقل مضئ لمثقف مصري وطنى استطاع أن يستوعب تاريخ فترة حرجة من عمر وتاريخ مصر الحديث لقد أرخ لمسار ثورة ١٩١٩ وتقلباتها وصعودها وأزماتها وكشف عن صلابة سعد زغلول فى الإصرار على حق مصر فى الاستقلال والحرية والدستور وأظهر تآمر القصر والملك فؤاد والباشوات الأتراك والمتمصرين الذى تآمروا على الثورة وعلى زعيمها غير أنه أنصف الثورة وعلى زعيمها غير أنه أنصف عدلى يكن ومزق القناع عن محمد محمود وإسماعيل صدقى ولعل أروع فصول السيرة فى جانبها التاريخى هو رصد الانقلابات الدستورية الثلاثة التى قام بها زيور باشا وحزب الشيطان عام ١٩٢٤ وانقلاب محمد محمود واليد الحديدية عام ١٩٢٨ وانقلاب إسماعيل صدقى وأصحاب المصالح الحقيقية عام ١٩٣٠ وإلغاء دستور ١٩٢٣ م. هذه الانقلابات الدستورية الثلاثة تكشف عن المسار الملتوى والأزمة لنشأة الليبرالية المصرية والتى تعكس فى جوهرها المختبئ طبيعة وتكوين الطبقة المتوسطة المصرية بأجنحتها الكبيرة والصغيرة مع وجود كبار ملاك الأرض ومدى تلاعب الاحتلال الإنجليزى – بهذه الطبقة واختراقها وترويضها وهى تؤكد على مدى تبعية هذه الطبقة وارتباط مصالحها مع الاستعمار ويبرز فى دوامة هذا الصراع الطبقى دون حزب الوفد كأكبر الأحزاب الديمقراطية تعبيرا عن أوسع مصالح الجماهير ورغم ذلك فثمة شروخ وتناقض فى قيادته العليا التى تتكون من كبار ملاك الأرض والرأسماليين ولكن ثمة ظاهرة هى بروز زعامة سعد زغلول وخليفته مصطفى النحاس كزعيمين وطنيين احتويا كل هذه التناقضات ومدا أجنحتهما ليظلا الشعب ككل والواقع أن لويس عوض ركز فى رصيده وتحليله للأحداث على تمجيد حزب الوفد وزعامته العلمانية ولذلك كان العنصر الأساسى فى تكوينه السياسى والأدبى هو كاتب الوفد البارز عباس محمود العقاد الذى لعب أكبر دور فى تكوينه السياسى والأدبى قبل أن يتعرف إلى طه حسين ولعل ارتباط طه حسين فى هذه الفترة بحزب الأحرار الدستوريين ومهاجمته لسعد زغلول قد أبعد طه حسين عن اهتمام لويس عوض ولعل اهتمامه به بدأ بعد انحياز طه حسين للوفد فى ١٩٣٣ ويأتى فى الأهمية فصل مولد الفاشية فى مصر بعد فصل

الانقلابات الدستورية حيث يؤرخ لويس عوض ظواهر ميلاد الميول والحركة الفاشية فى مصر أعوام ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ حيث ظهور حركته ونشاط أحمد حسين فى البداية كتابع ومهد لدكتاتورية محمد محمود وحكم اليد الحديدية ثم لتشكيل حركة سياسية لها سمات النزعة الفاشية وتأسيس جمعية مصر الفتاة على غرار النموذج الفاشى الإيطالى والنازى الألمانى وشعارات الأمبراطورية الفرعونية ومصر فوق الجميع وتأليه الزعيم وقد كان من النقائض أن تكون بدايات أحمد حسين الذى قامت دعوته على العاطفة الهوجاء فى أحضان العقلاء أو المعتدلين وهم الأحرار الدستوريون وقد كان أولى أن تكون بدايته مع الحزب الوطنى وفى ٢١ أكتوبر صدرت الصرخة وفيها إعلان بتأسيس مصر الفتاة ومعه برنامج الحزب الجديد تحت عنوان (إيماننا) وجاء فيه (شعارنا : الله .. الوطن الملك) غايتنا : أن تصبح مصر فوق الجميع أمبراطورية عظيمة تتألف من مصر والسودان وتحالف الدول العربية وتتزعم الإسلام .

ويفند لويس عوض بإسهاب دعاوى حركة مصر الفتاة فى تدمير مسار الحركة الوطنية .. الديمقراطية ومعاداتها لحزب الوفد والنحاس واستخدامها من الملك وأحزاب الأقلية .. ويكشف عن تعاون فتحى رضوان فى البداية مع أحمد حسين ثم رجوعه بعد ذلك إلى قواعده فى .. الحزب الوطنى ليؤسس الحزب الوطنى الجديد ولا يخلو فتحى رضوان فى بداياته من نزعة فاشية وله كتاب عن موسولينى كذلك يشير لويس عوض إلى نشأة حركة الأخوان المسلمين فى هذه الفترة يقول لويس عوض قد كان فى الفاشية والنازية المصرية قاسم مشترك أعظم من كل الحركات الفاشية والنازية فى القرن العشرين وهو اعتمادها على ما يسميه الألمان .. الشعور وهو الينبوع الأول لكل حركة رومانسية فى تاريخ البشرية ولكنها لم تكن رومانسية ثورية بل كانت رومانسية الثورة المضادة رومانسية البقالين وصغار التجارة وصغار الملاك والأسطوات والحرفيين وعامة أبناء البرجوازية الصغيرة التافهة التى تمقت كل ما تحتها وتتطلع إلى كل ما فوقها ولا ترى إلا نفسها مركزا للكون ومحورا للمجتمع فثوريتها لا تتسع لكل أبناء البشرية أو حتى أبناء الوطن بل هى تعيش فى جزع دائم من يقظة جماهير العمال والفلاحين فتشكك فى أهليتهم لحكم أنفسهم بأنفسهم وهى تفرض نفسها بالإرهاب وصية على الجماهير فتوازر الملكية المطلقة وكبار الملاك والرأسمالية الضخمة لضبط سواد الشعب وشله عن الحركة السياسية باسم حماية الإنتاج القومى فتسلب منه حق الإضراب .. وحرية التنظيم النقابى وحرية العمل السياسى مقابل السيرك السياسى وفتات التنازلات – الاقتصادية .

وقد ظهرت فى هذه الفترة المليشيات المسلحة القمصان الخضر لمصر الفتاة والقمصان الزرق للوفد والكشافة للاخوان المسلمين واتخذ الصراع السياسى لون العنف والبلطجة والاعتداءات وحاولت مصر الفتاة اغتيال النحاس .

كل هذا السرد التاريخى الذى أوغل فيه لويس عوض يقدم سياجًا تاريخيًا لسيرته الذاتية فهو يؤرخ الفترة بدقة المؤرخ والمحلل السياسى ثم يعود ليكشف عن مسار سيرته وتجربته الحياتية فى سياق هذا التاريخ مما أكسب السيرة بُعدًا يتجاوز مجرد سرد – تجاه شخصية لها لونها وخصوصيتها .

لقد ولد لويس عوض فى ٢١ ديسمبر ١٩١٤ فى شارونة من قرى المنيا فهو أذن كان فى الخامسة عند اندلاع ثورة ١٩١٩ ورغم ذلك فقد كان من اليقظة أن تفتح وعيه فى هذه الطفولة على هتافات الثورة ضد الإنجليز وحياة زعيمها سعد زغلول .. وغذى هذا الوعى ميول والده الموظف الصغير حامل الشهادة الابتدائية القديمة والموظف فى حكومة الخرطوم ميوله الوفدية وقدر الثقافة التى يتمتع بها ففى وصف لويس عوض لمكتبة والده نجد مجموعة من أساسيات الكتب الانجليزية فى التاريخ والفلسفة والأخلاق والأدب بجانب إتقانه للغة الإنجليزية لقد استمع لويس مبكرا لمناقشات والده وأعمامه وأبناء أعمامه المتعلمين لأحداث ووقائع الثورة ونضال ونفى سعد زغلول ولذلك فقد تطهر لويس عوض فى نيران الحركة الوطنية وهذا هو الأساس فى تكوينه .

ثم هو قد التهم فى شبابه مقالات كاتب الوفد العقاد وعرف منها كل المعارك التى خاضها سعد زغلول مع المثقفين والعقلاء أمثال عدلى يكن وعبد الخالق ثروت وبعد ذلك الاقليات محمد محمود وإسماعيل صدقى ويقدم لويس عوض هذا الوعى عبر صورة دالة (كنت فى عهد دكتاتورية اليد الحديدية عامى (١٩٢٨) ١٩٢٩ فى الثالثة عشرة وفى الرابعة عشرة من عمره أى كنت قد بلغت ما يشبه الرشد السياسى الكامل فلم أكن أعتمد على شروح أبى وتفسيراته وهذه هى الفترة التى كنت أخرج فيها بالجلباب والشبشب إلى محطة المنيا لاستقبال قطار التاسعة مساء حتى لا يفوتنى عدد من جريدة البلاغ وبذلك لا يفوتنى مقال للعقاد فى التنديد بدكتاتورية اليد الحديدية وفى الدفاع عن الحرية والدستور والحياة النيابية وكان أبى يحب كتابات عبد القادر حمزة ويصفه بأنه كاتب عاقل ومتزن ويكره كتابات العقاد بسبب حدة طبعه وسلاطة لسانه

وتوسعه فى سباب خصومه وكنت أنا على العكس منه تمامًا مفتونًا بالعقاد قليل الاكتراث بعبد القادر حمزة بل كنت لا أفهم كيف يمكن أن يستخدم وطنى لغة العقل مع الباشوات الخونة من كبار الملاك خدم الإنجليز أو خدم الملك .

ويهتم لويس عوض فى سيرته بتقصى أصول عائلته وتحديد سمات وطباع والده ووالدته وأخوته ولا يتحرج فى هتك الأستار عن قداسة العائلة هى أسرة قبطية صعيدية لها أصول قديمة حاول أن يتقصاها لويس عوض حتى أرجعها لثورة الأمير همام والمماليك غير أنها وبتتابع الأسلاف كانت أسرة على شىء من اليسر وبالمعنى الشائع مستورة وهى أسرة تقدس التعليم وترنو لمناصب الإدارة صحيح فيها مزارعون غير أن أغلبها موظفون . يقول وانطباعى العام أننا أسرة مفككة ولكن لا أستطيع الحكم إن كان متفككا يضاهى أو يزيد أو يقل عن تفكك . أكثر الأسر المصرية أو فلنقل الأسرة القبطية لأن اختلاف قوانين الأحوال الشخصية واختلاف الثقافة الدينية قد خلقا أنماطا أخرى للأسرة المسلمة .

ويقول أيضا ونحن ال عوض لنا بعض الحقائق النفسية والأخلاقية المشتركة التى قد تكون مجسمة عندنا أكثر من غيرنا ومن هذه الصفات أننا لا نكذب ولا نعرف كيف نكذب حتى .. للمجاملة أو لتجنب الحرج أو الخروج من المأزق فالكلمة عندنا لها معنى واحد فقط وهو ما تقوله الكلفة ومنها أننا عاطلون من الذكاء الاجتماعى وهذا ما يجعلنا نعيش فى عزلة نسبية مهما كانت دائرة معارفنا واسعة ورغم أنا مهذبون مع الجميع لا نندمج فى أحد إلا إذا اصطفيناه بمقاييس غاية فى الصرامة .

فلا نخالط الناس ولا نشجع الناس على مخالطتنا ولا ننتظر شيئا من الناس ولا نعطى شيئا للناس الا للمستحقين وإذا حببنا أو احترمنا أعطينا كثيرا دون مقابل .

ومن واقع معرفتى الشخصية بلويس عوض وصداقتي الطويلة له فقد تأكدت من ملامح شخصيته وسلوكياته وصداقاته إنه كان صادقا فى تحديد هذه الصفات والطباع وأنه التزم بها طوال حياته سواء فى الفكر والإبداع أو فى العلاقات الاجتماعية التى اندمج فيها .

وكما عانى توفيق الحكيم من رفض والده لميوله الأدبية والفنية ودفعه فى طريق المحاماه والقضاء فقد عانى لويس عوض من الموقف نفسه حيث رفض والده ويتعصب .. وانغلاق رغبته بعد أن حصل على البكالوريا رفض أن يتركه ليسلك دراسة كلية الآداب وصمم على أن يدرس فى كلية الحقوق فأدى ذلك إلى ضياع عامين من عمره

أنفق بعضهما فى كلية التجارة على غير رغبة منه والباقى فى احتراف الصحافة والتعرف على المجتمع الأدبى والصحفي حيث أخذ يترجم القصص ويكتب المقالات ويقرأ بينهم ليكون ثقافته الموسوعية وأخيراً وافق والده على دخوله كلية الآداب لقد كان والد لويس عوض يحتقر الكتاب والصحفيين ويعتبر مهنتهم مهنة مهينة فهم أرزقية شتامون يستأجرهم الأحزاب ولقد دخل لويس عوض كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية عام ١٩٣٣ وتخرج .. بتفوق عام ١٩٣٧ ليذهب فى بعثة إلى انجلترا ليحصل على الماجستير .

وما يستحق التسجيل من سيرة لويس عوض هو روحه الاقتحامية فما إن وصل إلى القاهرة حتى اتصل بكل من طه حسين والعقاد ربما ليتأكد من شخصية كل منهما ويطابق بينهما وبين مدى التأثير الأدبى والفكرى الذى أحدثاه فى عقله وتكوينه .

وعرض على كل من طه حسين والعقاد خلافه مع والده حول دخول كلية الآداب ولم يجد منهما تشجيعاً لتمرده على والده غير أننا نثبت هنا مدى سماحة وعظمة كل من العقاد وطه حسين وقد كانا فى ذلك الوقت أبرز أعلام الآداب فى مصر سماحتهما فى استقبال طالب صغير يأتى من الصعيد ليستمعا له ويتبادلا معه الحديث ويقتربا منه ومن أحلامه . وعن طريق قريب له من شارونة وهو يعقوب فام سكرتير جمعية الشبان المسيحية تعرف إلى العملاق الثالث سلامة موسى وقاد سلامة موسى خطاى نحو الاشتراكية فوجهنى لقراءة مسرحيات برنارد شو وشرح لى العلاقة بين الأدب والمجتمع ومعنى الواقعية الاشتراكية ومعنى الفابية ودلنى على هـ . ج ولز وعرفنى على الأدب الروسى جوركى .. وتولستوى وديستويفيسكى .

يقول لويس عوض : ووجدت سلامة موسى صريحا فى اشتراكيته صريحا فى زندقته بينما وجدت العقاد زنديقاً يغطى زندقته بمقولاته الفلسفية فيؤوله الشعراء ويسوى بين وحيهم ووحى الأنبياء ويجاهر بعدائه للاشتراكية وبدعوته للفردية كان العمالقة الثلاثة زنادقة كل على طريقته الخاصة كانت زندقة العقاد من منطلق مثالى وزندقة سلامة موسى من منطلق مادى أما طه حسين فقد كان أيه زندقته كتابه (فى الشعر الجاهلى) الذى قال فيه صراحة أن قصة إبراهيم وإسماعيل وبناء الكعبة ليست لها حقيقة تاريخية هى مناقضة للتاريخ وكان رفضه وليد العقلانية والمنهج العلمى فإذا كانت كلمة زندقة كلمة جارحة فلنقل أن هؤلاء الثلاثة كان لهم فهم خاص للدين يختلف تماما عن المفهوم العام فهو كإيمان الفلاسفة والعلماء بعد هتك الأقنعة الاجتماعية والفكرية ولا أعتقد أن سلامة موسى كان مسيحياً إلا بالميلاد وليس معنى

هذا أنه كانت له اختيارات أخرى فقد كان يضع جميع أديان التوحيد في سلة واحدة وكان يتكلم عن الثالوث الأوزيرى كما يتكلم عن الثالوث المسيحى وكان عاجزاً عجزاً تاماً عن الميتافيزيقا بسبب تكوينه العلمى فكان ينظر إلى كافة الأديان من وثنية وتوحيدية نظرة إلى ظواهر أنثروبولوجية أى مجرد فولكلور راق وأعتقد أنه كان محدود الخيال متخففا من الرموز كان لا يعرف الا الخيال العلمى أما الخيال الأدبى فلم يكن له عنده وجود .

وكان من دراويش مصر القديمة دائم الدعوة للاهتمام بدراسة حضارة مصر الفرعونية وكان عنده شموخ القبطى المتمسك بأصلابه الفرعونية حضارة وأمجاداً وقد أعارنى بعض كتب لبرستيد وألبرت سميث وفلندروز بترى لأقرأها وكان يعيننى بعرضها إلىَّ عرضاً شفوياً وكان سلامة موسى يكاد لا يحس بوجود اليونان .

هذه خلاصة وعصب سيرة لويس عوض تكشف عن وجدان وعقل ورجل مصرى من لحمة هذا الشعب ، يملك الصلابة والسماحة ويناضل كل ما يعوق طموحه ولعلنا لم نشر إلى أجزاء طويلة من السيرة تتحدث عن علاقته العاطفية الأولى فى المنيا وميلاد الشاعر فيها ثم تعرفه على الجنس فى حى البغايا .. ثم زملائه وأساتذته ومحاولاته التقرب من زميلات الكلية والزواج وكلها علاقات فاشلة انتهت بلا تواصل .. إننى أفهم غربة لويس عوض ووحدته رغم أنه أكثر كتابنا التزاما بقضايا شعبه وأحلامه وأعرف مدى المرارة التى كان يشعر بها فى آخر أيامه عندما كنت أزوره كل أسبوع فى الأهرام فيعرض علىَّ خطابات مجهولة الاسم تسبه وتلعنه وتقول (يا عميل الأنبا شنودة .. يا عدو الإسلام .. إلخ) وكيف شعربالقهر من منع مقالاته عن جمال الدين الأفغانى فى الأهرام مما دفعه إلى الاستقالة ثم مدى المرارة والحزن عندما صودر كتابه المهم (مقدمة فى فقه اللغة العربية) دون حكم قضائى ومن قبل هاجمة اليمين الرجعى وفلول الاخوان المسلمين والسلفيين عندما حاول أن يعيد تفسير رسالة الغفران للمعرى .. ثم بعدها هوجم عن كتاباته عن ابن خلدون ..

لقد كان هناك دائما تربص وتعمد ضد كتابات لويس عوض وهى فى اعتقادى اجتهادات رجل مصرى وطنى مستنير يؤمن بالعقل والحوار قد يخطئ غير أنه كان بعيداً عن التعصب ولعل أسوأ ما أثر فيه فى أيامه الأخيرة تلك الدعوة القضائية التى رفعها أحد المهوسين من التيار الأصولى الإسلامى يطالب فيها بسحب الجائزة التقديرية التى منحت له بعد أن حصل عليها من هم أقل قيمة وتأثيراً. وقد قمت بالرد على هذا الادعاء فى مجلة روزاليوسف ودافعت عن شموخ وقيمة لويس عوض فى ثقافتنا وكم كان ممتناً لذلك الدفاع غير أنى لمست مدى الجرح المؤلم الذى أصابه

وبعدها بدأ يشعر بانقطاع الوعى ويغيب عنا ونحن حوله أنا وغالى شكرى الذى كنا نلازمه فى أيامه الأخيرة ولم نعلم أيامها أن السرطان القاتل كان يتربص به ويعيش فى صدره العريض التى تكسرت عليه النصال .

ولقد كنت فى صحبة لويس عوض أيام أن كان يكتب سيرته وكان يناقشنى فى تفاصيلها ويأخذ رأيى فى كثير من المواقف التى يكتب عنها وأذكر أنه سألنى هل أسرد تفاصيل أول معرفة لى بالجنس وعالم المرأة عندما ضاجعت فتاة مسلمة فى حى البغاء فى بنى سويف عندما كنت أؤدى امتحان الشهادة الثانوية البكالوريا .. إن هذا يؤدى لهجوم علىَّ من الرجعيين ويومها قلت أكتب ولا تهتم المهم الصدق والصراحة والاعتراف بما حدث فهذه سيرتك الذاتية وليحدث ما يحدث أنت مسئول أمام التاريخ وكانت تنشر أجزاء منها فى مجلة (التضامن) وكنا نتناقش حول ما ينشر ويستمع لى بتواضع واهتمام وكنت أعرف منه أن (أوراق العمر سنوات التكوين) هى الجزء الأول من سيرته الذاتية الذى ينتهى عند عام ١٩٣٧ عام تخرجه فى الجامعة وأنه ينوى إذا أمهله العمر أن يكتب جزءين آخرين الثانى ينته عام ١٩٥٤ عام إقصائه عن الجامعة عقب أحداث مارس ١٩٥٤ والثالث بعد ذلك فكم خسرنا لعدم استكماله لسيرته فلويس عوض كان له تجربة مريرة ومعقدة وحافلة مع تاريخ الحركة الوطنية المصرية والثقافية المصرية والثقافية العالمية وكم كنا نود أن نعرف هذه التجربة وأن نقترب من خلال بصيرته ورؤيته الدقيقة الرصينة من شخصيات هذه المراحل التاريخية من السياسيين والأدباء والمثقفين والزعماء كما كنا نود أن نقرأ شهادته على عصر عبد الناصر الذى اعتقله وعذبه ورغم ذلك لم يقل كلمة هجوم عليه إلا ما قاله فى سيرته الذاتية (أوراق العمر) عن أن عبد الناصر مسئول عن موت أمه التى حزنت على فصله من الجامعة عام ١٩٥٤ وتحسرت على ضياع الجهد والعمر وقد ماتت وهو فى الغربة ولم يحضر وداعها الأخير كذلك لا ينسى لويس عوض أن والده شهد عملية اعتقاله عام ١٩٥٩ وكاد يصطدم بالبوليس السرى أثناء تفتيش المنزل فى جاردن سيتى .

وفى عهد السادات واضطهاد اليسار والماركسيين فصلت لجنة النظام بالاتحاد الاشتراكى لويس عوض من جريدة الأهرام فى مذبحة الصحفيين اليساريين والناصريين ونقلهم إلى مصلحة الاستعلامات .

لذلك لونت هذه الحياة القلقة والشعور بالموت والغربة البداية الحزينة لهذه السيرة الذاتية .

يقول : كانت العادة فى تلك الأيام البعيدة أن يولد الإنسان وأن يدفن فى بلدة أهله مهما بعد أو طال اغتراب الوالدين وهى عادة لا تزال تحافظ عليها بعض الأسر المصرية المتمسكة بأصولها الريفية ولكنها أيضا عادة فى طريقها إلى الزوال بسبب كثرة الهجرة وتعقد الحياة المدنية فحين مرضت أمى مرض الموت فى ١٩٥٦ نقلها أبى من المنيا إلى شارونة (مركز مغاغة محافظة المنيا) لتموت بين أهلها بعد أسبوع ولتدفن فى مسقط رأسها وحين مات أبى فى المنيا فى ٧ يناير ١٩٦٢ نقلناه إلى شارونة ليدفن إلى جوار أمى وقد ظللت على اعتقادى أن مرقدى المختار سوف يكون فى مصر حتى عشت عشر سنوات تحت حكم السادات فلم أعد أعبأ أين يكون مرقدى وكنت أعتقد طوال حياتى أن روحى لن تهدأ إلا إذا دفن جسدى فى تراب مصر حتى تولى السادات الحكم فطهرنى من هذه الأساطير المصرية .

لن يفهم هذا إلا رجل يحس فى أعماقه أن لحمه من تراب مصر معجون بماء النيل وعظامه من أحجار المقطم الجيرية أو من صوان أسوان ولست أشك فى أن عبد الناصر فعل ببعض المصريين ما فعله السادات بى وبغيرى ربما كان فى هذا الكلام نوع من المبالغة البلاغية .

هذه قراءة مقارنة فى السيرة الذاتية لكل من توفيق الحكيم فى (سجن العمر) ولويس عوض فى (أوراق العمر) تعرفنا عبرها على نموذجين بارزين من أبناء الأدب والنقد فى مصر كان لهما أكبر التأثير على مسار الإبداع والنقد الأدبى المصرى والعربى المعاصر .

ولعل اختيارنا لهما قد قام على اعتقاد أكدته المعرفة الشخصية والمعايشة الحية بجانب دراسة وتأويل انجازهما الأدبى ووضعه فى سياق التحولات السياسية والتاريخية التى عاشتها الشخصية المصرية منذ ثورة ١٩١٩ وحتى التسعينيات وما حدث فيها من انعكاسات وتراجعات وهى تثبت فى البداية والنهاية أن كلا من عنصرى الأمة قد وحدتهما فى النهاية أصالة الروح المصرية الخلاقة المستنيرة التى ترفض النظر الواحداية وتطمح أبداً فى تجاوز كل ما يقهر ويستلب إنسانية وحرية الإنسان .

فسيرة كل من توفيق الحكيم ولويس عوض بلورة مركزة لسيرة الشعب المصرى فى عطائه الحضارى وهى تؤكد أن الحقيقة دائمًا هى صوت الجماعة الذى يتخطى أقنعة وأكاذيب كل فرد .

الفصل السادس

لماذا صادر محمد حسنين هيكل مقالات لويس عوض ؟

عندما توحدت ومنذ شهور عديدة منذ أواخر عام ٢٠٠٠ مع تراث المشروع الثقافى والنقدى والتاريخى السياسى والإبداعى لصديقى وأستاذى المعلم العاشر لويس عوض الناقد الديمقراطى الثورى النبيل .

كتبت عديداً من المقالات والدراسات فى جريدة الأهرام والأهالى والوفد ، وفتحت لى مجلة آخر ساعة صفحاتها أيضًا .. محاولين فى كل هذه المقالات القيام برفع الحصار والتعتيم الإعلامى عن تراث لويس عوض وإحياء ذكرى رحيله التى مرت عليه عشر سنوات فى صمت متعمد من اتحاد الكتاب ونقابة الصحفيين والأحزاب المعارضة والقومية .

واستجاب لدعوتنا أمين عام المجلس الأعلى للثقافة د. جابر عصفور قبل سفره إلى أمريكا وكذلك د. فوزى فهمى رئيس أكاديمية الفنون والقائم الآن بأعمال أمين عام المجلس الأعلى للثقافة لعقد مؤتمر دولى فى يوليو القادم عن المشروع الثقافى للويس عوض تشارك فيه كل الاتجاهات الأدبية والسياسية والثقافية .

وبالطبع كنت أتوقع بطرحى مشروع لويس عوض الفكرى والسياسى بالذات كأعظم ناقد ثورى دافع عن التعددية وحق الاختلاف وكل أسس المجتمع المدنى التى نعيش اليوم وفى ظل قيادة الرئيس حسنى مبارك بتأسيسها واستكمالها فى ظروف سياسية حرجة تحاول فيها مصر أن تقوم بدورها فى قلب أمتها العربية ومنطقة البحر الأبيض المتوسط ضد المشروع الصهيونى الذى لايستهدف فلسطين فقط بل الطموح للهيمنة على المنطقة بعد ضمان الولايات المتحدة الأمريكية لتفوقها النووى والعسكرى .

كنا نتوقع وخلال الإعداد للمؤتمر وجلسات اللجنة العلمية التى تتلقى البحوث أن يعانى لويس عوض من التعتيم والإنصاف بعد رحيله .. نفس ما عاناه فى حياته وخلال معاركه الثقافية والسياسية لأنه حاول أن يطبق العقلانية والمنهج العلمى وخبرة ونضال وطنى ديمقراطى له موقف سياسى أدى به للصدام مع سلطة ثورة ١٩٥٢ والطرد من الجامعة فى أزمة الديمقراطية عام ١٩٥٤ مع ٥١ أستاذاً ، والاعتقال مع الماركسيين فى اعتقالات عبد الناصر عام ١٩٥٩ رغم خلافه الفلسفى مع النظرية الماركسية الستالينية فهو مفكر إنسانى واشتراكى ديمقراطى يرفض فكرة الحزب البلوريتارى الواحد والشمولية أياً كانت فاشية أو يسارية ويدعو بإلحاح للديمقراطية وحق الاختلاف واحترام حقوق الإنسان مما جعله يكتب بمرارة وكأنه يرد الآن على منتقديه الذين أزعجهم تلميذه بطلب رد الاعتبار إليه .

يقول لويس عوض فى مقدمة كتابه (على هامش الغفران المنشور فى كتاب الهلال الشهرى عام ١٩٦٦) :

يقوم لويس عوض بمرارة وأسى (ومن أراد فكره مجملة عنى فى ذهن نقادى فهى إنى باختصار فى يقين بعض أدباء اليسار قائد الفكر اليمينى فى العالم العربى كما كتب عنى الناقد اللبنانى الشريف الماركسى (حسين مروة) وأنى باختصار عند بعض أدباء اليمين قائد الفكر اليسارى الماركسى كما كتب عنى نقاد مجلتى (الرسالة والثقافة) ويقصد بالذات المحقق المشهور (محمود شاكر الذى اعتقل لعلاقته بالإخوان المسلمين وبمؤامرة معقدة فيها طرف شخصية غامضة من السعودية لاغتيال عبد الناصر) وفى يقين فئة رابعة أنى داعية فكرى للقومية المصرية الفرعونية وعدو فكرى للقومية العربية كما روى عنى الأستاذ (ميشيل عفلق) ونقاد الرسالة والثقافة وكتاب أباطيل وأسماء .

وفى حياة لويس عوض وبعد رحيله نحاول فى دراسات ومقالات عديدة أن نواجه هذا التجنى بموضوعية وعقلانية تعلمناها من طه حسين أستاذ لويس عوض نفسه واختلفنا معه ولكن فى رحاب أفق واسع تابع الفكر والنقد والثقافة المصرية فى تحولاتها وفى سياق الفكر العالمى الذى يتغير ويتجدد مع تجدد وسائل الاتصال والمعلومات والعولمة وما بعد الحداثة .. إلخ .

كل هذا كان مقدمة ضرورية لما نريد أن نفجره اليوم لما تعرض له المعلم العاشر لويس عوض من مفكر الناصرية الأول والصحفى أ. محمد حسنين هيكل الذى احتكر

عبد الناصر فى حياته وبعد رحيله . وفى نفس الوقت لم ينتسب للحزب الناصرى وهذا تساؤل يبحث عن إجابة بل إجابات .. والآن بالذات .

المهم .. وكناقد لجيل الستينيات درس لويس عوض جيداً وانتمى فى الستينات لليسار ومفاهيمه الجامدة الستالينية وضاق مثل كل مبدع يتجاوز نفعية وبرجماتية وتوازنات وحسابات العمل التنظيمى السياسى ويمارس دوره الآن كناقد للأدب والثقافة وبموقف سياسى مع التقدم .. ولى سوابق من رموز عظام درسناهم وعشنا معهم وكتبنا عنهم .. لعل أبرزهم يوسف إدريس وعبد الرحمن الشرقاوى .. إلخ .

من هذا الموقف للدفاع عن لويس عوض نفجر هذه المرة دلالة وإشكالية قيام أ. محمد حسنين هيكل بمصادرة عدة مقالات للويس عوض وما دلالة ذلك سياسياً وثقافياً .

ومن البداية اعترف أنى لا أقصد تجريح أو إنكار أستاذية محمد حسنين هيكل ودهاء وذكاء توظيف علاقته التاريخية بعبد الناصر فى مراحل مجد ومأساة وتراجيدية وملهاة وصخب وعنف الحلم الوطنى والقومى الناصرى الذى عاش جيلنا جيل كتاب الستينات صعوده وانكساره بهزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ .

ولكن فى نفس الوقت ومن واقع تجربة مبكرة للانتماء لليسار الماركسى ثم مرحلة طويلة من الوجود ككاتب وناقد مع رموز هذا التيار الماركسى عندما احتلوا بعد خروجهم من المعتقلات فى ١٩٦٤ بعض المناصب فى الثقافة والإعلام ... (ملحوظة : لم أعين فى الصحافة .. كنت طوال هذه الفترة محاسباً فى مؤسسة الأدوية) .

وهناك تعبير ذو دلالة بعيدة للويس عوض كتبه بعد رحيل عبد الناصر فى أحد مقالاته : (عبد الناصر أعطى السلطة لليمين والتكنوقراط والذين لا يقولون (لا) وفى نفس الوقت أعطى فتات المائدة لليسار فى الثقافة والإعلام وكان يأتى بثروت عكاشة ليبنى صروح الثقافة والإعلام بمعاونة اليسار ثم يأتى بعبد القادر حاتم ليهدم ما بناه ثروت عكاشة بمساعدة اليمين والكتبة وأنصاف المواهب (عشنا ككاتب .. هذه المرحلة ولدى وقائع وشهادات عنها .. إلخ) .

نعود لهيكل ومصادراته للويس عوض ودلالتها باختصار وقبل أن نقدم الأدلة وهى بقلم لويس عوض نفسه ومنشورة فى كتاب (لمصر والحرية مواقف سياسية)

والناشر (دار القضايا) لا نعرف من صاحبها وأين عنوانها والغريب أنه يحمل ختم مطابع الأهرام التجارية - رقم الإيداع ١٩٧٧/٣١٧٧ ، الترقيم الدولى ٢-٨٩-٧٠٦٥ (ISBN) ولم يطبع طبعة ثانية بسبب منع د. رمسيس عوض لإعادة طبع كتب لأسباب مادية . والكتاب يشتمل على عدة مقالات هامة ما بين السياسة والأدب تشمل مقالات فى جريدة الجمهورية أيام رئاسة السادات وعندما أسند للويس عوض تأسيس أخطر ملاحق الأدب فى بداية الثورة والإشراف على القسم الأدبى وانتدبه السادات من الجامعة لهذا العمل وصدر الملحق مع صدور الجمهورية فى ديسمبر ١٩٥٣ وجعل عنوان الملحق (الأدب فى سبيل الحياة) والغريب والمريب أن الذى أوصل لويس عوض للسادات الصحفى (حسين فهمى) أول من تعاون مع صحافة الثورة محامى كان يحرر فى جريدة الزمان التى أنشأها إدجار جلاد وهو مشهور بصلاته بفاروق وحاشيته والغريب أن حسين فهمى كان أول رئيس لجريدة الجمهورية كذلك يضم الكتاب مقالات فى جريدة الشعب برئاسة تحرير لطفى واكد مدير مكتب جمال عبد الناصر ونائب خالد محيى الدين فى تأسيس حزب التجمع كذلك مجلة الرسالة الجديدة برئاسة يوسف السباعى والأهرام .

الخلاصة أنها مقالات سياسية كتبت من ١٩٥٣ وحتى عام ١٩٧٥ كذلك فى الفكر السياسى كتبها ناقد ومثقف عضوى تقدمى رحب بحذر بقيام ثورة يوليو ١٩٥٢ لأنها قامت وهو فى الخارج فى الولايات المتحدة الأمريكية لكنه أخلص لطموحاتها الوطنية التحررية ومحاولتها بناء تجربة اشتراكية فى مرحلة الستينات فى عالم القطبين الاتحاد السوفيتى الشيوعى والولايات المتحدة الأمريكية الرأسمالى فانحاز لكل توجهات عبد الناصر التقدمية رغم الإساءة إليه من طرد من الجامعة فى أزمة الديمقراطية الشهيرة فى ٤ مارس ١٩٥٤ واعتقال وتعذيب لمدة عام ونصف مع الشيوعيين عام ١٩٥٩ رغم خلافه نظرياً وفكرياً من جانب النظرية الماركسية ولكنه أبداً لم يتنازل عن إيمانه بالديمقراطية وحق الاختلاف ورفض الشمولية وحكم الحزب الواحد وحذر من البداية أن قيام أى اشتراكية أو انحياز للفقراء والعدالة الاجتماعية بدون ديمقراطية واحترام لحقوق الإنسان سوف ينهار آجلاً أو عاجلاً وقد حدث .

وربما هذا الموقف الصلب كان السبب الرئيسى لموقف محمد حسنين هيكل المزدوج من لويس عوض .. بمعنى احترام ثقافته وقيمته كناقد ثورى وأستاذ جامعة ومعلم وتلميذ لطه حسين فأعطاه كل الصلاحيات كرئيس للقسم الثقافى ومؤسس ملحق

أدبى رفيع المستوى ولكن محمد حسنين هيكل حاول فى نفس الوقت أن تتم بينه وبين لويس عوض لعبة الاحتواء المتبادل كما تمت بنجاح بينه وبين لطفى الخولى وجماعة الماركسيين التى أنشأت مجلة الطليعة ويطلق عليها يسار الناصرية وهم رموز كبار لليسار وجدوا نقاط التقاء عديدة بينهم وبين مشروع عبد الناصر للنهضة (كنت من كتاب الملحق الأدبى لمجلة الطليعة ولكن خارج سياق لعبة الاحتواء المتبادل لليسار) وظللت أكتب فيها حتى أغلقها يوسف السباعى فى عهد السادات ويجب أن نذكر هنا أن إحسان عبد القدوس فى فترة رئاسته للأهرام رفض إغلاقها وهو موقف كاتب ليبرالى محترم .

وفى هذا السياق نقرأ ما كتبه لويس عوض عن مصادرة الأهرام فى عهد هيكل لبعض مقالاته لأنه رفض لعبة الاستيعاب والاحتواء المتبادل وهذا هو الدرس المجيد للمعلم العاشر لويس عوض الذى أحاول إبرازه الآن للأجيال الجديدة عن ضرورة المحافظة على قدر من الاستقلالية للكاتب والناقد فى علاقته بالسلطة وهذا موضوع شائك ومعقد ومطروح ليس فى مصر بل فى العالم العربى والعالم كله وكتبت عنه مراجع وكتب ودراسات عديدة .

يقول لويس عوض فى مقدمة كتابه (لمصر والحرية .. مواقف سياسية) بتاريخ ديسمبر ١٩٧٥ :

وربما كان من النافع أن أذكر أنى لم تصادر لى طوال عهد الثورة من المقالات السياسية إلا ثلاث مقالات : مقال كتبته للأهرام بعد شهر من هزيمة يونيو ١٩٦٧ أدعو فيها الناس إلى تجاوز المحنة وتمزيق النفس وإلى الالتفاف حول جيش مصر وحول قائد مصر جمال عبد الناصر . باعتبار أننا جميعًا مسئولون عما كان كل بحسب موقعه وعلمه ولكنى شخصت فيه الهزيمة بأنها هزيمة نظام لا هزيمة شعب أو هزيمة جيش باعتبار أن النظام ما هو إلا صورة للمجتمع ولكن أ. محمد حسنين هيكل رغم جرأته واقتحامه أزال قلب المقال المتأصل بتهرؤ النظام ولم يبق إلا الدعوة للثبات والالتفاف حول الجيش والزعيم فبدا وكأنى أقول أن الجيش سليم والنظام سليم وإنما المعطوب هو الشعب وعندئذ أصررت على أن مقالى إما أن ينشر كاملاً أو يرفع كاملاً فرفع كاملاً وحين طلبت أصول مقالى أبلغت أن هيكل سحبها من المطبعة وأرسلها إلى الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ليعرف كيف يفكر بعض المثقفين وقد سعدت بوصول الرأى وإن كنت قد أسفت لضياع المقال) .

ومقال آخر صودر لى فى (الأهرام) كتبته أثناء حرب أكتوبر فى قمة الانتصار بعنوان (الخروج ١٩٧٣) ولا أدرى لماذا صادره هيكل كل ما قاله هو أنه يسبب له ارتباكًا شديدًا ولم أرد إحراجه فلم أطلب مزيدًا من التفسير والأرجح أن منشأ ارتباكه كان استعمالى رموزًا أسطورية من التوراه مشابهة لأسطورة اشتراك الملائكة فى حرب أكتوبر وقد كانت تتداول فى القوات المسلحة وبين بسطاء الناس بتوجيه من بعض كبار الرسميين .

الغريب والمثير للتساؤل أنى واجهت نفس المشكلة عندما كنت أكتب فى مجلة روز اليوسف خلال رئاسة عبد الرحمن الشرقاوى فقد أجريت حوارًا مكثفًا مع المفكر د. فؤاد زكريا وكان يعانى من أزمات فى الجامعة والمناخ الثقافى حيث أغلقت مجلة الفكر المعاصر التى كان يرأسها خلال وزارة ثروت عكاشة ورئاسة سهير القلماوى لهيئة الكتاب وكان هذا أول حوار يجريه معه كاتب وناقد فى الصحافة أواخر أو أوائل عام ١٩٧٤ حيث لم تسلط عليه الأضواء من قبل .. المهم أنى عندما عرضته على نائب رئيس تحرير روز اليوسف (يوسف صبرى) وكذلك عبد الرحمن الشرقاوى رفضوا نشره قائلين أن فؤاد زكريا أغضب خطباء الجوامع فهاجموه لأنه كتب فى الأهرام يعارض ويسخر فيما قيل أن الملائكة شاركت مع الجنود فى ملحمة العبور وأرجع سبب العبور لجنود معظمهم مؤهلات عليا أتقنوا استخدام الأسلحة الحديثة . وقد أعطيت الحوار للطفى الخولى فنشر فورًا فى مجلة الطليعة .

ونعود لمصادرة هيكل للمعلم العاشر لويس عوض .

يقول لويس عوض باستغراب (كذلك صادر هيكل لى مربعًا كتبته فى نفس الفترة أقول فيه أن سر استماته المصريين فى القتال هو أن المصريين كانوا قد بلغوا من الشعور بالمرارة والانسحاق قبل حرب أكتوبر مبلغًا جعلهم يؤثرون الموت على حياة الذل والعار ولا أعلم أنى فى كلامى هذا ما يسىء ولكن فلنقل أنها وجهات نظر ونظرًا لثقتى الكاملة فى هيكل كرئيس تحرير لم يحدث قط أنى أثرت معه أزمات بسبب مصادرته مقالاً من مقالاتى إلا فى مناسبة واحدة وهو نفس ما أقوله عن كل من عملت معهم من رؤساء التحرير فقد كنت دائمًا أقدر الظروف التى يعمل فيها أى رئيس تحرير فى مصر ويواصل لويس الحديث هذه المرة عما صودر له من مقالات أدبية وثقافية فى الأهرام .

وصدور لى فى الأهرام المقال رقم (٢) الذى كتبته عن (الأيام) لطه حسين بمناسبة وفاته فى أكتوبر ١٩٧٣ (نفس شهر العبور المجيد لحرب أكتوبر بقيادة الرئيس السادات وضربة الطيران لقائد سلاح الطيران حسنى مبارك) . ويقول لويس عوض (ولم أقل فى هذا المقال كلمة لم يقلها طه حسين نفسه فى (الأيام) والأغلب أن المصادرة كانت اتقاء للحساسيات الدينية . وهكذا تخلفنا ثقافياً وحضارياً عما كنا عليه منذ خمسين سنة أو على الأصح أن الرجعية المصرية غدت أقوى شوكة وأعنف عدوانية بحيث غدت ترهب المعتدلين أنفسهم وحين أقول (صودر) لى لا أقصد بتدخل الرقيب وإنما بقرار رئيس التحرير فالرقيب عادة لم يكن يتعرض لمقالاتى ولم أحس بوجوده إلا فى مقال واحد كتبته عن الشاعر (أمل دنقل) .

وعلاقة لويس عوض بأستاذه طه حسين محور دراسات موسعة ونقوم بها الآن فى أفق وسياق سياسى وثقافى أوسع خلاصتها أن طه حسين ومشروعه النقدى والثقافى كان التغيير المجيد نقدياً وثقافياً وتعليمياً عن مكتسبات ثورة ١٩١٩ وكان أكبر قوة ضاربة ديمقراطية فى الأربعينيات وحقق مشروعه التعليمى عندما أصبح وزيراً المعارف فى آخر حكومات حزب الوفد برئاسة مصطفى النحاس التى ألغت معاهدة ١٩٣٦ أما لويس عوض الذى ورث عقلانية وثورية طه حسين فهو مرحلة صاعدة للحركة الثقافية المعبرة عن غليان الأربعينيات فى ثورات الطلبة والعمال فى ١٩٤٦ وكلاهما طه حسين ولويس عوض تفاعلا مع ثورة يوليو ١٩٥٢ . وتوجد تفاصيل هذه العلاقة فى (أوراق العمر) ومذكرات طالب بعثه ومقالتى طه حسين العميد وطه حسين الوزير فى كتاب لويس عوض (الحرية ونقد الحرية) نشر مؤسسة التأليف والنشر بالقاهرة ١٩٧٢ أما مقالة الأيام الأولى فقد نشرت فى كتاب لويس عوض (ثقافتنا فى مفترق الطرق) نشر دار الآداب عام ١٩٧٩ .

ونواصل حديث لويس عوض عن ما صودر له فى الأهرام . يقول لويس عوض كذلك صودر لى فى (الأهرام) مقال بعنوان (محاذير ثقافية) فيه تحذير شديد من إدماج الثقافة والإعلام فى وزارة واحدة (أيام عبد القادر حاتم) وهذه المقالة نشرت فى كتاب لدينا للويس عوض هو (ثقافتنا فى مفترق الطرق) وكتب لويس عوض أسفل المقالة (مقال منعت الرقابة نشره فى الأهرام) ومعنى ذلك أن هيكل لا يتحمل مسئولية المصادرة . وقد قام لويس عوض بعديد من الدراسات والمقالات عن عهود لوزارة الثقافة خاصة عهد ثروت عكاشة الذى لعب دوراً مع هيكل فى إخراجه من المعتقل

مبكراً حوالى منتصف عام ١٩٦١ قبل أن يخرج الشيوعيون عام ١٩٦٤ بعد المصالحة مع عبد الناصر واندماجهم فى تحوله إلى الخط الاشتراكى فى الداخل والخارج كذلك فى عهد الناقد التشكيلى النبيل ابن أخت نحات ثورة ١٩١٩ مختار .. وتابع قضايا وزارة الثقافة والمجلات الثقافية كأنها تخاطبنا الآن فى عهد الوزير المستنير فاروق حسنى الذى أنجز خلال ١٤ عاماً فى الوزارة إنجازات ثقافية دار حولها جدل وخلط فى الأوراق ونقد إيجابى ونقد ابتزازى . وهذا يحتاج دراسة مستقلة لأن تحولات ثورة يوليو ١٩٥٢ وتحولات العالم تضع مسئولية الدولة عن الثقافة تحتاج تقييم موضوعى نقوم به الآن فى إطار كتابنا عن لويس عوض .

والآن أليس من حقنا وحق لويس عوض بعد رحيله أن نطرح السؤال الصعب السؤال المشكلة .. لما صادر هيكل مقالات لويس عوض رغم ما يعرفه جيداً جيل مثقفى الأربعينيات من صلابة علاقة واحترام هيكل للويس عوض وتحمله مسئولية مقالاته عن رسالة الغفران فى الأهرام رغم شراسة حملة اليمين الثقافى وأعداء إعادة تقييم تراثنا بمنهج الأدب المقارن ومنهج العقلانية النقدية .

لقد صرح أكثر من مرة لويس عوض فى أحاديثه الأخيرة ولى أنا أيضاً أنه عرض على هيكل أن يتوقف فرفض هيكل وتحمل المسئولية .

الإجابة الأولى والتى يمكن أن نضعها تحت الضوء هو تقييم وتحليل لويس عوض لمرحلة زعامة عبد الناصر فى صعود مشروعه وللنهضة والتحرر والعدالة وتحديث مصر بعد محمد على وإسماعيل فى كتابه (أقنعة الناصرية السبع) وقد ناقش فيه عودة الوعى لتوفيق الحكيم .. ورد المدافع النبيل عن عبد الناصر محمد عودة على توفيق الحكيم .

فى هذا الكتاب فصل هام ينقد فيه لويس عوض مفكر الناصرية الأول هيكل وبالذات وجهات نظر محمد حسنين هيكل فى الناصرية وعبد الناصر فى كتاب (بصراحة) عن عبد الناصر وكان عبارة عن حوار طويل أجراه مع هيكل الكاتب الصحفى اللبنانى فؤاد مطر وهذا يحتاج حديث آخر لأهمية نقد لويس عوض الموضوعى الذى يعطى عبد الناصر العظيم الأعمال والعظيم الأخطاء كما قال الشاعر العراقى محمد الجوهرى : يعطيه حقه ويأخذ عليه أخطائه بدراسات موثقة بالأرقام والإحصائيات وعمق ناقد ديمقراطى ثورى تقدمى يحترمه اليسار الماركسى لأنه تعالى

عن تجريح عبد الناصر له عندما طرده من الجامعة وعندما اعتقله وعذبه بأجهزته الأمنية لمدة عام ونصف .

غير أنى أضيف السبب الرئيسى لخلاف لويس عوض مع هيكل ما جاء فى مقالة كتبها عقب خروجه من المعتقل محطماً غير أنه تعالى على جراحه بكبرياء ودافع عن التشريعات الاشتراكية التى صدرت فى عيد الثورة التاسع رغم عودته بعد ١٠ سنوات لنقدها واعتبارها رأسمالية دولة .

هذا المقال عنوانه (نداء لليسار) بتاريخ أغسطس ١٩٦١ نشر فى الجمهورية وهو يحتاج إلى حديث مستقل . غير أن ما يهمنى فيه لكى نتعرف على صدق وشرف لويس عوض كمثقف ثورى أنه يناقش مقال بجريدة الأخبار اللبنانية فى عدد الأحد ٣٠ يوليو ١٩٦١ هذا المقال بدون توقيع وعلى حد قول لويس عوض هو أقرب لبيانات الحزب الشيوعى الستالينى فى البلاد العربية . وأيضاً فى مصر وقد هاجم هذا المقال التشريعات الاشتراكية الناصرية وقوانين التأميم الشهيرة وأسماها رأسمالية الدولة وهو يدعو اليسار فى مصر والعالم العربى إلى اتخاذ موقف معاد من النظام الاشتراكى فى الجمهورية العربية المتحدة .

وقد تصدى لويس عوض بشرف للدفاع عن عبد الناصر وتشريعاته فى التأميم لأنه ورغم نقده فيما بعد له يعتبره منحازاً للفقراء .

غير أنه ختم المقال بكلمات أرجو أن يقرأها الماركسيون والناصريون الشباب الشرفاء وأن يقرأها هيكل نفسه فهى تقرأ ما يحدث الآن فى مصر من تحول حذر من الشمولية للتعددية وحق الاختلاف .

يقول المعلم العاشر لويس عوض وكأنها وصيته لنا : فليحذر اليسار فى كل بلد من البلاد العربية هذا التشكيك فى جمهوريتنا الاشتراكية الوليدة والخير لهم ألف مرة أن يلتفوا حولها متعاونين على البناء وكلهم يقظة على هذا الوليد .

وليقبلوا هذا النداء من رجل اشتراكى ديمقراطى لم يتخلف فى يوم من الأيام عن الدفاع عن حقوق الإنسان رجل يؤمن بأن الحرية المنظمة هى أثمن ما فى حياة الأفراد والجماعات رجل يؤمن بأن الأمة وحدها هى مصدر السلطات ومنها وحدها يستمد كل حاكم شرعية حكمه وأمامها وحدها تكون المسئولية ويكون الحساب وبأن الديمقراطية تكون كلمة جوفاء إذا لم تقترن بالمسئولية أمام الشعب مسئولية القمة أمام القاعدة وإذا لم تقترن بكافة ضمانات النقد النزيه البناء .

نعم فلتقبلوا هذا النداء من رجل اشتراكي ديمقراطي يؤمن حقًا بأن الديمقراطية هي وحدها سياج الاشتراكية ، رجل لم يؤمن في يوم من الأيام أن الفكرة يمكن أن تحارب بغير الفكرة ويستنكر أن تحارب الفكرة بغير الفكرة ، رجل لم يؤمن في يوم من الأيام بأن الشيوعيين عملاء إنما جوهر اعتراضه على فلسفتهم هو إسرافهم في الإيمان بمادية الإنسان وجوهر اعتراضه على منهجهم هو إسرافهم في الثقة في الكتلة الشيوعية التي تعلق أبصارهم وأرواحهم وأقدارهم بكل ما يحدث في الكرملين تعلق الكاثوليك بالفاتيكان .

أخيراً هل أدرك القارئ والشباب الحائر في أحزاب بعضها يعيش بعقلية الأربعينيات وبعضها يعيش بعقلية الستينيات ولذلك فليس لها وجود في الشارع السياسي بل وجودها فقط في الصحف وكلاً منها سواء اليسار أو اليمين أو الأصوليين الإسلاميين وأيضاً الحزب الوطني والناصريين .. لماذا نطرح قضية القضايا التي أدرجها مبكراً عام ١٩٦١ لويس عوض ومات وهو يدافع عنها عندما اهتز القلم في يده بسبب تسلل السرطان لمخه .. مع ذلك كان يدافع عن دانتون وروبسبير زعماء الثورة الفرنسية التي مجدت حق الاختلاف وحرية التعبير . وكل أسس المجتمع المدني من تمجيد حرية الإنسان لذلك كانت كلماته الأخيرة دفاعًا نبيلاً ومجيداً عن ضرورة سيادة القانون ودعوة رجل يحتضر الأحياء من بعده إلى الاعتصام به .

وهذا في يقيني السبب الرئيسي الذي أدى لصدام مفكر الناصرية المستنير هيكل مع لويس عوض رغم احترامه له صدام بين تبرير شمولية نظام عبد الناصر رغم كل توجهاته الوطنية التحررية وانحيازها للفقراء ومجد الحلم القومي وتحدي الرجعية وأمريكا .

كل هذا المجد يقوم على كريزما ووصاية الزعيم وبالتالي الصحفي الأول الذي يستمد نفوذه على الكل من هذا الزعيم . غير أن المعلم العاشر كان أبعد نظراً لأنه طرح الأساس لكل حكم لصالح الشعب أن يقوم أساسًا على سيادة القانون وحق الاختلاف وعدم احتكار الزعيم والتحدث باسمه .. هذا موضوع شائك من صميم أزمة السياسة المصرية حتى الآن وتحتاج لحديث آخر .

الفصل السابع

موقف لويس عوض

من التكوين الجيبيولوتيكي للشخصية المصرية والأنثروبولوجيا الجنسية وخرافة عنصرى الأمة ورفض اعتبار الأقباط المصريين أقلية فى ضوء مواثيق حقوق الإنسان

قبل أن أقرأ لقارئ (آخر ساعة) التى احتضنت مشكورة مواصلة رد الاعتبار للمعلم العاشر لويس عوض أنبل نقاد الأدب والثقافة المصرية والعربية أقرأ رؤيته العقلانية المستنيرة عن إشكالية (خرافاتنا المتوارثة .. عندما نتحدث عن (عنصرى) الأمة المصرية فالأمة المصرية فى اعتقاد (لويس عوض) ليس فيها إلا عنصر واحد يتجلى فى الأغلبية الساحقة من أبنائها أيا كان دينها) .

قبل أن أقرأ مفهومه العلمى الإنسانى لعمق وسر تكوين جوهر وعراقة الشخصية المصرية بتراكمها الحضارى الفرعونى والقبطى والعربى والإسلامى .

أليس من حقه على القارئ والآن أن يحترم بعد وحكمة بصيرته كمثقف وطنى ديمقراطى دافع عن حرية وحقوق الإنسان المصرى وتحمل بصلابة الطرد من الجامعة فى مارس ١٩٥٤ والاعتقال فى عهد عبد الناصر عام ١٩٥٩ والمنع من الكتابة فترة فى عهد السادات .

إن لويس عوض وفى كتابه قبل الأخير (دراسات فى الحضارة) الصادر عام ١٩٨٩ قبل رحيله بعام .. يعلو صوته من خلف زجاج الموت البارد ليشارك كل القوى الوطنية السياسية والثقافية ورموزها من أقباط ومسلمين .. الكنيسة المصرية الوطنية والأزهر الشريف والقيادة السياسية الحكيمة التى تؤسس التعددية وحرية التعبير وحق الاختلاف وكل أسس المجتمع المدنى الديمقراطى .

صوت لويس يعلو مع كل هذه القوى الوطنية الواعية ضد محاولة إحدى الجرائد الصفراء جريدة (النبأ) أبرز نماذج صحافة رجال الأعمال والإثارة والمجردة من الشرف الوطني والصحفي في مخططها المهزوم لشرخ وحدة الجبهة الداخلية وإثارة الفتنة في أخطر ظروف سياسية وتاريخية تعيشها مصر في مواجهة شراسة المشروع الإسرائيلي الصهيوني ولا مبالاة الولايات المتحدة الأمريكية لمحاولة تهميش دور مصر التاريخي والحضاري في قلب أمتها العربية ومساندتها انتفاضة الشعب الفلسطيني المقدسة والذي أبدا لن يركع قدم الشهيد يظل يطالب بالدم من الغطرسة والفاشية الجديدة لإسرائيل ومعه كل القوى الوطنية العربية بكل اتجاهاتها السياسية الواعية فالأمة العربية تواجه تحديًا تاريخيًا وحضاريًا سوف تقرر مستقبلها لسنوات قادمة في عالم هيمنة القطب الأمريكي الأوحد وعليها أن تتجاوز كل خلافاتها وتوحد قوتها .

والآن هل نستمع للويس عوض يحذرنا من الفتنة .

في مجادلة علمية عميقة بين (لويس عوض) والدكتور (محمد إسماعيل على) – أستاذ القانون الدولي بجامعة الأزهر نشرت بجريدة الأهرام في شهر أبريل ١٩٧٨ حول اشكاليات قضية القومية العربية كنموذج جاد لمناقشتها على أساس علمي .

يقول المعلم العاشر لويس عوض : (وفي جميع الأحوال فليسمح لي سيدي الكريم أن أطمئنه إلى أن أقباط مصر لا ينطبق عليهم أي ركن من أركان تعريف الأقليات الذي نصت عليه لجنة حقوق الإنسان أولا : لأن الأقباط ليسوا جماعة لها أصل عرقي ثابت يختلف بصفة واضحة ولا بصفة غامضة عن بقية الشعب المصري الذي تعيش فيه فمعروف أن المصريين مسلموهم كأقباطهم تنحدر أعراقهم الأساسية عن قدماء المصريين فإن كانت في هؤلاء أو أولئك دماء وافدة فقد ذابت في البحر المصري الكبير.

ومن خرافاتنا المتوارثة أننا نتحدث عن (عنصري) الأمة المصرية فالأمة المصرية ليس فيها إلا عنصر واحد يتجلى في الأغلبية الساحقة من أبنائها أيا كان دينها وإنما خرافة العنصرين نزلت إلينا من زعم الأقباط أنهم وحدهم من سلالة قدماء المصريين وأنهم أصحاب مصر الأصليين ومن زعم المسلمين أنهم من سلالة العرب الشريفة في حين أن (الأنثروبولوجيا الجنسية) لا تميز بين هؤلاء وأولئك لا في مقاييس الجماجم والأنوف والعظام ولا في نسبة تجلط الدم ولا في خواص الشعر .. إلخ بينما هي تميز

فى كل هذه الخصائص السلالية بين المصريين عامة وبين جيرانهم من شعوب غربى آسيا فى الشام والعراق والجزيرة العربية الجغرافيا الجنسية تعلمنا أن المصريين منذ أقدم العصور فى الأساس سبيكة من السلالة القوقازية المعروفة بالمتوسطية السمراء الوافدة بحسب كلام (فلندر بيترى) وسواه من الصحراء الكبرى ومن السلالة النيلية وهم غير الزنوج التى نجد بقاياها فى قبائل الشلوك والدنكا والنوير فى أعالى النيل وهم من غير الزنوج أما غير ذلك ففروع لا أصول فالكثرة المطلقة من المسلمين (أقباط) اعتنقوا الإسلام قرنا بعد قرن منذ الفتح العربى . وحكاية (عمر بن عبد العزيز) معروفة وهى أنه عندما كثر دخول المصريين دين الإسلام فى أيامه نقصت حصيلة الجزية فاستأذن عامل مصر فى أن يمنعهم من ذلك تأسيسا على أن الإسلام دين عربى أرسل للعرب فنهره (عمر بن عبد العزيز) وكتب إليه يقول : " إن الله أرسل محمداً هاديا لا جابياً " .

وثانيا : لأن الأقباط ليسوا جماعة لها تقاليد لغوية وصفات تختلف بصفة واضحة أو غامضة عن بقية الشعب الذى تعيش فيه فهي تتكلم عربية مصر العامية وهى تكتب وتقرأ العربية الفصحى والتراث العربى وهى قد تخلت عن اللغة القبطية حين تخلى المسلمون عنها لا لشئ إلا لأن المصريين من عجينة واحدة ولست أعرف أن للأقباط (صفات) خاصة يختلفون بها عن المسلمين .

وثالثا : لم يبق إلا المعتقدات والتقاليد الدينية فهذه وحدها يختلف فيها أقباط مصر عن مسلميها وحتى فى هذه الحدود فمعروف للخاص والعام أن الكنيسة المصرية كنيسة قومية لا تعرف لها أبا روحيا إلا " بابا الاسكندرية " وأنها نشأت قبل أن تنشأ كنائس العالم بالإسراف فى التوحيد أو ما يسمونه " المونوفنريه " أو الإيمان بالطبيعة الواحدة ومتهمة بالإسراف فى تقديس مريم إلى حد وصفها " بالماريولوجية " بل معروف للخاص والعام أنه فى كثير من الشعائر الدينية ولا سيما طقوس الموت والميلاد والإخصاب والسحر والشفاعة وبعض الأعياد لا فرق هناك بين قبطى ومسلم فى التقاليد والعادات لأن أكثرها نزل إلى المصريين مع موروثات مصر القديمة فالأقباط إذن ليسوا أقلية بتعريف لجنة حقوق الإنسان كالأكراد فى العراق والأرمن فى الدولة العثمانية والدروز فى لبنان .. إلخ لأن وحدة العرق ووحدة اللغة فضلا عن انسجام التقاليد والثقافة تجعل من الأمة المصرية سبيكة واحدة رغم أن أبناء كل ملة فيها

لا يتزاوجون من الآخرين إلا غرارا بحيث لا تميز بين المسلم والقبطى إلا بمعونة دلالات عرضية ولا حواجز بينهما إلا عند المتعصبين فى الدين) .

هذه الرؤية الحكيمة العقلانية وهذا التفسير العلمى الإنسانى الذى يطرحه بشجاعة وبصيرة لويس عوض فى عامه الأخير قبل أ ن يرحل لجوهر وعمق وصلابة المكونات الحضارية والأنثروبولوجية لأفق وأبعاد نسيج الشعب المصرى والشخصية المصرية مسلمين وأقباط يرد بحسم ويكشف الوجه القبيح للحملات الجاهلية السفلية وفرق الرجعية المصرية التى ما أن ترى تيارا ثقافيا تحرريا يوشك أن يشق لنفسه مجرى عميقا فى حياتنا الثقافية حتى يتجمع ويطلق التهم جزافا وكأنها فرق (الكوكلوكس كلان) ذوي الزعابيط البيضاء لتشتت شمل المتحررين ولو أصابت بعضهم في مقتل .

فرق الرجعية المصرية هذه عارضت وحاصرت وقمعت إبداع وفكر لويس عوض العقلانى النقدى لرفض المسلمات وتجديد مناهج النقد الأدبى والثقافى والفكر السياسى الراديكالى التقدمى ومواصلة درس وتقاليد طه حسين أستاذه .

حدث هذا عندما طبق مناهج النقد المقارن فى تفسيره لرسالة الغفران للمعرى وإنجاز ابن خلدون فى تأسيس إرهاصات الأسس المادية التاريخية ودور الاقتصاد فى تفسيره للعمران البشرى وصعود وانهيار الأمم والحضارات القديمة .

وأجبر على الاستقالة من جريدة الأهرام فى الثمانينات بناء عن تقرير أحد كبار الصحفيين فى الأهرام له مصالح مع السلفية في إحدى دول الخليج والبترول . نكتفى بذكر الحروف الأولى من اسمه (ز.ن) لمنع نشر فصول كتابه عن الأفغانى بعد اطلاع لويس عوض على أخر وثائق وزارات الداخلية والخارجية الإنجليزية والهندية والتركية عن غموض وتعقد الأدوار الذى لعبها الأفغانى فى السياسة والثقافة والفكر الإسلامى فهو صاحب نظرية (المستبد العادل) الذى عانت منها الشعوب الإسلامية من قمع وتخلف كذلك العربية . كل هذا الدور الغامض للأفغانى يتعقبه بالوثائق والتحليل لويس عوض وسط دوامة وصراعات " الخلافة العثمانية " فى غروبها وانجلترا وفرنسا فى أواخر القرن التاسع عشر وعلاقاته المريبة والمعقدة بجماعات الماسونية وشبكتها العالمية السرطانية والتى تضم شتات أجناس وأديان متعددة منها اليهود والبهائيين فى تركيا وإيران وأفغانستان ومصر .

وتم أخيراً وهو يحاول زن يتوج صمود ٤٥ عاماً من البحث والدراسة والإبداع ومواصلة الكتابة رغم كل ما تعرض له من مطاردة وقمع وتم له إنجاز أهم بحوثه ودراساته كناقد ومؤرخ ومفكر أدبى وثقافى أنجز مشروعاً ثقافياً متعدد المحاور من إبداع ونقد مقارن وتاريخ للفكر المصرى ودراسات في النظم السياسية والاجتماعية ورصد لتحولات الثقافة المصرية والعربية فى ارتباط بتطورات الحركة الوطنية الديمقراطية وحلقاتها المتتابعة ثورة عرابى وثورة ١٩١٩ وثورة يوليو ١٩٥٢ معتمداً على أحدث نظريات الأنثروبولوجيا وتقصي جذور نشأة العرب والحضارة العربية الإسلامية كذلك علوم الأصوات (الفونيطيقا) واشتقاق اللغات ليكشف فى النهاية بجهد علمى موثق فى فقه اللغة العربية .. أن اللغة العربية هى أحد فروع الشجرة التي خرجت منها اللغات الهندية والأوروبية وإذا نحن اعتبرنا اللغة العربية نموذجا لبقية اللغات السامية خرجنا بأن ما يسمونه مجموعة اللغات السامية هو أحد الفروع الرئيسية التى خرجت من هذه الشجرة ثم تفرعت إلى فروع ثانوية كانت العربية إحداها .

ومن الصعب أن نلخص هنا خطورة وعلمية كتاب (مقدمة فى فقه اللغة العربية) للويس عوض – كتاب يقع فى ٧٠٠ صفحة تحتشد فيه نظريات وآراء وتواريخ عن أصول العرب والعالم الإسلامى وجذور اللغة العربية خاصة أنها لغة (القرآن الكريم) دليل وأساس حضارة الإسلام ، ونكتفى هنا ، وبتركيز مخل أنه ناقش وحلل خلاف المدارس الأساسية ، الأشاعرة والمعتزلة التى تصاعدت دعاويها فى العصر العباسى ، فالأشاعرة يقولون إن (القرآن) قديم ، والمعتزلة العقلانيون يقولون إن (القرآن) مخلوق أو محدث ، وفرقة من المجتهدين ما بين بين وأبرزهم القاضى عبد الجبار الجرجانى .

ولعل لويس عوض كان يميل لرأى المعتزلة فهو يقول أهمية رأى المعتزلة فى كلام الله هو أنه مساو للغة التى يشاء الله أن يخاطب بها الناس ، سواء أكانت العبرية أم الآرامية أم العربية أم أية لغة تكلم بها نبى فى قومه ، والأنبياء عديدون ، ومنهم من نعرف قوميته ولغته ومنهم من لا نعرف ، فكلام الله إذن مع إعجازه فى الفصاحة والبلاغة فى اللغة التى نزل بها ، غير مساو لآيات الله القدسية وإنما هو متصل بنذوات البشر العارضة) . وبهذه البصيرة العميقة للجانب المضىء العقلانى فى تراثنا الفقهى والفلسفى .. منذ المعتزلة أثار لويس عوض القضية التى تتكرر دوما فى ثقافتنا العربية حتى الآن بين الاجتهاد والإبداع وبين النقل والاتباع السلفى الذى وضع أسسه

الأشاعرة والذى تعتنق حتى الآن تعاليمه جماعات التطرف الأصولى الإسلامى التى تهدد العقل وأمن الوطن ، واستقراره .

ولقد صودر هذا الكتاب بعد أن طبع بهيئة الكتاب عام ١٩٨٠ ولم تعرف أسباب المصادرة حتى الآن .

ومن صحبتي للويس عوض عشت معه وحتى رحيله معاناة المفكر والمعلم والناقد من حصار الرجعية والفكر السلفى الظلامى الذى قويت شوكته فى الثمانينيات أثناء صعود جماعات العنف المتطرفة للإسلام السياسى الذى يكفر المثقفين ويقيم محاكم تفتيش لعقول المفكرين والإسلام بسماحته وعقلانيته براء منهم ، وكنت ومازلت أتساءل عن عمق هذه الأزمة النفسية والروحية التى عاناها لويس عوض حتى رحيله . والآن وبعد تعمقي وبحثي فى آفاق ومحاور مشروعه الثقافى التنويرى الذي تتجلى فيه أروع صفحات الثقافة الوطنية الديمقراطية أدركت أن لويس عوض كتلميذ للعميد طه حسين كان الاستمرار الحى الخلاق للتقاليد التى أرساها طه حسين فى محاكمة الأوهام الباطلة فى ثقافتنا المعاصرة ونزع النقاب عن الأنظمة اللاعقلية الموروثة وإيقاظ الرغبة فى قيام قانون يصبح المفكر فيه هو حقيقته دون تنازل أو تبرير .

لذلك ، ففى اعتقادى أن التلميذ لويس عوض فى محاولته شق طريق تحررى تجديدى فى ثقافتنا ورفض كل المسلمات وإخضاع كل الرؤى والآراء والنظريات التقليدية القديمة للنقد والمساءلة والمناقضة خاصة فى هذا الكتاب المصادر (مقدمة فى فقه اللغة العربية) كان حظه أسوأ من أستاذه طه حسين عندما أزعج السلفيين والتقليديين والمستلبين للتراث دون مراجعة بكتابة (الشعر الجاهلى) فقدم ضده النائب الوفدى عبد الحميد البنان عام ١٩٢٦ استجوابا بشأن هذا الكتاب وثار السلفيين وبعض علماء الأزهر وطالب بعض الأعضاء بإقصاء طه حسين عن الجامعة وتداخل الصراع حول حرية البحث العلمى الذى أسسها طه حسين فى الجامعة مع الصراع السياسى بين وزارة الأحرار الدستوريين والوفد المسيطر على البرلمان ولم ينقذ الموقف إلا استنارة عدلى باشا يكن رئيس الوزراء آنذاك والذى هدد بالاستقالة . كذلك أنصف رئيس النيابة محمود نور الدين البحث العلمى وطه حسين وأعلن براءته من الإساءة لثوابت الدين الإسلامى وصدر الكتاب بعد أن حذف منه بعض الفصول التى أحدثت السخط لدى أعدائه من التقليديين .

أما الرجعية المصرية في الثمانينيات فقد اغتالت كتاب لويس عوض ، وهذه ملاحظة خطيرة نثبتها ولها أكثر من دلالة ، وتطرح على ساحة الفكر والبحث سؤال قلق : هل نحن نتقدم أم نتأخر فى عالم الثورة التكنولوجية والانترنت والعولمة التى تستلزمها تحديث ثقافتنا وإقامتها على العلم والعقلانية وحرية البحث والتعبير .

والآن أعتقد أن القارئ العادى الذى نقصد هنا مخاطبته يشاركنا الاعتقاد والقناعة فى أن ما تعرض له ظلما فكر وإبداع واجتهاد لويس عوض الثقافى والنقدى من حملات تشويه مهووسة تتهمه بالعداء للثقافة العربية والإسلامية ، والقول الكاذب أنه من المبشرين وصليبى ورسول بيزنطة .. إلخ هذه الترهات والافتراءات ولعل أبرزها حملة (كتاب أباطيل وأسماء) وكلها كانت متجنية تقوم على الأحكام المطلقة وتقدس السلف والنقل والاتباع والتقليد ، وليس معنى هذا أننا لا نختلف مع جزئيات من اجتهادات لويس عوض حول (رسالة الغفران) للمعرى و (الأفغانى) وفقه اللغة العربية وتضخيمه غير العلمى لدور الجنرال يعقوب فى الحملة الفرنسية .

ولكن الأهم ومن موقف الوعى سياسيا وثقافيا بوضعية المرحلة السياسية الحرجة التى يعيشها الوطن مصر المحروسة وثقافتها الوطنية الديمقراطية في مواجهة شراسة وجنون المشروع الصهيونى وتأييد الولايات المتحدة الأمريكية له وغموض أو عدم تحديد موقفها بحسم لمحاولة تهميش دور مصر المحورى الحضارى فى قلب أمتها العربية وقضية فلسطين والقدس أولا وأخيرا مع كل الشعب العربى الغاضب .

المهم أن صوت لويس عوض المستنير الوطنى الشريف هنا يعلو من صمت قبره بعد رحيله بإحدى عشر سنة مشاركا ثورية وطنية كل القوى الوطنية ورموزها القبطية والإسلامية ضد مؤامرة دنيئة لها أبعادها وأسرارها ، قامت بها جريدة رجال الأعمال الصفراء (النبأ) تحاول إحداث فتنة وتهديدا لوحدة الجبهة الوطنية المصرية الصلبة خلف قائدها وربانها الرئيس حسنى مبارك بحكمته وسماحته واختياره طريق سيادة القانون والديمقراطية وحق الاختلاف وعدم التفرقة بين الأقباط والمسلمين .. وهذا هو درس وجوهر نضال المعلم العاشر لويس عوض فى مشروعه الثقافى المستنير الوطنى الذى استجابت له مشكورة وزارة الثقافة ووزيرها المستنير فاروق حسنى ، بداية من استجابة الناقد المرموق د . جابر عصفور أمين المجلس الأعلى للثقافة لدعوتنا ومطالبتنا بعقد مؤتمر دولى .

يرد الاعتبار للويس عوض وإنجازه النقدى والثقافى سيعقد بمشيئة الله فى أواخر سبتمبر ٢٠٠١ من هذا العام ، ويجب الاعتراف بالدور الثقافى المسئول لعالم وناقد المسرح د . فوزى فهمى ورئيس أكاديمية الفنون وأثناء توليه الإشراف على المجلس الأعلى للثقافة فى فترة غياب د . جابر عصفور كمحاضر فى أرقى جامعات الولايات المتحدة ، فقد وقف معنا بمسئولية وكتلميذ للمعلم الحادى عشر (محمد مندور والمثقفين الشرفاء) .

الفصل الثامن

نقد الناصرية فى كتاب (أقنعة الناصرية السبعة)

من أرقى وأعمق أساليب الفكر والأدب السياسى الذى تعرضت لقضية الناصرية مالها وما عليها كتاب المفكر والناقد الكبير د . لويس عوض (أقنعة الناصرية السبعة) وله أعرف لماذا قوبل هذا الكتاب الهام رغم صدوره فى أكثر من طبعة بالصمت من كافة التيارات السياسية اليمين واليسار فى حين هللت لعديد من الكتابات المرتجلة غير العلمية المدينة أو المدافعة عن الناصرية وفترة حكم عبد الناصر .

لقد أزعجت لويس عوض إثاره قضية عبد الناصر بجدة بين المثقفين المصريين فى الخارج والداخل وتتراوح بين الهجاء المقذع والتمجيد بلا تحفظ ولاحدود وكان أبرز طرفين فى هذا النزاع توفيق الحكيم فى (عودة الوعى) ومحمد عودة فى (الوعى المفقود بجانب كتابات أخرى من اليمين واليسار .

وبداية يعلن لويس عوض (أنه ليس بيننا نحن معاصرى عبد الناصر من يصلح لكتابة تاريخ عبد الناصر وعهده أو لمحاكمته لسبب بسيط هو أننا (معاصرون) فلأننا معاصرون فنحن بدرجات متفاوته أطراف فى فترة حكمه وفى نظامه ، لنا رأى سبق فيما فعله وفيما كان يمثلة ، وكل ما تستطيع أن نفعله هو أن نكتب شهادات الأحياء ، وهى المادة الخام لكتابة التاريخ ، ويهاجم لويس عوض قرار مجلس الشعب فى عام ١٩٧٥ بتجريم نشر وثائقنا القومية والرسمية والتاريخية قبل انقضاء خمسين عاما إلا بإذن من مجلس الوزراء لأنه يؤدى إلى إسدال ستار حديدى يمكن أن تحجب وراءه حقائق التاريخ له فى الحاضر فحسب ولكن لخمسين سنة قادمة ، لقد كان عبد الناصر كما وصفه الجواهرى الشاعر العراقى (عظيم المجد والأخطاء) .

لقد كان ابناً من أبناء الطبقة المتوسطة الصغيرة ونتاج ثقافتها وتصوراتها وأحلامها القومية والطبقية ، وقد كانت له موهبة خاصة فى التعاون فى العمل ولو إلى حين مع مختلف أجنحة الفكر السياسى والاجتماعى من أقصى اليمين الدينى والمدنى إلى أقصى اليسار مرورا بالوسط ، ومع ذلك فغلبة اليمين الساحقة بين أعوانه فى مجلس قيادة الثورة كانت مؤشراً كافياً إلى أن ثوريته كانت داخل الإطار المحافظ التى تتميزبه طبقته البرجوازية الصغيرة الثائرة على مافوقها ، المقتنعة بما تحتها .

ويشتمل الكتاب على سبعة فصول محكمة البناء ١ - بين البدر والمحاق ٢ - الدكتاتور ٣ - العقد الغامض ٤ - الهرم الأخير ٥ - المحاسن والأضداد ٦ - تصدير الثورة ٧ - جلسة مع هيكل .

وينقد لويس عوض توفيق الحكيم لاتخاذه الطريق السهل فى نقد عبد الناصر وهو التسليم بأننا كنا مجردين من الإرادة وحرية الاختيار ، وأننا فقدنا الإرادة وفقدنا حرية الاختيار لأننا فقدنا الوعى وفى تقديره أن مقومات نظام عبد الناصر وإبرزها القطاع العام مازالت قائمة فالحاضر ليس إلا استمرار للماضى ، ويدافع لويس عوض بالأرقام والإحصائيات عن السد العالى وعن القطاع العام فى مصر ويعتبره نواة مصر الصناعية ، وهو الذى حماها وحمى شعبها من الجوع فى ثلاثة حروب وينقد لويس عوض وجهة النظر المؤيدة لعبد الناصر فى كتاب (بصراحه عن عبد الناصر فيرفض تفسيرات وتبريرات هيكل للناصرية وللهزيمة .

أيا كان الأمر فشهادة لويس عوض صادقة لأنه اختلف بشرف مع عبد الناصر وعانى فى سجونه ولكنه أعطاه ما له وأخذ عليه ما عليه فى موضوعية علمية .

الفصل الثامن

(أقنعة أوروبية) للويس عوض

قرأنا للبعض في صحافتنا الأدبية أخيرا عتاب الناقد الكبير د . لويس عوض عن صمته عن متابعة جهود وإبداعات جيلنا في القصة والرواية والشعر ، ورغم مشاركتنا لهم في هذا العتاب فيجب ألا نقلل أو نغفل جهوده الشامخة في مجالات فكرية ونقدية أخرى ، لعل أبرزها إنجازه الضخم في (التاريخ للفكر المصري الحديث) منذ الحملة الفرنسية وحتى ثورة ١٩١٩ والذي صدر منه حتى الآن خمسة مجلدات حافلة بالتاريخ الوثائقي والتحليل العلمي لتطور فكرنا الحديث ثم مرجعه إلهام في(قمة اللغة العربية) الذي أحدث ثورة وخلاف لم يحسم حتى الآن وإنجازه الحضاري في (دراسات في عصر النهضة الأوروبية) حيث يملكنا جوهر منشأة الفكر العلمي في أوربا .

ولقد أصدر أخيرا مجلد ضخم عن المسرح الأوروبي المعاصر (أقنعة أوروبية) يواصل به التقليد الحضاري الممتد منذ رفاعة الطهطاوي في التعرف على فكر وثقافة أوربا التي يصوغ فكر وثقافة العصر ، وهو استكمال لجهوده السنوية رغم شيخوخته المهيبة في السفر سنويا لرصد ومشاهدة المسرح الإنجليزي والفرنسي والذي قدمها في كتب سابقة منها (المسرح العالمي) و (البحث عن شكسبير) و (دراسات أوروبية) و (رحلة الشرق والغرب) .

وفي هذا الكتاب عرض لأكثر من ثلاثين مسرحية ، ولقد خرج بعد متابعته بنتيجتين (**الأولى**) إنهم في إنجلترا وفرنسا يزكزون كل سنة على كاتب بعينه أو على موضوع بعينه و (**الثانية**) أنهم يحافظون غالبا على تنسية تكاد تكون ثابتة من المسرحيات ذات البعد السياسي والاجتماعي ، ومن خلال هذا يستخلص إلى حد ما ماذا يؤرق الضمير الأوربي ؟ فهم يعيدون تقليب صفحات تاريخهم القديم والحديث والمعاصر لاستخلاص وفهم رموز الثورة الفرنسية وشخصيات مثل دانتون ودويسير

وسان جوست وربما بحثا عن النموذج الثورى الذى تحتاج إليه المجتمعات فى عصور التحول الكبرى وهم كثيراً ما يتكاون جراح النازية الأوربية غالبا إحساساً منهم بأن خطر النازية لم ينقشع تماماً من أوربا أو من العالم الغربى بصفة عامة ، ومع ذلك فهذه الهواجس لاتجد لها ما يقابلها فى المسرح الإنجليزى المعاصر ، وهى ظاهرة تستحق النظر والتحليل فالمسرح فى اعتقاد لويس عوض قناع ولهذا سمى كتابه (أقنعة أوروبية) ومن يهتك هذا القناع يستطيع أن يتصفح قلب أوربا وعقلها .

ومن أبرز المسرحيات التى عرضها لويس عوض بذكاء مسرحيات (دانتون ودويسير) إخراج (روبير جين) وتأليف (الان ديكون) و (سوت دانتون) لجورج بوخنر ، والرابع الثالث) (لبرتولد برنحب) ومسرحية (مشغل الخياطة) (لجان جرومبرج) ومسرحية (بلكونة على جبال الاند) للكاتب الكوبى المعاصر (إدوار مانئة) وليل موسكو بين عامين) للويس اد أجون والنشيد العام لابابلونيزودا) الخ .

ومنهج لويس عوض فى عرضه هذه المسرحيات منهج تعليمى اجتماعى تاريخى حيث يعرض ويحلل ويعرف بالكاتب وأعماله والمخرج واتجاهاته ، ثم يحلل ويلخص الموضوع المسرحى ، غير أنه يغفل غالبا العناصر الفنية من الإخراج والتمثيل والموسيقى والديكور ولا يحدثنا إلا لماما عن اتجاهات البناء التشكيل ، ومدارس الإخراج المسرحى المعاصر ومدارس التمثيل فهو يهتم بالموضوع أساسا ، ورغم ذلك ثمة إشارات تؤكد تغلب اتجاهات المسرح الملحمى والمسرح السياسى على معظم العروض فى فرنسا .

ورغم ذلك فالقارىء لهذا الكتاب الحافل يخرج بمعلومات حافلة عن أبرز كتاب أوربا المعاصريين فى المسرح وتثار لديه الرغبة فى متابعة أعمالهم ، كما أنه من خلال قلم ناقد دارس يعيد تأمله لكتاب كبار مسجوف وأونيل وبيراند لدوجان انوى ، كما أنه يخرج بثمرة فكر وثقافة وهموم أوربا الروحية .

ولاينسى القارىء الإحساس بالسخط على الضحالة التى يعيشها مسرحنا المصرى والعربى من إسفاف فرق المسرح التجارى وحصاد المسرح القومى مسرح الفكر والشعب .

الفصل العاشر

لماذا الصمت والتجاهل

تجديد ذكرى رحيل المعلم العاشر لويس عوض

أليس غريبا ومريبا ومثيرا للتساؤل المحزن القلق عن عشوائية وغيبوبة وتفكك الحركة الثقافة والإعلامية أن تمر ذكرى المعلم العاشر قطب التنوير الناقد والمبدع ومؤرخ الفكر المصرى الحديث . لويس عوض – فى صمت كئيب وتجاهل متعمد من اتحاد الكتاب ونقابة الصحفيين وصحافة ومجلات الحزب الوطنى وحتى أحزاب المعارضة ، وأجهزة وزارة الثقافة .

أليس غريباً أن يظل كتابه (مقدمة فى فقه اللغة العربية مصادرا حتى الآن) دون حكم قضائى بل بقوى الفكر السلفى الظلامى .

ولكن لعل الأكثر غرابة أن ينال لويس عوض القمع والمصادرة من ورثته ... فيقال وأرجو أن يكون خبراً كاذباً أن شقيقه د . رمسيس عوض يرفض إعادة طبع سيرته الذاتية) أوراق العمر – لأن عقلانية وصدق وشجاعة وثورية لويس عوض أخضعت حتى عائلته وعشيرته وخصوصياتها للعقل النقدى وشجاعة الاعتراف وقول المسكوت عنه وكشف القناع المتهرىء عن التابو والمحرم والمقدس ... وبهذا كانت سيرة لويس عوض التى لم تكتمل ... تجاوزا لكل السير التى كتبها رموز الفكر والأدب المصرى قبله والتى كانت من استلاب وقهر المورث والدين والسلطة والجيش ونفاق ثقافى الطبقة المتوسطة .

ولقد وضع لويس عوض سيرته وميلاد وعيه السياسى والفكرى فى سياق تطور الحركة الوطنية منذ ثورة ١٩١٩ وحتى تخرجه من كلية الآداب فى بداية الأربعينيات وتأثره بحياة والده وانحيازه لسعد زغلول ضد عدلى يكن وإسماعيل صدقى ومحمد محمود صاحب اليد الحديدية لذلك كان عباس العقاد كاتب الوفد الأول مؤثرا فى تكوين لويس عوض قبل طه حسين كاتب الأحرار الدستوريين أنذاك وأصحاب العائلات .

لقد التحم وارتبط الفكر النقدى والإبداعي للويس عوض بنضال الحركة الوطنية الديمقراطية التقدمية منذ الأربعينيات وصعودها بمظاهرات وانتقاضات الطلبة والعمال بقيادة شعبية جديدة تتجاوز أزمات الأحزاب الليبرالية بما فيها الوفد بقيادة لجنة الطلبة والعمال سنة ١٩٤٦ والتى قمعها إسماعيل صدقى باشا رئيس اتحادات الصناعة المصرية وأوعى شرائح الرأسمالية المالية التابعة للرأسمالية الإنجليزية والفرنسية والأوربية بمساندة من الاحتلال الإنجليزى والقصر واشتبك فكر وإبداع لويس عوض العلمانى والتنويرى مع كل ما يهدد العقل المصرى العربى من جاهلية وفكر ظلامى وسلفية وقد أدى ذلك لعواصف ومحن وأزمات عانى منها لويس عوض من اليمين واليسار والمنقسم فى نفس الوقت .

لقد أثار عديداً من المعارك الفكرية والنقدية والأدبية تتعلق برموز الفكر والأدب العربى وقدم تفسيرا عقلانيًا نقديًا مقارنًا لأبى العلاء المصرى فى (رسالة الغفران) وحقيقة الدور السياسى والفكرى كمؤسس لتيار إسلامى إصلاحى لجمال الدين الأفغانى وتناقضاته بين العثمانيين والإنجليز وفرنسا وإيران وأفغان وتأسيس الجماعات الماسونية إلخ .

وكذلك ابن خلدون .. والقومية العربية وأصول الشخصية المصرية والفرعونية ... إلخ مما دفع اليمين الأصولى الإسلامى إلى اتهامه ظلمًا بالتعصب وبأنه رسول دوما وصبى المبشرين إلخ .

هذا كان إتهام اليمين له .

أما التيار الماركسى فقد كان حذرا من مفهومه الهيمانى الإنسانى النزعة والراديكالى الاشتراكى الديمقراطى للمذهبية الماركسية الجامدة البرجماتية أو النفعية ودعوته لحرية العقل واحترام ذاتية الإنسان ومجده وحريته هذا رغم تعامل السلطة الملكية منذ اعتقالات صدقى عام ١٩٤٦ كما ركسى وسلطة يوليو ١٩٥٢ الناصرية فى اعتقالات عام ١٩٥٨ ، ١٩٥٩ وقبلها فصله من الجامعة مع ٤٦ أستاذا لانحيازهم للديمقراطيه فى أزمة مارس ١٩٥٤ الشهيرة ودور التقرير المباحثى الذى كتبه (رشاد رشدى) وكيل أعمال البيوت لإبعاده . عن رئاسة قسم الأدب الإنجليزى جامعة القاهرة .

وفصله السادات من عمله بالأهرام مع عديد من الكتاب البارزين قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣ واندلاع مظاهرات الكلية عام ١٩٧٢ .

• وبرغم هذه الحياة القلقة والمضطربة وفقدان الطمأنينة والاستقرار فقد أنجز وأسس لويس عوض وعلى مدى خمسين عام من عمره وعمر مصر منظومة وتنسيق ثقافى من عدة مشروعات فكرية ونقدية وإبداعية رغم إجهاضها وعدم إستكمالها تشكل أبرز الحلقات المضيئة فى أدبنا وثقافتنا المعاصرة .

١ - تشمل (النقد الأدبى) المقارن فهو مؤسس مفهوم المادية التاريخية للنقد أدبى المصرى وتفسير النص الأدبى فى سياق التحول السياسى والاجتماعى غير أنه تجاهل المادية الجدلية يوجد ذلك فى مقدماته الشهيرة فى الخمسينيات ليروسيتوث طليقا) لثلى والأدب الأنجليزى (وهو رأس وفى الشعر) و (الأدب والثورة) و (الأدب والإشتراكية) ... إلخ .

٢ - وفى تاريخ الفكر المصرى الحديث أنجز ٦ مجلدات يرصد فيها من منظور مادى تاريخى يعتمد على عوامل الاقتصاد والسيسيولجيا وما يمكن اعتباره علم اجتماع الثقافة وتاريخ الفكر المصرى منذ صدمة التفتح على الآخر والحضارة الأوربية وفكر الثورة الفرنسية لحملة بونابرت على مصر وتأسيس مصر الحديثة على يد محمد على والخلاص من المنظومة العثمانية والملوكية وتأسيس أسس المجتمع المصرى حتى عصر إسماعيل باشا وانهيار مشروعه الحضارى والاحتلال الإنجليزى لمصر عام ١٨٨٢ وهزيمة بداية الثورة الوطنية الديمقراطية ثورة عرابى ، ويعارض منهج لويس عوض التاريخى منهج المدرسة الإنجليزية وخاصة كتاب كرومر ومن دار فى فلكهم من المصريين وخدمة القصر الخديوى كذلك يعارض تاريخ عبد الرحمن الرافعى لأنه أرخ للحركة القومية المصرية من وجهة نظر الحزب الوطنى مصطفى كامل ومحمد فريد فتجنى بذلك على عرابى وسعد زغلول وثورة ١٩١٩

٣ - فى الإبداع ... هناك فى أغوار عقل ووجدان لويس عوض فنان ومبدع كامن والذى يطرح القناع العقلانى الموضوعى فى ثورات إبداعه فى الشعر ديوان بوتولاند والرواية العنقاء والمسرحية (الراهب) ومحاكمة (إيزيس) ولقد كانت .

هذه النصوص (بلوتلاند) العنقاء) إبداعات تجريبية تشكل موجة حداثية تثور على المفاهيم التقليدية والأساليب التعبيريه المستعملة لم يستكملها لويس عوض فهى انفجارات فى حياته السياسية والثقافية ملتحمه بانفجارات وأزمة واقع الثورة الوطنية الديمقراطية فى معطفها وصعودها فى مصر عام ١٩٤٦ واعتقالات صدقى باشا وهى التى فرضت فى النهاية تدخل العسكريين وانقلابهم فى أزمة النظام الملكى والليبرالية التابعة للاحتلال الإنجليزى فى يوليو ١٩٥٢ فلويس عوض ناقد ومبدع له دور سياسى

فهو ليس أكاديمياً بل معلماً ومثقفاً ثورياً كان قريباً ومنضماً فى التنظيمات الماركسية ويميل فى نقده الأدبى والفني لرموز اليساريين فى الأدب والفن التشكيلى ، غير أنه ليس منتمياً لتنظيم وليس ماركسياً كما قلنا ، وفى (بلوتلاند) حطم لويس عوض ومنذ كتابة قصائده عام ١٩٣٨ وهو فى البعثة فى كامبريدج حتى صدوره على حسابه عام ١٩٤٧ بعد نشره سابقا على الآله الكاتبة .

فى هذا الديوان العلامة والإرهاص الأول بثورة العروض والشعر لقد حطم لويس عوض عمود الشعر التقليدى والتزام القافية وبشر بشعر التفعيلة والمبلودى واستخدام الأساطير والميثولوجيا فهو فى اعتقادى بداية التحول الشعرى الحر الذى استكملته نازك الملائكة والسياب وعبد الرحمن الشرقاوى وصلاح عبد الصبور وأمل دنقل ، وعفيفى مطر وإبراهيم أبو سنة مع الاختلاف فى عمق وحساسية الشاعرية والموقف من الواقع والوجود وفى أدب السيرة كتب لويس عوض (أوراق العمر) (ومذكرات طالب بعثة) .

ولضيق المجال نكتفى بالإشارة إلى إسهاماته فى الترجمة فى المسرح والشعر ، وله كتب فى الفكر الحضارى والتعليم وقضايا السياسة وإشكاليات الثقافة المصرية والعربية فى مواجهة الآخر الأوربى ، والتأثيروالتأثر ليصعب هنا الإلمام بها وتحليلها .

إن لويس عوض مفكر وناقد ومعلم موسوعى إنسانى استوعب وتمثل إنجاز عصر النهضة والفكر التنويرى وواصله بدراسة الماركسية غير أنه راديكالى اشتراكى ديمقراطى وظل حتى رحيله يقدس ويعود إلى مبادىء البهمونانية ومبادىء الثورة الفرنسية فى احترامه حقوق الإنسان فى الحرية والعدل والمساواة ومزج بينها وبين جوانب ماركسية ليبرالية .. وكأنه كان يقرأ المستقبل فيما يحدث الآن من ثورات على الماركسية الاستاليتية الشمولية والعودة إلى الماركسية الليبرالية فى الاتحاد السوفيتى كالسابق والكتلة الاشتراكية الآن .

والدليل على صدق موقفه الفكرى والنقدى والسياسى أن أول كتاب أصدره فى أواخر الأربعينيات هو دفاع وتمجيد لشاعر الثورة الفرنسية شلى (بروميثيوس طلقا) وآخر كتاب له كان تحليلا وإعادة بحث ودراسة للثورة الفرنسية ودلالتها السياسية والاجتماعية فى تطور العالم والثورة العالمية وتمجيدها لحق الإنسان فى الحرية والإخاء واحترام القانون ، لقد كتب الفصل الأخير للكتاب فى جريدة الأهرام عن دويسيير ودانتون وهو على فراش المرض ينازل السلطان ويده ترتعش وكانت كلماته الأخيرة لنا

دفاعًا نبيلاً ومجيداً عن ضرورة سيادة القانون ودعوة مثقف ثورى ديمقراطى يحتصر الأحياء من بعده إلى الاعتصام به .

والآن أشعر باليتم لرحيل صديقى وأستاذى لويس عوض رغم غيابه عن حياتنا وثقافتنا منذ عشرة أعوام ... لقد أتيح لى القرب منه وصداقته منذ عام ١٩٧٤ بعد خصومة فكرية عن صراع الأجيال فقد هاجمت دعوته بعد خروجه من معتقلات عبد الناصر عام ١٩٦١ ضد اليسار حيث خرج محطماً وكافراً بالواقعية فكتب مقالا يدافع عن عودة الرومانسية وكانت ظهرت ترجمات صديقه ثروت عكاشة الذى لعب دوراً مع هيكل فى إخراجه من المعتقل فهاجمه فى مجلة الآداب البيروتية عام ١٩٦١ ، كذلك هاجمه فى الآداب ، بعد هجومة وتجنيه على نجيب محفوظ فلم يكن يحبه ويستعين بالثلاثية ويتهمها زوراً أنها كتبت لتحطم ثورة ١٩١٩ لصالح ١٩٥٢ وانقلابها العسكرى وأنها اهتمت ببناء المتعة والليالى والراقصات والبيوت أكثر من الثوار رغم أن نجيب كتبها قبل الثورة ، أما الهجوم الذى كتبته فى روز اليوسف دفاعًا عن جيل الستينيات وتحديد مبررات ظهورهم فكرياً ونقدياً وسياسيًا ضد استهانته بهذه الظاهرة الأدبية وقوله فى حديث مع أحمد عبد المعطى حجازى أنهم زوبعة فى فنجان هذا الهجوم جعله يطلب من لطفى الخولى أن ألتقى به حيث كنت أكتب فى ملحق الأدب الطليعة اليسارية ومن يومها ونحن أصحاب وأتتلمذ على يدى لويس عوض وزرته كثيراً فى بيته الريفى فى الفيوم ودهشور الذى ورثه شقيقه رمسيس عوض الذى يتحكم الآن فى طبع كتبه ويرفض إعادة طبع أوراق العمر) .. ويشهد على صداقتنا هذا الزميل الكاتب الصحفى المرموق رئيس تحرير الأهالى (نبيل نكى) حيث كان يجتمع معنا أسبوعياً فى النادى الثقافى فى جاردن سيتى وفى هذه الأمسيات كان يتألق المصرى الصعيدى الشجاع المتمرد والمثقف والمعلم والناقد بأحاديث عن السياسة والثقافة ليس هنا مجال كتابتها ... أحتفظ بها لكتابى الذى أعمل فيه من سنوات .

فى النهاية لقد قابلت بالأسس وبصفتى عضوا فى لجنة الدراسات الأدبية بالمجلس الأعلى للثقافة الناقد البارز وقطب مستنير من قيادات وزارة الثقافة د . جابر عصفور وقدمت له طلبًا لعقد مؤتمر موسع لتجديد زكرى لويس عوض بعد عشر سنوات من رحيله فاستجاب على الفور وأصدر أمرا للزميل د . عماد الدين أبو غازى رئيس شعب اللجان بالإعداد العلمى لعقد هذا المؤتمر ... وهذا ليس غريبا عن جابر عصفور تلميذ سهير القلماوى تلميذه طه حسين وصاحب كتاب تأسيس عن طه حسين

هو (المرايا المتجاورة) وجلس على كرسى طه حسين فى قسم اللغة العربية ليس غريباً أن يهتم بلويس عوض تلميذ طه حسين والاستمرار الحى الخلاق لدوره فى تحطيم الأديان والأباطيل الفكرية فى النهاية أستعر قوله فى مقدمه بلوتلاند (إن لويس عوض شاعر أجهز عليه ماركس ولم يعد يرى من ألوان الحياة الكثيرة ومن ألوان الموت الكثيرة إلا لوناً واحداً ، وغدت أمامه الحشائش حمراء والسماوات حمراء . وهو راضٍ بأن يعيش فى هذا الحريق) .

رحمه الله فقد كان الشهادة والنبؤة .

الفصل الحادى عشر

مشكلة لويس عوض الصعبة

الوقائع الغريبة ، والهمس الدائر حول محاضرة الدكتور لويس عوض مجلة « الآداب » يجسد ، بشكل محزن ، مدى الأزمة والضياع الذى وصل النقد الأدبى عند الأساتذة الكبار الذين من حقنا أن نرفض أستاذيتهم ، لأنهم هذه المرة لم يفلسوا فى قيمة المادة الفكرية ، والوعى بمتطلبات الحركة الأدبية ، والقضايا الجديدة التى يطرحها الواقع الاجتماعى والسياسى الذى نعيشه ، بل أفلسوا فى أبسط قواعد الالتزام الأخلاقى للناقد ، والأمانة مع الناس والغير .

وسنطرح من البداية عدة تساؤلات :

لماذا لم ينشر لويس عوض هذه المقالة فى مصر بل تعمد استبعادها من كتابه « رحلة الشرق والغرب » ، ولايمكن أن يتعلل بظروف الرقابة هنا ، فليس فيها شىء حساس ، اللهم إلا تشويه البعض ، وقلب الحقائق ؟

لماذا هذا التشويه المتعمد ؟ وفى هذا الوقت بالذات لانضع وأشرف أبناء الحركة الأدبية والفكرية فى بلادنا منذ ثورة ١٩١٩ ، والمد الديموقراطى والنقدى الذى صاحبها ، طه حسين ، وتوفيق الحكيم ، ونجيب محفوظ ، بل لقد امتد التشويه لكتاب وفنانى اليسار الموهوبين فى القصة والمسرح ، يوسف أدريس ، وسعد الدين وهبة ، ولم يشر إلى (محمود دياب) وكأنه غير موجود ؟ وحتى يجيب الدكتور عن أسئلتنا مع العلم المسبق بأنه لا يستطيع أن يجد إجابة ، أعتقد أننا يمكن أن نرد على أحكامه السوداء المريضة ، بدراسات وأحكام سبق أن كتبها هو نفسه ، ومسجلة عليه ، ولكن قبل أن نقدم هذه الاستشهادات ، وما أكثرها ، نؤكد أننا لا نكتب هذه الكلمة تأييداً ودفاعا عن الكتاب الذين انصب عليهم الهجوم ، وبالذات نجيب محفوظ فمن حق الناقد أن يقيم ويختلف ، ويقول رأيه ، ولكن بدراسات متزنة ومبررات واستشهادات ... إلخ .

فأين النقد الأدبى الجدير بالاحترام الذى قدمه الدكتور الفاضل فى السنوات الأخيرة ؟ أين ما يمكن أن نجده دليلا على وجوده فى رصد تطورات الحركة الأدبية وتحليل مظاهرها والأمواج الجديدة التى تتوالد فى بحرها الزاخر ، إنه رجل معزول ، يدعى صلاحيات أنفناها من زمن ، وشجاعة ، كاتب راديكالى ، ترجسى ، مسان أكثر من كل الذين وجه لهم الاتهامات ونصب من نفسه قاضيا يحكم على أعمالهم .

لقد تعمد الدكتور ومن البداية التستر وراء منهجية تعتمد على الرصد التاريخى للواقع السياسى قبل وبعد الثورة ، وأوهم المستمعين ، أنه ينطلق من قضية الديمقراطية وانعكاساتها على الأدب والفكر ، ولكن تتابع استخداماته وتخريجاته أوصلته للضياع والتجريد ، وعدم فهم أزمة الديمقراطية البرجوازية المصرية ، التى تفجرت بعد الحرب العالمية ، وما زالت قائمة حتى الآن ، تسقط بظلها الكئيب ليس هناك أبيض وأسود ، فى جدل فهم سياق حركة الوضع المصرى فى العشرين سنة الأخيرة وقبل ذلك أيضا ، وبالتالى لايمكن تحديد انتهاء دور فكر ومساهمات طه حسين سنة كذا أو كذا ، وتمجيد سلامة موسى حتى نهاية عمره ، وليس من السهل اتهام كاتب كنجيب محفوظ ، قدم أزمة الصراعات الطبيعية قبل سنة ١٩٥٢ ، وبرؤية برجوازى ديمقراطى وفدى أنه معزول عن السياسة ، غير مؤمن بأحد ، وليس من البساطة تلخيص دور توفيق الحكيم بكلمة ألسنة مشكلة ، صعبة ، ورجل أوربى النظرة) كل ذلك اقتال وادعاء وهروب من دور المفكر ، والناقد ، كضمير للحركة الأدبية ومفسر لتياراتها .

ولأن نجيب محفوظ كان على ما أعتقد هو هدف ومحور الأحكام المتناقضة التى أدلى بها الدكتور ، بحيث يشعر . للقارئ أن له أهدافًا أبعد وأخطر يقصدها لويس عوض ، فستناقش هذه الاتهامات بشيء من التفصيل .

إن لويس عوض ، يتهم الروائى الذى نعتز بإبداعه الأصيل بأنه شوه وجه ثورة ١٩ ، وبأنه الآن ينتج إبداعًا فريداً ، ويعتلى مكانة الكاتب الرسمى لعدوله ويخدم بوعى أو بلا وعى مد الركود وصفحاته الإبداع الأدبى والفكرى ، فى حين أن لويس عوض نفسه يقول لهم فى كتابه (الثورة والأدب) فى دراسة تحت عنوانه « الثورة والثقافة » عن الفترة الأدبية من ٣٦ – ٥٢ ، يقول : « أما محمد مندور ونجيب محفوظ ، وكاتب هذا المقال « يقصد نفسه » فقد ذهبوا مذاهب شتى ، كل على طريقته الخاصة ، يقلبون التجربة ويغرسون النبت الجديد ، فى انتظار شيء يحدث ، فيأتى بالرى والهواء ، أوضوء الشمس وهذه الفتره ظل « نجيب محفوظ » فيها مغموراً ، يعمل فى صمت

أكثر من عشر سنوات ، ويضع أسس الرواية المصرية ، دون أن يلتفت أحد إلى خطورة ما كان يعمله » وهو الآن يحكم على أعمال نجيب محفوظ منذ الثلاثية حتى روايات الشحاذ بأنها دراسات القلق لكاتب برجوازى متأزم ، فى حين أنه هو الذى قدم رواية « الطريق » فى الأهرام ، وليرجع القارىء إلى الجريدة ، فسيجد تقديماً ضخماً واحتفالا برواية البحث والأسلوب المعاصر الذى يثبت لويس عوض بل إنه كتب فى الكتاب نفسه دراسة عن رواية (الطريق اسمها « المحاكمة الناقصة » يقول فيها :

« إنى لعلى يقين بأن نجيب محفوظ قادر على تحمل المسئولية الضخمة ، فى لغة الرواية الحديثة ، لأن فى نفس نجيب محفوظ شاعراً ، لم يستطع النثر أن يخصه ، رغم ربع قرن من النشر المتواصل بل لعل ما فيه من شعر يزكو مع الأيام ، يزكو فى موضوعاته إنها غدت تتجاوز باطراد المجتمع إلى الحياة وتتجاوز باطراد الحدث إلى ما بعد الحياة لعله يستولد لنا من هذا الأسلوب الجديد (الرواية البعيدة) التى تنتظر ظهورها منذ زمن طويل .

فما السبب الذى جمل لويس عوض يناقض نفسه ويذهب إلى أمريكا ويشوه نجيب محفوظ وقيمتة ؟؟

يبقى بعد ذلك عدة مغالطات مضحكة ، وتفسيرات تسجل دور التيار الواقعى الاشتراكى فى أدبنا .

فالدكتور يقول باستهانة أن أصحاب هذا التيار « اتبعوا النموذج الروسى » وأخذوا بالشعرية الروسية ، وكتب عن الطبقة العاملة ، والفلاح ، وينسى أن احترم الصرا ع الوطنى والاجتماعى بعد « لجنة الطلبة والعمال » وانتفاضات ١٩٤٦ ، فرحت نبلات فى قلب العملية التاريخية والاجتماعية للمجتمع المصرى » عبرتهن نفسها فى مد الفكر الاشتراكى والتقدمى ، وانعكست فى أدب الكتاب الواقعيين ، وتعرض الفكر البرجوازى المصرى للنقد ، وبدأت التحليلات والتنظيرات لهذا الاتجاه ، تفرض وجودها ، فليس هذا الاتجاه مستورداً من روسيا ، بل هو تعبير عن حركة الواقع المصرى » أم أن الدكتور نسى مقدماته لكتبه « بروشيوس طليقا » و « شلى » من تفسير المذاهب والاتجاهات الأدبية بنظرة علمية تأخذ علاقات العمليات الاجتماعية بأبعادها الاقتصادية والسياسية فى الاعتبار ولا يستطيع الدكتور أن يتهرب من دعوته عام ١٩٦١ وفى ظل أزمة الديمقراطية والبحث عن حل اجتماعى لمشكلات المجتمع المصرى ، لا يستطيع أن ينسى دعوته للإحياء الرومانسى ، وموت الواقعية ، وتيسيره بكتاب « المساء الأخير » ليوسف الشارونى ، وترجمات جبران ، فقد ضاعت دعوته التى لم

يمتلك الشجاعة فى محاضرته ، ويعترف بها ، ضاعت أمام تماسك وصلابة التيار الواقعى الذى فرض سيادته لأنه كان الانعكاس الطبيعى والصادق لمتطلبات الفكر المصرى فى هذا المرحلة رغم شراسة الحصار الرجعى والفكر البرجوازى المنهزم .

وأخيراً أليس مضحكًا أن يفسر الدكتور عوض تحول كاتبين مثل يوسف إدريس ، وسعد الدين وهبة إلى المسرح بهذه البساطة ؟ إنه هو نفسه قد رحب وحلل مسرحياتهما ، كتطور طبيعى لمواهبهما التى ضاقت بها إمكانيات القصة القصيرة ، ثم إن يوسف إدريس لم يتوقف خلال إبداعه المسرحى ، عن إعطاء مجموعات قصصية جديدة فى الشكل والمضمون ، مثل « لغة الآى آى » ، (النداهة) و (بيت من لحم) وهو لم يكلف نفسه دراستها وفهمها وتقييمها .

ولست فى حاجة لأن أعيد عليه ما يتعرض له كتابنا فى المسرح بالذات بعد أزمة ٥ يونيه من مشكلات التعبير ، والرقابة فالكاتب الذى يهاجمه عن مسرحيته فى المحاضرة ، منعت له ، وهو بصرف ، أكثر من مسرحية ، وليس هذا ذنبه بالطبع .

وأخيرا لماذا لم ينشر سيادته لوحة الكتابات الجديدة التى قدمها الشبان فى القصة القصيرة ، وأصبحت لها صلاحيتها الفكرية والجمالية على وجود نبض فى شخصية شعبنا الذى يعيش الأزمة بكل أبعادها ، ويقهر كل يوم وبشجاعة كل التحديات الخارجية ، والداخلية من أجل مستقبل أكثر رحابة ونقاء ، وحرية ؟

إن لويس عوض فى النهاية هو المشكلة الصعبة ، لأنه تجسيد محزن لأزمة المثقف المزدوج الشخصية ، والمفكر الثقافى الذى افترسته تناقشاته : أولا وأخيراً ، لأن فقد بصيرة « الجهل بفهم الواقع المصرى فى الحاضر ، الذى نعيشه ، لذلك اختلطت عليه رؤية المستقبل

القاهرة .

الفصل الثانى عشر

حوار مع لويس عوض

مهما اختلفت التفسيرات حول قيمة ودلالة إسهامات الدكتور لويس عوض فى الفكر النقدى فى ثقافتنا المعاصرة ، فلا شك أنه - ورغم بعض تراجعاته - يمثل الاستمرار الحى والخلاق للتقاليد التى أرساها طه حسين فى محاكمة الأوهام الباطلة فى ثقافتنا . ونزع النقاب عن الأنظمة اللاعقلية الموروثة ، وإيقاظ الرغبة فى قيام قانون يصبح المفكر فيه هو حقيقته دون تنازل أو تبرير .

ومنذ أواخر الأربعينيات ، ولويس عوض يقدم لثقافتنا الكثير. عاش حياة خصبة نحياها نحن ، من جديد ، حين نقرأه قدم لنا فى مستهلها مقدمات كتب : هوراس وفن الشعر ، بروميثيوس طليقا ، فى الأدب الإنجليزى ، حددت وأصلت بدايات طرق نقدية لازالت الأجيال التالية تعمل على استكمالها وتطويرها . كانت هذه البدايات - فى زمنها - أقرب مفاهيم الأدب والنقد للنظرية العلمية حول مسألة صعبة هى معنى الواقعية ، لاكتيار مدرسى كالرومانسية والكلاسيكية ، بل كتفسير - يعتمد أحكام القيمة والجمال - لحركة الصراع الاجتماعى فى مصر الأربعينيات .

ورغم إيغال مفاهيم لويس عوض فى المنهج التاريخى والاجتماعى لفهم الظاهرة الأدبية ، إلا أنه مهد الأرض للأجيال التى جاءت بعده ، وعانت عملية الصراع الوطنى والاجتماعى قبل وبعد ١٩٥٢ ، واستطاعت أن تضيف أبعاداً جديدة لمعنى «الواقعية الاشتراكية» لا كمفهوم جامد . وكليشيه ثابت . بل كمفهوم رحب ، غنى بتحولات الواقع ، وبإدراك جدل الذات الخالقة مع نوعيتين من الإمكانيات على مستوى الضرورة الطبيعية والاجتماعية لمشكلة الحرية .

غير أننا نظلم لويس عوض لو لم نضع فى اعتبارنا الفنان الكامن فى أعماقه ، والذى يطرح القناع العقلانى الموضوعى فى ثورات إبداعه . فيقدم لنا الشعر فى «بلوتولاند» والرواية فى « العنقاء » والمسرحية فى « الراهب » .

ولا أجد وصفا أقدم به لويس عوض أفضل من هذا الوصف الذى قدمه لنفسه فى « يوميات طالب بعثة » : « لو كنت روسو كنت كتبت للعبيد إنجيلاً حروفه من نار ، لو كنت بيرون كنت سللت سيف العدل والجهاد ولا أغمده قبل ما أرى بعينى عملاق الظلم مضرجاً على سهول بريتوريا ، لو كنت شيلى كنت غنيت مع الصبح ، وملأت الزقاق بأناشيد الخلاص ، لكن أنا ضعيف ، روحى مكسورة ، وريشتى هزيلة ، ودمى مهدور فى خدمة الأحرار » .

* كان هذا مدخلى نحو الحوار مع لويس عوض :

* هل أكون مخطئا إذا قلت بأن ثمة عنصرين يتصارعان فى أعمالكم ومواقفكم : الفنان والناقد ، أو الرومانسية والواقعية .. أو الحرية والالتزام ؟ ..

كان تدريبى الأول فى المدرسة الرومانسية ، والرومانسية الثورية بالذات ، ولكنى أحب أن أفصل وبرغم الصعوبة بين شخصيتين تجمعهما عندى وحدة المعاناة والاستبصار ، الأستاذ من ناحية والأديب الفنان من الناحية الأخرى فأنا كأديب من حقى أن أصبح رومانسيا كما أريد ولكن الأستاذ لا يحق له أن ينحاز إلى مدرسة محدودة ، بل يجب أن يجد العظمة فى كل مدرسة ، الكلاسيكية ، والرومانسية ، والواقعية .. إلخ ، فالمجد له طرق مختلفة والأستاذ مطالب بارتيادها والتعرف على معالم هذه الطرق ، فعندما يعرض على طلبته تاريخ الأدب واتجاهاته يجب أن يكون ملما – دريدن – وبوب ، فى الكلاسيكية بقدر إلمامه بشيلى . وبايرون فى الرومانسية ، وأن يحاول على الأقل أن يتذوقهم ، ويستكنه معاناتهم الداخلية بنفس الحب والاحترام .

أما الإنسان كفنان فمن حقه أن ينشىء ويخلق بالأسلوب وبالخامة التى يختارها من الحياة أو من عالم الخيال ، وهناك أساتذة للأدب غير مدركين لمهمة الأستاذ هذه ، فنجدهم فى إلقائهم للمادة العلمية ينحازون إلى أهوائهم الأدبية وهذا خطأ .

وكنت أحترم أساتذتى الذين يتكلمون بنفس الحماس عن أدموند سبنسر أو بوب ، أو شيلى ، أو ملتون ، ولم أجد إلا أستاذا واحداً فى كمبريدج ، وهو (ليفز) وقد كان

يتهجم ذات مرة بقسوة على بايرون ، وأذكر حتى الآن أننى كنت فى منزله بعد أن توطدت علاقتى به ، وكانت زوجته حاضرة ، يومها أخذ يتذكر أيام الطفولة وكنا نتحدث عن - بايرون - وفجأة قال بطريقة هادئة تخفى تهكما فظيعا إنه كان يقرأ - لبيرون - فى سن التاسعة ، وأنه كان يخفيه تحت الوسادة ، حتى لا يراه أبوه ، لأن قراءة بيرون كانت محرمة على الأيفاع فى زمنه ، وعلق على ذلك بقوله - إن سن التاسعة هو السن المناسبة لقراءة بيرون ، وأذكر أنى قررت لحظتها مقاطعة أستاذى لأنى لا أعتقد مهما كان الإنسان له اعتراضات على بيرون أن يسخر منه بهذا الشكل ، ثم إنى أحب بطبعى الرومانسية ، وهناك رومانسية ثورية ، وأخرى أسميها متعفنة ، وهى متوفرة عندنا ، وأنا من أنصار الرومانسية الثورية عند شيلى وباريون ، وحبى الخاص للرومانسية بهذا المفهوم يقوم على إيمانى بأن الخيال أداة من أدوات معرفة الحقيقة .

*** اسمح لى أن أتوقف هنا ، ما هو التحديد الفلسفى والجمالى للخيال فى ضوء مفهومك أنت ..**

أنا أعتقد أن الإنسان مزود بأدوات يعرف بها الحقيقة والواقع - هى - الحواس والمنطق - الذى هو أرقى صورة لسمو العقل ، ولكننى أعتقد فى نفس الوقت أن طريق المنطق والعقل طريق تحليلى إلى الحقيقة ، وبالتالى فالإنسان يستطيع أن يدرك به الفوارق بين الأشياء ، ولا يستطيع أن يرى به وجوه الشبه بينها ، بمعنى أنه تحليلى وبالتالى فهو لا غناء عنه فى معرفة الحقيقة الجزئية ، أما الحقيقة الكلية فالعقل والمنطق كذلك يقف مشلولا أمامها ، ولا سبيل للإنسان إلى معرفتها إلا بملكة أخرى تمكنه من التركيب بدلا من التحليل ، أى ملاحظة وجوه الشبه بدلا من ملاحظة وجوه الاختلاف ، وباختصار تمكنه من رؤية الوحدة بين الأشياء بدلا من الفرقة ، وهذه الملكة هى ملكة الخيال ، فأنت عندما تقول - حبيبتى نجمة مضيئة ، أو حين يقول صلاح عبد الصبور - وجه حبيبتى خيمة من نور - أو عندما يقول - نشيد الإنشاد عيناك حمامتان ، فالواقع أن الشاعر فى جميع هذه الأحوال يرى عن طريق التركيب ما بين كائنات الوجود من وحدة وهذا هو جوهر الشعر والفن ، فهناك فى الحياة أشياء لا يستطيع الإنسان أن يثبتها بالمنطق ، فأنت لا تستطيع أن تثبت أن الطبيعة خيرة بالفطرة ، أو أنها شريرة بالفطرة ، أو تثبت بالمنطق أن ألوان الشفق جميلة ، فأنت إذن بحاجة إلى

حاسة أخرى ، تدرك بها وحدة الأشياء فى الكون ، وهذه الملكة هى ملكة الخيال الذى يمكن الإنسان من أن يرى الوحدة بين ألوان الشفق والطيف ، وبين الهارمونى فى الموسيقى وبين العمل الجميل أو فعل الخير ، وكلها تبعث الطمأنينة والفرح فى نفس الإنسان ..

ولذلك تجد أنى أعتقد أن للأسطورة والرمز وظيفة لا تقل أهمية عن وظيفة الفلسفة والتاريخ والعلم ، بل أكاد أقول إن أهم ما فى الحياة من كليات مثل علاقة الإنسان بالكون أو مبدأ الإيمان على إطلاقه دون دخول فى تفاصيل وهو الإحساس بالانتماء إلى الكون الأكبر ، وأن الإنسان ليس لقيطا فى هذا الوجود وهو مصدر الحاسة الدينية عند الإنسان ..

كل هذه الأشياء لا يمكن إثباتها بالمنطق ، وقد جرب (كانت) من قبل هذه التجربة فوجد أن حتى وجود - الله - نفسه - لا يمكن إثباته أو نفيه بمجرد استخدام المنطق والعقل .

*** ألا تعتقد أنك تردد بذلك وبصوتك الخاص : الجوهر الجمالى للنظم الفلسفية المثالية من أفلاطون حتى هيجل ..**

أنا أعتقد أن أصحاب النظم الفلسفية الشامخة للمالية من أفلاطون وحتى - هيجل - فى طموحهم لاستحضار فكرة كونية قائمة على الوحدة الخصبة فى الوجود ، تقوم على أنهم فى الأصل شعراء وليسوا فلاسفة ، وهذا يدلك على أن الشعر والفن كما ذكر - أرسطو أقرب إلى الحقيقة من التاريخ والفلسفة وإنما الخطأ يأتى عند عامة الناس من محاولة تطبيق الخيال على الجزئيات التى تقع تحت دائرة العقل وحده أو العلم والمنطق .

ومن الخطأ أن يستخدم الإنسان أداة العقل فيما يخضع لأداة الخيال ومن الخطأ أن يستخدم أداة الخيال فيما يخضع لأداة العقل لأن ذلك قد يسلمنا إلى الخرافة .

فالخرافة أصلا أسطورة منسوجة حول رمز نبيل عظيم لأنه يعالج كليات المعانى وكليات الأشياء والأحداث ، وفى عصور الانحطاط تتحول هذه الأسطورة الخصبة إلى تاريخ وإلى وقائع وقعت بالفعل ، فينسى الناس معناها الرمزى العظيم ويحولونها إلى حدوته مبتذلة ، بل حدوتة قد تعيق الإنسان فى سيره نحو التقدم .

*** هل يعنى هذا أنك تحاول إقامة توفيق جديد بين المثالية والمادية ..**

أعتقد أن الروح والمادة وجهان لنفس الشىء ، وأن الزمان والمكان وجهان لنفس الشىء ، فالحقيقة أن الحياة فى تجربة وحدة الوجود هى فى ذاتها مجازفة كبرى ،

وأنا شخصيا وصلت إليها عن طريق التفلسف المبنى على الاستقراء المادى ، ولكنى للأسف غير قادر عليها كلحظة وجد وصوفية فأكتفى بأن أعيش فيها بالخيال ، والخيال وحده غير كاف ، لأنها فى الواقع تجربة لها نوعية صوفية مدمرة : أن توجد فى لحظة التقاء الزمان والمكان والأبد والأزل والفعل والسكون .

هذه أزمة روحية لا يحسد عليها إلا الصوفيين وللأسف أيضاً أن أكثر الصوفيين يحددون إمكاناتهم الصوفية ، بانتمائهم إلى معتقدات مسبقة ، أو خرافات مسبقة (يقينية) .

هذه اللحظة النادرة فادحة الثمن وأنا أخاف منها .. لقد عشتها بكل ويلاتها وعذوبتها فى منحنيات حادة من حياتى ، ولم أتخلص من سطوتها وكثافة مشاعرها ودوامة توتراتها إلا بممارسة عملية الخلق لأصل لنوع من التعادل مفتقد مع الحياة ، فأنا لم أكتب - بلوتولاند - والعنقاء - والراهب وغيرها من أعمال لم تنشر إلا فى لحظة التوهج هذه وطبعا لست مستعدا فى هذا الحوار أن أتحدث عن أزمات المراحل السياسية والاجتماعية والصدامات التى جذبنى إليها واقعنا قبل وبعد ١٩٥٢ فأنت تستطيع أن تعود لكثير مما كتبته من مقدمات لهذه الأعمال أو فيما كتبته عن محمد مندور ، والعقاد ، وطه حسين ، فقد حاولت على قدر الإمكان أن أضىء خلفيات الأجواء الفكرية والسياسية التى كانت هذه الأعمال الفنية القليلة التى كتبتها استجابة لها ، وترجمة لفترات خصبة وصعبة وموحية من حياتى غير أنى أحتفظ حتى الآن بالكثير مما لم أقله ولم أكتبه .

*** ولكن هل تسمح لى أن أسجل هنا التجربة الأولى لرحلة الإبداع ، وأن نتقصى معا الدوافع الأولية التى شكلت مزاجك الفنى ؟ ..**

لقد بدأت المحاولة شاعراً وقصاصا ، وكنت التهمت كتب العقاد ، ورفاعة الطهطاوى ، وطه حسين ، وسلامة موسى ، ولطفى السيد ، وشبلى شميل وآخرين ، كذلك وجدت فى مكتبة والدى - يزعم اتزانها وميلها للدراسات الفلسفية الأخلاقية والدينية - قدراً من روائع الشعر والرواية الإنجليزية ، كنت صبيًا فى الرابعة عشرة أعيش فى صعيد المنيا غير أنى كنت يقظا أتنسم مع جيلى أصداء البعث القومى لثورة ١٩١٩ ، ولأن والدى كان وفديا ، فقد كانت مأساة كئيبة لحظة أن مات سعد زغلول ، أحسسنا يومها أن شيئا كبيرا قد سقط ، لحظتها وبرغم أنى لم أر جنازته فقد عبرت عن إحساساتى بقصيدة رثاء من بحر الرمل ، ولا زلت حتى هذه اللحظة أعيش فى جوها ..

إنها البداية والتعرف على السر والرعشة التى انتابتنى وأنا أكتبها أسلمتنى وحتى الآن لجوهر التكوين المصرى فى التاريخ والحاضر والمستقبل ، كذلك أذكر أنى كتبت عدداً من القصص ، نشرته فى جريدة أقليمية كان صاحبها يبتز أموال الملاك وكبار العائلات وهذا أغضب والدى ، لقد كره دائما أن أصبح أديبا لأن الأدباء فى ذلك الوقت وحسب تعبيره (كانوا شتامين ولا مستقبل مضمون لهم) ، وهو قد تدخل بقسوة فى تكييف رغباتى وأحلامى ، وعندما شعر بحدة اتجاهى للأدب طلب منى أن أصبح مدرسا للأدب .. فهذا أكثر احتراما .

نعم لقد عانيت من عقلانية وحذر والدى الذى كان موظفا صغيرا يحافظ على كرامته ، وكثير من أدباء هذه الفترة كانوا يقدمون مثالا سيئا لمعاركهم الحادة ، غير أنى وحتى الآن أحتفظ برواسب هذه التجربة الأولى لأنها علمتنى وحتى بعد دراستى فى كمبريدج أن دراسة الأدب وخلقه عملية متحدة ، تعطى الناقد شمولا وعمقا فى تذوقه وأحكامه .

*** وقبل أن أتحدث عن اتجاهى فى النقد أو تحديد ما يمكن أن أسميه منهجى النقدى ، أحب أن أقول كتمهيد :**

أنا من المؤمنين بوحدة الثقافة الإنسانية رغم اهتمامى بدراسة آثار البيئة المحلية ، والتاريخ القومى فى تكوين الأدب والفن ومن هنا تجد عندى نزوعا دائبا إلى النظرة المقارنة ، تجد هذا فى دراساتى الجامعية مثل رسالتى عن لغة الشعر فى الأدبين الإنجليزي والفرنسى ، وهو بالإنجليزية ، ومثل دراستى عن أسطورة بروميثيوس فى الأدب الإنجليزى والفرنسى ، وهو أيضا بالإنجليزية ، وكما تجد فى كتابى (أسطورة أوريست والملاحم العربية) ، كذلك دراساتى عن ابن خلدون والمعرى ودراساتى فى تاريخ الفكر المصرى الحديث ، ومحاولة تأصيله فى لقاء الثقافتين العربية والأوربية ، كما أن بعض النماذج من الأدب العالمى التى أقدمها ، الهدف منها هو وضع هذه النماذج تحت بصر الكتاب أو القارىء المصرى والعربى لعله يستفيد من تجربة الغير ، ومن هنا اتجهت لترجمة أجاممنون ، وحاملات القرابين ، والضارعات أو الصافحات وكذلك ترجمت الضفادع لارستوفان إلى جانب تقديم تلخيصات للمسرحيات العالمية فى عصور متعاقبة من اليونان وحتى العصر الحاضر ، وبعض مسرحيات شكسبير ،

وأعتقد أن محاولاتى لتقديم دراسات عن كتاب أوربا الشرقية والغربية وأيضًا بعض كتاب عالميين مرموقين ، كل هذا يوضح فكرتى عن وحدة الثقافة الإنسانية ، وأن الثقافة المصرية والعربية بعامة لا يمكن أن تعيش فى عزلة عن ثقافات الأمم الأخرى .

أما من الناحية الأخرى فتجد أن اتجاهى فى النقد قبل ١٩٥٢ كان تأصيل المنهج التاريخى .

*** أرجو أن تحدد هنا ومن واقع خبراتكم معنى المنهج التاريخ .**

إن تعريفى للمنهج التاريخى هو التقاء عبقرية المكان وعبقرية الزمان ، وعبقرية الحدث ، أو الأحداث فى العمل الفنى ، وليس مجرد الصفة الإقليمية البحتة ، وربما كنت قد أهملت الجانب النفسى فى توصيف الأعمال الفنية والأدبية باستثناء دراسة لى كتبتها عن د. هـ لورانس ، ثم بعد أن فرغت من وضع الأسس النظرية لهذا المنهج فى النقد قبل ١٩٥٢ اشتغلت طوال عصر الثورة من ١٩٥٢ وحتى ١٩٥٨ بتطبيق هذا المنهج على الأدب المصرى الحديث : فتستطيع أن تقول إن كل ما كتبته عن توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ، ويوسف إدريس ، ويحيى حقى ، وصلاح عبد الصبور ، وألفريد فرج ، وسعد الدين وهبه .. إلخ كان امتداداً وتطبيقا لنظريتى فى علاقة المجتمع والتاريخ بالإنتاج الأدبى والفنى .

*** غير أنك بشرت فى أوائل الستينيات بما يسمى الإحياء الرومانسى وشحوب الواقعية فما تفسير ذلك ؟**

حتى ما كتبته فى أوائل الستينيات عن محاولة الإحياء الرومانسى فى الأدب المصرى الحديث لم يكن دعوة للرومانسية إنما كان رصدا لتحول خطير حدث فى مسار الأدب المصرى المعاصر من الواقعية الاشتراكية إلى الواقعية الرمزية عند الكتاب الواقعيين ، وإلى الرومانسية الصريحة عند الكتاب البرجوازيين أو الفرديين حتى أنصار الواقعية الاشتراكية ، ونتيجة لظروف وتناقضات سياسية أبعدوا من ١٩٥٩ وحتى ١٩٦٤ ، لذلك لجأ من بقى منهم إلى ارتداء الأقنعة ، هكذا .. أصبحت «خضرة» تعنى مصر ، و«الطواف» هو البروليتارى المسحوق ، والشعب هو «السبنسة» والسلطان هو «أوديب» و «السيد البدوى» ، أو «عبد الله» .. وفى روايات نجيب محفوظ ، نماذج عديدة لهذه الأقنعة حاولت أن استقصى بعضها فى «السمان والخريف ، والطريق ، واللص والكلاب» وكل هذه الأشياء لتصوير ما يعترى المجتمع المصرى من تشنجات

اجتماعية لم تجد طريقها إلى الحل ، وتركت لنا بعض الشخصيات القلقة ، وقد تبلور هذا الاتجاه فى أدبه بعد النكسة حتى طغت الرؤية العبثية على بعض تصوراته .

أما توفيق الحكيم ، فنجد أيضا أنه من الممكن تأصيل إيزيس - والسلطان الحائر ، والصفقة ، وبنك القلق ، وهى جميعا من إنتاج العشرين سنة الأخيرة ، يمكن تأصيل هذه الأعمال تاريخيا أى النظر إليها كتعبير عن الواقع المصرى فى لحظة تاريخية معينة .

*** ولكن كاتبا - كيوسف إدريس طور وعمق من مفاهيمه الواقعية ، وأصدر عدة مجموعات قصصية تؤكد هذا التيار ، وأذكر أنك وقفت فى دراسته عند مجموعة قديمة هى (حادثة شرف) .**

أنا اهتممت بيوسف إدريس ككاتب مسرح ، فبعد أن كتبت عن مجموعته (حادثة شرف) التفت باهتمام إلى تجاربه المسرحية ولا سيما بعد نجاح (الفرافير) وهو أيضاً ينطوى تحت باب الواقعية الرمزية كزملائه من الكتاب الواقعيين فى المسرح الذين لجأوا إلى الأقنعة ، ولأن المسرح فى مجموعه قناع فتصور أن أدباءنا يلبسون قناعين ، قناعًا من وراء قناع . فى داخل قناع المسرح يلبسون قناع الرمز ، لأن التعبير عن الاشتراكية كان فى وقت من الأوقات أمراً يحف به الحرج .

*** قد حاولتم أكثر من مرة فى دراسات ومحاضرات إعطاء تقييم نقدى لمستوى وتطور أدبنا المصرى الحديث وأحدثت هذه المحاولات ردود فعل متعارضة ، فهل يمكن فى هذا الحوار أعطاء صورة أكثر تحديداً أو حكما نقديا صريحا .**

إن الحكم على أدبنا فى مجموعة يتعين أن يكون على ضوء مكانته من التراث الإنسانى المعاصر له ، والماضى ، وهنا أجدنى ملزما بأن أقول : إن مشكلة المشاكل عندنا هى أن تطور أدبنا الحديث (وأقصد بالحديث من أوائل القرن التاسع عشر أى منذ عصر النهضة المصرية) لم يتخذ ذلك المسار الطبيعى الذى اتخذه غيره من الآداب العظمى بسبب وقوعنا بين مؤثرين خارجين ، هما - الثقافة الأوربية والثقافة العربية ، مما نجم عنه أن عبقرية الشعب المصرى الممثلة فى فلولكلوره ولغته وسماته الاجتماعية والنفسية الأساسية قد أهدرت تماما ولم يتجه إليها الكتاب كمنبع أول من منابع الثقافة القومية ، كما حدث فى أوربا فى عصر النهضة ، ومنذ عصر النهضة ، فالذى فعله

الأوربيــون هـو أنهم نظروا إلى تراثهم القـومى الشـعـبى فى كل بلد من بـلاد أوربا وجددوه وأعـادوا صـيـاغـته شكلاً ومضـمونًا ، وحملوه أبعـاد كل عصر واهتمـامـاته ومشـاكله حتى التراث اليونانى حولوه إلى مـادة فولكلورية ، أو خامة فولكلورية تعاد صياغتها جيلاً بعد جيل لتعبر عن روح كل عصر ومشاكله ، فهناك وحدة عضوية بين أسطورة أوريست عند اليونان بأبعادها القديمة وأسطورة أوريست كما تناولها سارتر فى مسرحية (الندم) ليحملها أبعاد الفكر والقلق الوجودى ، وهذا ما فشلنا فى أن نفعله عبر مـائتى سنة ، لم ننظـر إلى مـلاحمنا الشعبية كسيرة عنترة والأميرة ذات الهمة ، وسيف بن ذى يزن ، والظاهر بيبرس ، وتغريبة بنى هلال والزير سالم .. إلخ ، على أنها منجم يمكن أن نستخرج منه خامة الأدب والفن ، وننقيها ونعيد صياغتها بما يتفق مع ظروف كل عصر ومواهبة ، وبالتالى فقد وقع الشعر المصرى مثلاً بين طرفين هما البحترى ، وبول فاليرى ، أو ت . س . إليوت ، هذا الانفصال الحضارى كان سببا فى أن الأدب العربى الحديث قد عجز حتى الآن عن أن يعبر حدود الإقليمية وأن يجتاز عتبة العالمية ، وليس من الضرورى أن نكون أمة عظمى لكى يسمع العالم صوتنا فى الأدب والفن فاليونان الحديثة دولة صغرى ولغتها غير معروفة العالم ، ومع ذلك تفجرت عبـقريتـها فى أدب كازندزاكى ، وكذلك فى يوغسـلافيا عند اندرقتش تفجرت الروح العربية ، وقـل كـذلك عن ناظـم حكمـت فـى تركيـا ، وبابلونيـرودا فى شيلى ، ولوركا فى أسبانيا .

نعم إن من يقرأ لوركا ، يحس بعبير أسبانيا ، بدم الثيران السـائل ، بالأرض الوعرة ، بالرجال الخشنين ذوى الإرادة الحديدية ، بنساء أسبانيا المعتقلات فى سجون الدين ، والمعتقدات والخرافات .

ومع ذلك فـإنى لا أحب أن أظلم الناس أو أظلم أنفسنا ، فنحن قد ظهر بيننا فى الفترة الأخيرة محاولات للرجوع إلى تراب مصر وطين مصر ، وماء مصر إلى الفلاحين وإلى الوجدان المصرى ، كما تبلور عبر آلاف السنين فى المواويل والقصص الشعبية ، والشخصية الشعبية هناك محاولات فى المسرح مثل : إيزيس لتوفيق الحكيم ، الفرافير ليوسف إدريس ، والزير سـالم لألفريد فرج وكل هذه بدايات ولو اهتممنا نحن بتعميق هذا الاتجاه لأمكن بالتلقائية أن نكون مخلصين لأنفسنا ، ونحن لن نلتقى مع العالم

الكبير إلا إذا كنا مخلصين مع أنفسنا ، وربما كانت هذه البدايات لا تزال تحبو ولكن المهم أن نعرف أول الطريق ، وهذا فى حقيقته ما ينبغى أن يكون عليه جوهر الصراع بين أنصار القديم والحديث فى الأدب والفن .

إن الدراما خرجت من الملحمة ونحن لدينا ثروة قومية ضخمة من الملاحم ، وقد كان ينبغى أن يتجه إليها كتاب المسرح عندنا منذ بدأ المسرح المصرى بدلاً من قيام (عثمان جلال) بترجمة راسبين وموليير للعامية المصرية ، وبدلا من لجوء إخواننا الشوام إلى وضع مسرحيات عن الأمراء العرب فى العصر العباسى ، فبذلك استعادوا من ناحية الشكل ومن ناحية المضمون أشياء لا علاقة لها بواقع الحياة المعاصرة لهم .

كان ينبغى أن يتجه كتابنا وفنانونا إلى الملاحم والقصص الشعبية ليستخرجوا منها خامة لمسرحهم أو لأدبهم المسرحى ، كما أدرك وفعل توفيق الحكيم فى مسرحية – شهر زاد – وخاتم سليمان بعد مائة سنة من ممارسة المسرح فى مصر ، والعالم العربى ظهرت شهر زاد – فتصور لو كنا قد سرنا فى هذا الطريق منذ بدايات القرن التاسع عشر ، كان يمكن أن يكون لدينا الآن أدب يقف فى مستوى الآداب العالمية .

*** لنعد إلى الموقف الفكرى وأعتقد أنك تشاركنى الإحساس فى سيادة البلبلة والانتقائية وفقدان الاتجاه الحضارى ، بجانب مشكلات محددة كثنائية الثقافة عندنا وسيادة المناهج الأسطورية المعادية للعقل ؟**

نحن لم نتخط بعد فترة النقل ، بل بالعكس لو كنا أتممنا ما بدأناه على أيدى الطهطاوى وحتى محمد مندور من تفهم المذاهب الكبرى فى الأدب والنقد والفن والسياسة وعلم الاجتماع ، وكل هذه الأشياء ، لكنا الآن فى موقف نظرى وعملى أفضل مما نحن فيه الآن ، ولكن للأسف فى السنوات الأخيرة ، اختلطت نظرية الأصالة الطبيعية التى كنا نجدها من تقاليد الفكر المصرى منذ الطهطاوى . واستبدلت بنظرية الانبثاق والاكتفاء الذاتى قبل تطور الفكر المصرى والثقافة المصرية والمجتمع المصرى تطوراً صحيًا كافيًا ، يبلغ به سن الرشد ، فكأن حالنا حال تلميذ لم يتم دراسته ، أو وقف عند مرحلة الدراسة الثانوية ، ثم تمرد على التعليم ، وأعتقد أن فطرته ، وتقاليد أسرته فيها ما يكفى ، من خبرة للحياة ، ونشأت عن هذه درجة عظمى

من البلبلة بسبب تقطع صلاتنا بالفكر العالمى حديثة ووسيطه وقديمه وغدونا نرى كتابا يحدثوننا عن اليونان دون أن يقرءوا اليونان ، بل ربما يحدثوننا عن كال ماركس دون أن يقرءوا لكارل ماركس وساعد على ذلك إهمال تعلم اللغات الأجنبية بحيث أصبح اعتماد الجيل الشاب ومنذ سنوات عديدة يكاد يكون اعتماداً كليًا على فتات المعارف الإنسانية التى قام على نقلها الرواد من الطهطاوى إلى محمد مندور مروراً بلطفى السيد وطه حسين .

وأخشى أن يكون هناك كثير من التزييف فى الفكر المصرى الحديث ، فحتى أصحاب الميول الشمولية الفردية كالنازية عندنا ، لم يعنوا بتثقيف نفوسهم برومانتيكية فاجنر ونيتشه وفيخته ، ففى كثير من الأحوال تجد رجلا عليه جميع سمات الفكر النازى من ناحية فهمه للتكوين الاجتماعى والأهداف وغايات المجتمع ، ومع ذلك نجده عاشقا لموسيقى أم كلثوم ، والتى تعبر عن نوع من الحضارة أقرب إلى المجتمع العبودى ، حيث علاقة الإنسان بالإنسان هى علاقة السيد بالعبد ، وعلاقة الرجل بالمرأة هى علاقة السيد بالأمة ، مجتمع القيان والجوارى والحريم ، وكل هذا يجعل وطأة الأشكال والمفهومات القديمة أكبر من القدرة على محاولات التغيير .

*** يتهمك البعض بأنك صامت عن تقويم إبداع جيل الستينيات من الكتاب والشبان ، وهم غاضبون ، لأنهم يعتقدون أنك أقرب النقاد إليهم . فماذا ترى ؟**

أنت تخطىء لو ظننت أننى لا أتابع أعمال هذا الجيل ، وأحب أن أقول : « إننى أعتقد أن هناك جيلين من أجيال الثورة : الجيل الذى كان يافعا عندما قامت ثورة ١٩٥٢ ، وهذا كان أصغر سنا من أن يمتص القيم الإيجابية فى العهد البائد ، ولم ير منه إلا وجهه القلق ، وحين جاءت ثورة ١٩٥٢ ، لم يكن ناضجا نضوجا كافيا لمناقشتها مناقشة تحليلية فاعتنق كثيراً من دعواها أو نظراتها دون تحفظ ولا سيما أنها كانت البديل الوحيد المطروح أمامه فعاش فيما يشبه الحلم فى فكرة القومية العربية ، والوحدة العربية ، وفيما يشبه الحلم فى الاتجاهات الاشتراكية الغامضة التى عبر عنها الميثاق ، قبل فكرة الوحدة الوطنية كما كانت مطروحة منذ هيئة التحرير إلى الاتحاد القومى ، ثم الاتحاد الاشتراكى ، دون محاولة لإدراك مفهومها الاجتماعى الحقيقى

على الأقل من ناحية الممارسة وأبرزها مشكلات ما تضمنته فكرة تحالف قوى الشعب العاملة بمضمونها السياسى من اعتراف بوجود قوى وصراع بينها بغير توازن ، فى حين استمر آخر أفراد للتحالف أن يصبح لا تحالف قوى اجتماعية بل تحالف أفراد أو مقاولى طبقات .

هذا الجيل الأول عندما حدثت نكسة ٦٧ كان أكثرهم قد بلغوا الثلاثين فأصبح من العسير عليهم أن يعيدوا تنظيم حياتهم أو أن يبحثوا عن مفهومات جديدة ، ولهذا اقترنت الإفاقة من الحلم بالإحساس بالمرارة وباليأس من مستقبل مصر ، وعاش كل منهم لنفسه يحل مشاكله على المستوى الفردى .

أما الجيل الثانى وهو الجيل الذى كان فى سن المراهقة عندما حدثت هزيمة ٦٧ ، فهذا الجيل قد أفاق إلى بعض الحقائق الهامة فى الحياة المصرية التى أدت إلى هزيمة ٦٧ ، وإلى تعثر التجربة الاشتراكية وهو لا يزال فى مقتبل العمر ، وقبل أن تتكون قيمه الأساسية وتصبح منهجا فى الفكر وأسلوباً فى الحياة ، وهذا الجيل تحرك أكثر من مرة يبحث عن أسس جديدة للمجتمع المصرى تكفل التحرير الوطنى والعدالة الاجتماعية ، وبالطبع لا تستطيع أن تقول إن هذا الجيل برغم مبادراته قد استطاع أن يهتدى إلى القيم الإيجابية التى يبحث عنها وأن يخرج من مرحلة الاحتجاج إلى مرحلة بلورة فكره السياسى والاجتماعى فى معتقدات ونظم واضحة المعالم ، فهو مثلا يتحدث عن الديمقراطية تصوراً مصرياً جديداً من عنده ، ونفس الكلام يقال عن فكرته عن الاشتراكية وعن فلسفة العلم والإيمان وعن فلسفة التحرير الوطنى أو التحرير الاجتماعى .

وهذا الجيل ليس جيلاً ضائعاً لأنه دخل مرحلة البحث فى سن البحث ، وإذا كان لم يهتد بعد إلى صياغة جديدة للمجتمع المصرى أو لتصور جديد لعلاقات مصر فى الخارج أو الداخل فهذا ينتقص فعلاً من فاعليته الحالية ولكنه يترك الباب مفتوحاً أمام نضوج مستقبله ، وبالنضوج أعنى أن يعرف الإنسان ماذا يريد ... صواباً كان أو خطأ ، والنضوج الأكبر هو أن يهتدى الإنسان إلى الحلول الصائبة ، النضوج الاجتماعى هو الأول والنضوج الفكرى هو الثانى .

وهنا تبدأ فاعليته عندما يصيب النضوج الأكبر وهو النضوج الفكرى ، ويتجاوز مرحلة النضوج الاجتماعى العاطفى الذى قد يقود الأفراد والمجتمعات إلى أنواع من الحلول قد تمليها العاطفة الإيجابية ولكنها سوف تظل دائما قاصرة لأنها متعارضة مع الفكر والعقل .

وللأسف فإن هذا الجيل لا يجد القيادات الفكرية الكافية التى تعينه على استكمال بحثه عن الخلاص ، ولا شك أن هناك أصواتا تسمع هنا وهناك تحاول أن تقوده فى الطريق القويم ، ولكن هذه الأصوات ، لا تصل إلى المدى المؤثر .

انظر مثلاً إلى جيلى ، نحن لأفضل لنا فى اقترابنا من تكامل القيم ، لأنه كان لنا أساتذة ورواد عظماء مثل طه حسين ، وسلامة موسى ، والعقاد فى فترة من فترات حياته ، وهؤلاء رغم تعدد مدارسهم إلا أنهم ساعدونا بالفكر وبالكلمة وبالسلوك وبفرص الحياة على أن نعرف طريقنا إلى ما كنا نسمية بالعقد الاجتماعى ، ومشكلة الجيل الحاضر أن يحاول أن يكتشف بنفسه ما هى أركان العقد الاجتماعى الجديد ، خاصة بعد اجتيازه مع وطنه امتحان بداية عبور الهزيمة وإعطائه دمه بسخاء فى حرب ٦ أكتوبر ، ليرسم وبرغم الصعوبة طريق المستقبل ، وبهذا المعنى تستطيع أن تقول :

« إن طريق الأجيال الجديدة أشق من طريقنا وسوف يكون فضلهم أكبر من فضلنا » .

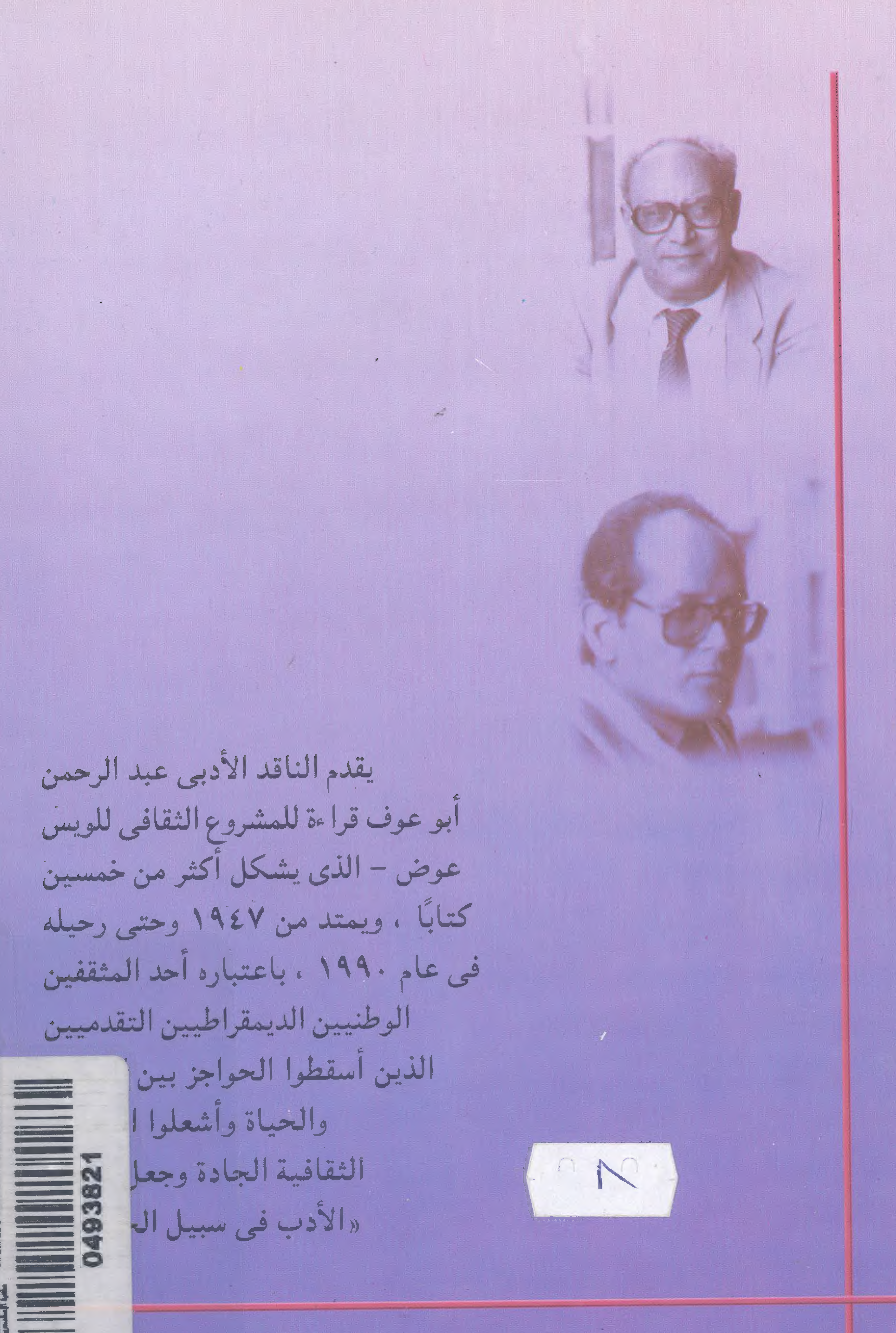
مجلة الطليعة – مايو ١٩٧٤

الفهرس

الصفحة

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٤٦٧٦ / ٢٠٠١



يقدم الناقد الأدبى عبد الرحمن
أبو عوف قراءة للمشروع الثقافى للويس
عوض - الذى يشكل أكثر من خمسين
كتابًا ، ويمتد من ١٩٤٧ وحتى رحيله
فى عام ١٩٩٠ ، باعتباره أحد المثقفين
الوطنيين الديمقراطيين التقدميين
الذين أسقطوا الحواجز بين
والحياة وأشعلوا ا
الثقافية الجادة وجعل
«الأدب فى سبيل الـ